

الزيرباشا ودوره في السودان في عصر الحكم المصري

د. عز الدين إسماعيل



المكتبة - الأرشيف
الوطنية - المصرية



Bibliotheca Alexandrina

2051970



تاريخ المصريين

(١١٣)

● تاريخ المصريين

رئيس مجلس الإدارة:

د. سمير سرحكان

رئيس التحرير:

د. عيد العظیم ومضان

مدير التحرير:

محمود الجزار

تصدر من

الهيئة المصرية العامة للكتاب



النزير باشا ودوره في السودان في عصر الحكم المصري

د. عز الدين إسماعيل



الهيئة المصرية العامة للكتاب
مركز الصحافة
١٩٩٨

تقديم

يسرني أن أقدم للقارئ الكريم هذا الكتاب عن « الزبير باشا ودوره في السودان في عصر الحكم المصري » ، للدكتور عز الدين اسماعيل ، وهو في الأصل رسالة علمية حصل بها صاحبها على درجة الماجستير . وبالتالي تتوافر فيه الشروط العلمية التي تجعل منه دراسة تاريخية جديرة بالقراءة .

وهو ينقسم إلى خمسة فصول قدم لها الدكتور عز الدين اسماعيل مقدمة تحدث فيها عن الزبير باشا والأصول الأولى لأسرته حتى مولده في عام ١٨٢١ عندما كان السودان خاضعا للحكم المصري .

وفي الفصل الأول ، وهو بعنوان ! « بداية ظهور الزبير رحمه في السودان » ، تحدث عن عمله بالتجارة ، وذهابه إلى بلاد النيام (النمام) ، ومقابلته للملك كريم ، ونزاعاته مع حاكم البلاد التي زارها . أما الفصل الثاني ، فقد تحدث فيه عن الدور الذي لعبه الزبير باشا في بحر الغزال وبلاد شكا ، وتعرض لموقف حكومة مصر من تجارة الرقيق في السودان ، وتعيين خورديون حاكما لبحر السودان ، والتفكير في ضم بحر الغزال ، وحملة محمد البلالي لاختضاع إقليم بحر الغزال . كما تعرض للصراع بين الزبير ومحمد البلالي حتى قتله في سنة ١٨٦٩ ، واستتباب السيطرة له على بحر الغزال ، وقيامه بتنظيم أمور مديرية بحر الغزال ، ودور الزبير في فتح شكا وتلايين حرب الرزيقات . كما تعرض لتعيين الزبير حاكما على بحر الغزال وشكا في عام ١٨٧٢ .

أما الفصل الثالث ، فقد تعرض فيه للدور الذي لعبه الزبير
في فتح دارفور ، والأسباب التي أدت لغزو سلطنة دارفور ، وأسباب
النزاع الذي نشأ بين الزبير والسلطان إبراهيم ، وشكوى سلطان
دارفور للخديو عن حركات الزبير وحكمه دار السودان ، وتعرض
للمعاركة الحربية بين الزبير والأمير حسب الله ، وهزيمته لجيش
الأمير حسب الله . كما تعرض لعملية الشرق بقيادة الحكمدان
إسماعيل باشا أيوب ، وموقعة منوالشي ، ودخول العاصمة الفاشر .
وتعد موازنة بين دور جيش الزبير ودور حملة الشرق في فتح
دارفور . كما تعرض للخلاف بين الحكمدان والزبير ، ووقوع الزبير
في خطأ الذهاب إلى القاهرة لعرض الخلاف بينه وبين الحكمدان ،
حيث قضى بقية حياته كضيف شرف لدى الخديو .

أما الفصل الرابع ، فهو بعنوان « الزبير - جورديون » ، وقد
تحدث فيه عن الدور الذي لعبه الزبير في الحرب الروسية التركية ،
وثورة سليمان الزبير ومقتله ، والأهداف التي أعقبت مقتل سليمان
ابن الزبير ، ورفض الزبير الاشتراك في حملة سواكن . كما تعرض
لحوادث إخلاء السودان ، واجتماع الزبير وجورديون في القاهرة ،
واقترح جورديون إعادة استخدام الزبير في السودان ، وفشل هذه
الفكرة ، وما ترتب على فشلها من نتائج . وانتهى بنفى الزبير إلى
جبل طارق سنة ١٨٨٥ .

وقد اختتم الباحث دراسته بفصل خامس تناول فيه الزبير
باشا وصحته في نهاية حياته .

والكتاب على هذا النحو يعد دراسة ممتعة لصفحة من صفحات
الحكم المصري في السودان جديرة بالقراءة .
والله الموفق .

رئيس التحرير

د. هيد العظیم رمضان

الزبير باشا

المقدمة :

أهملت المصادر التاريخية حلقة مهمة في سلسلة تاريخ أسرة الزبير ، فلم يذكر المؤرخون شيئاً من أصولها الأولى ، أو موطنها الأصلي . بل كان الغبوض هو الواجهة التي أحاطت بأصولها الأولى . وقد يكون هناك من الأسباب ما جعل المصادر التاريخية تهمل تاريخ هذه الأسرة . وهي على وجه التقريب عدم استطاعة مؤرخي العصر آنذاك التنبؤ بما سوف يكون عليه بعض أبناء هذه الأسرة من شأن في المستقبل . وقد تناول بعض المؤرخين الفترة التي عاشتها هذه الأسرة أيام الاضطرابات التي حدثت بالعراق على أيدي المغول وخاصة في بغداد وهذه المعلومات لا تفي بالغرض المطلوب لتغطية تاريخ هذه الأسرة وحتى هذا الوقت يمكن القول بأن تاريخ أسرة الزبير مازال ينقص حلقات كثيرة .

فبعد أن فادر هولاكوا(١) حفيد جنكيزخان بلاد المغول في سنة ١٢٥٣ م على رأس جيش جرار بقصد القضاء على طائفة العشاشيين(٢) وعلى الخلافة في بغداد مما ، وهي الحملة الثانية

من حملات المغول ، أرسل هولاكو الى الخليفة المباسي المستعصم بالله (١٢٤٢ - ١٢٠٨ م) (٣) يدعو للمساعدة معه في الحملة على الحشاشين وهي طائفة من فرقة الاسماعيلية ، فلم يلب الخليفة دعوته . وفي سنة ١٢٥٦ م تم للمغول احتلال عدد كبير من قلاع الحشاشين ، فتنقوضت بذلك اركان هذه الفرقة من اساسها ، وبينما كان هولاكو يعبر المضيق الشهير على طريق خراسان ، وفي سبتمبر من السنة التالية ارسل انذارا الى الخليفة يطلب منه التسليم وهدم سور بغداد الخارجي ، فرد عليه الخليفة ردا مراوفا . ولم ينتظر هولاكو بعد ذلك بل هاجم اسوار بغداد في شهر يناير سنة ١٢٥٨ م ، واعمل فيها المنجنيق ، ففتح ثغرة فيها ولم يشعر الناس ببغداد الا ورايات المغول ظاهرة على سورها الداخلي من احد الابراج . وخرج الوزير ابن الملقم للمفاوضة على الصلح ، الا ان هولاكو رفض مقابله ولم يلتفت الى قول من كان يزعم « ان الحنف نصيب من يجرؤ على قهر مدينة السلام بغداد او النيل من خلافة آل عباس » ، فلم يعبا بشيء من هذا واستمع الى نصيحة منجيه . وفي العاشر من شهر فبراير اقتحمت عساكره المدينة ، فخرج الخليفة في ثلاثمائة من خاصته وقضاته خاضعين مسلمين دون قيد أو شرط ، وبعد ذلك بعشسرة ايام امر هولاكو بقتلهم جميعا .

اخذ الفاتحون بعد ذلك في القيام بالمزيد من المذابح بين اهل بغداد حتى قتلوا على اكثر سكانها ، ولم تستثن اسرة الخليفة نفسه من هذه الذبحة ، ولاول مرة في تاريخ الاسلام اضحى العالم الاسلامي دون خليفة يدعى له على المنابر في صلاة الجمعة .

تقدم هولاكو الى شمال سوريا في سنة ١٢٦٠ م ، ففتح حلب ، وقتل بخمسين ألفا من سكانها ثم دخل حماة واتم الجيش الذي تركه في الشام فتح اكثر البلاد السورية (٤) ، واعلن امراء سورية الصغار خضوعهم لهولاكو بعد سقوط بغداد مباشرة ، اما المهلبك في مصر ،

مكاثروا أول من وقف في وجه هؤلاء الغزاة وقتة موفقة . وكان
المغول قد طلبوا اليهم الاستسلام ، فرد عليهم المماليك بهجوم شنوه
على فلسطين ، وانزل المماليك بالمغول هزيمة حاسمة سند عين
جالوت في ٢ سبتمبر سنة ١٢٦٠ م ، واستطاع المماليك والسلطان
بيبرس خاصة تخلص سورية برمتها شيئا فشيئا من أيدي هولاء
وخلفائه . وكان الانحلال قد أصاب قوة المغول ، فلم يكن في
وسمهم تدارك الهزيمة التي وقعت لهم على يد المماليك (٥) .

كانت تلك الناجمة التي أصابت الخلافة الإسلامية ببغداد على
أيدي المغول من المواقف العصبية المثيرة التي لفتت أنظار المسلمين
كافة ، وأثارت فيهم روح الانتقام لما أصاب خلافتهم .

وفي وسط هذه الأحداث الجسام قدر لعهد غير قليل من
المسلمين من أهل العراق الفرار طلبا للنجاة بحياتهم وذويهم من
المذبحة المروعة التي تمت في بغداد على يد هولاء التتار ، وكان
من بين هؤلاء الفارين الشيخ جموع بن غانم الجد الأكبر لأسرة
الزبير ، الذي استطاع أن يفتدى حياته بكل ثروته ، وكانت تزيد
على مائة ألف دينار ثم لم يلبث أن خرج بنسائه وأولاده وحاشيته
قبل أن ينكث المغول بعهدهم له تاركاً وراءه بغداد المحترقة ، وولى
وجهه شطر الشام فراراً من المغول ، ومن الشام مضت قافلة الشيخ
جموع بن غانم نحو مصر . وفي مصر حاول الشيخ أن يستعيد
ماضيهِ ، فبقي من الصعاب ما يضيق إلى شيفوخته وإلى
الأهوال التي لقيها في الطريق عبثاً ثقيلاً لا يلبث أن يسرع
به إلى القبر ، يرث الابن وكان يدعى جميعاً تركة أبيه المثقلة بالأهوال
ويزيد عليها ما كانت تعانيه مصر في تلك الآونة من اضطرابات
وعثن ، عقب تولى الملك المعز الحكم بعد اقضاء شجرة الدر (٦) عتبه ،
وما صاحب ذلك من صعوبة العرش وتسوة الحياة ، فلا يلبث الابن
أن يلحدر مع أهله وعشيرته ومن أثر الانضمام إليه مع النيل نحو
الجنوب (٧) .

استقر أفراد عائلة الشيخ جميع على جانبي النيل الأبيض بينما شق الآخرون طريقهم إلى دارفور ، واقيم واداي (٨) . وبين كثير من الأسر والعشائر التي انتشرت على طول وادي النيل ، والتي كان بعضها يتحدر من سلالة القبيلة المعروفة بالجميعاب ، التي ترجع أصولها الأولى للجد الأكبر جميع كما سبق الذكر ، هؤلاء الناس وضعوا رحالهم واستقروا على النيل بين جبل جبري وجبل الشيخ الطيب (٩) وأصبحوا مشهورين في أرجاء السودان ، وذلك بسبب شجاعتهم وإخلاصهم الروحي (١٠) .

لم يكن السودان منطقة مغلقة عبر مصور التاريخ أمام هجرة القبائل العربية أو غيرها سواء من طريق شبه جزيرة العرب من ناحية الشرق ، أو عن طريق مصر من جهة الشمال ، بل كانت المصب الذي تحط فيه تلك القبائل المهاجرة رحالها سواء في شمال الوادي أو في جنوبيه . وينطبق هذا على قبيلة الجميعاب كما ينطبق على بقية القبائل . وقد وجدت قبيلة الجميعاب في بيئة السودان الجديدة ، ما ذكرها بهواطنها الأولى الأمسلية ، بل وجدت في مراعيها ما لم تجده في مصر من مراعي كافية . وكان في انقباض سهل السودان ، فضلا عن انتشار الدعوة الإسلامية بها ، وتسامح الإسلام ، مما ساعد على استقرارها واستقرار هذه القبائل (١١) . هذا بالإضافة إلى ما لقيته بعض القبائل من الاضطهاد في مصر إبان العصور السياسية ذات المذاهب الدينية المختلفة ، التي تنازعتها منذ الفتح العربي لها مع اتصال أسباب التجارة بين السودان وما جاوره من الممالك العربية ، وما ينجم عن هذا الاتصال من الالة والمودة التي قد تبلغ حد المصاهرة والاقامة والاستقرار في هذه الربوع (١٢) .

وللحديث عن تاريخ أسرة الزبير منذ مقدمها إلى السودان حتى مولد الزبير لابد أن نتناول الأصول التي انفصلت عنها هذه

الأسرة ، فالأصل هي قبيلة الجميعاب ، وما بلغت النظر أن
 في السودان خمس قبائل على الأقل ، اشتقت أسماءها من الاسم
 الأصلي جميع الذي يعنى بالانجليزية — Gather or collect —
 وهي التي تدعى الانتساب إلى المجموعة الجمعية . وهذه الأسماء
 هي الجوامعة (المفرد جميع) ، الجمعة ، الجموعية ، الجماعات ،
 الجميعاب ، والصلة التي تجمع بين هذه القبائل الثلاث الأخيرة
 تمثل في أنهم ينحدرون من أشقاء ثلاثة . أما الأقليم الذين كانوا
 يحطونه حينئذ هو بالفعل الإقليم الذي يتركونه في الوقت الحاضر ،
 ويمتد على الشاطئ الغربي للنيل الأبيض بمسافة من ٣٠ إلى ٤٠
 ميلا جنوبى أم درمان (١٣) — Omdurman ، ولأبعد من جوز نفسه
 — Goz Nefisa بالقرب من خانق سبلوقة — Shabluka ،
 وكذا أراضي جنوب كررى — Kerri على الضفة الشرقية
 للنيل . وكان لهذه القبائل دائما الفسوز والخلبة . أما قبيلة
 الجميعاب — Gimiab ، فهي تنحدر من المجموعة الجمعية
 بالسودان كما ذكرنا والجميعاب نصف رحل وينتسبون إلى :

(١) شاهيناب — Shahinab ومنها جماعة نامابات —
 Naamabets .

اب) جوداب — Godab

ج) شيراب — Shibrab

والى جماعة النامابات ينقسم الزبير رحمة (١٤) .

وقبيلة الجميعاب من أشهر قبائل العرب في السودان على
 النيل الأبيض ، ويسكنون بين عقبة القرى والشيخ الطيب (١٥) .

وقد عرفت بقبيلة الجميعاب نسبة إلى جميع أما نسبة الزبير
 فهو الزبير بن رحمة بن على بن سليمان بن ناعم بن سليمان بن بكر

ابن شاهين بن جميع بن جموع بن غانم العباسي ، التي قسدر للزبير أن ينحدر من أصلها . وهناك شيان اشتهرت بهما هذه القبيلة من بين القبائل كلها وهي الشجاعة وحماية الزمار ، ثم المسارعة الى الترحيب بالحكم المصري عندما دخل السودان اسماعيل باشا نجل محمد علي باشا سنة ١٨٢١ م فأتها ، فاستقبله أعيانها بالترحاب ، وماهدوه على الولاء ، وكان من بينهم الشيخ رحمة والد الزبير ، وأخوه حفظوا العهد ، وقبلوا على صيافته الى أن وافاهم الأجل ، وحفظ الولاء لهم من بعدهم الزبير (١٦) .

جاء مولد هذا الزعيم السوداني في فترة كان فيها السودان خاضعا للحكم المصري في عهد محمد علي الذي كان قد قام بفتح هذه البلاد سنة ١٨٢١ م ، وكان من طبيعة هذا الفتح أن أضفى على الجزء الذي تم فتحه من السودان بعض الهدوء والاستقرار .

وفي صبيحة السابع عشر من شهر محرم سنة ١٢٤٦ هـ الموافق الثامن من يوليو سنة ١٨٣١ م في جزيرة واوإسي الهائلة الخضراء ، التي تقع على أربعين ميلا شمالي الخرطوم ، ولد الزبير رحمة . وفي هذا اليوم جلس والده رحمة بن منصور يستقبل الأهل والأصدقاء الذين حضروا لتهنئته بمولد ابنه الزبير .

وفي ربوع هذه الجزيرة قضى الزبير سنين طفولته المبكرة في اللهو البريء ، والانطلاق الحر الذي لم يكن يقيدته غير صوت أمه وهي تعتب عليه كلما عاد الى منزلهم الواسع متعبا من العدو واللعب مع رفاقه من الصبية ، فيجاوبها عندئذ صوت أبيه الهادي ، وهو يقف في صف ابنه مداعبا عنه أمام صوت أمه المعاتب راسعا يديه الى السماء يستجديها من أجل أنه مستقبلا حافلا سعيدا .

وقد تأثرت نشأته وطفولته المبكرة الى حد كبير بالبيئة التي ولد فيها ، وبالرفاق الذين اختلفوا به ، وبسماحة والده وحرصه الشديد على حياته ، وخاصة والدته .

وقد بدأ الزبير ، ياتيه العملية بعد أن بلغ السابعة من عمره ،
أرسله والده إلى مدرسة الخرطوم لتعلم القراءة والكتابة ، وحفظ
لقرآن الكريم ، فأتى ذلك . وفي المدرسة تعلم الكثير (١٧) وكان
حفظه للقرآن على رواية أبي عمرو البصري ، وتلقاه على مذهب
الامام مالك (١٨) الذي لقي افشاراً واسما في القارة الأفريقية .

وبهذا القدر القليل من الدراسة اختتم الزبير حياته الدراسية ،
وبدا والده يوجهه لتعلم المهارات الشائعة في عصره ، التي كان
لا بد منها لكل من شب من الطوق ، حتى يستطيع مواجهة ظروف
البيئة التي يعيش فيها ، وكانت أول هذه المهارات هو تدريبه على
ركوب الخيل وكافة ألعاب الفروسية ، وقد حقق كل ذلك واتقنه ،
حتى صار له فيها شأن لا يجارى . ولما كان من عادة القبائل
العربية أن يتزوج الشباب من إحدى قريباته ، فقد تزوج الزبير
عندما بلغ الخامسة والعشرين من عمره من ابنة عمه ، وكان هذا
الزواج بداية لاستقرار حياته . وأخذ يمارس التجارة لتكون
مورداً لمعيشته ، وخبل له أنه قد انتهى من تحديد أمر مستقبله كما
يريد ويختار (١٩) .

وقد كان عمله في التجارة ، وزواجه من ابنة عمه بداية
لمرحلة جديدة في حياته ، فقد كان الزبير يعتقد على اشتغاله
بالتجارة آمالاً كبيرة من ناحية الاستقرار والكسب المادي الذي
يضمن له حياة مطمئنة لبعض الشيء ، إلا أن الأقدار رسمت له
طريقاً آخر مخالفاً للذي خطه لنفسه وكان هذا الطريق ملوفاً
بالمغامرة والأهوال ، ولم يكن باستطاعته أن يخيره أو يتجنبه .

وفي سنة ١٨٥٦ م ولم يكن قد مر على زواج الزبير أكثر من
سنتين ، دفعت به الظروف إلى أن يذهب إلى الجنوب ، وتبدأ
خروجه هذه القصة عندما بلغه أن ابن عمه محمد بن عبد القادر قد

ارتحل إلى الجنوب بعد أن التحق بخدمة تاجر من تجاره يدمى مليا أبا عموري (٢٠) ، فجزع لسماع هذا الخبر لأنه لم يكن يتصور في يوم من الأيام أن ابن عمه يفعل ذلك ، ومن ثم وطد العزم على الارتحال إلى الجنوب ليلحق بابن عمه كي يثنيه عن عزمه ويعود به من حيث أتى ولم يتردد بعد ذلك في الإسراع للحاق بهذه القافلة فأدركها عند ود شلعي (٢١) على النيل الأبيض إلى الجنوب من الخرطوم على مسيرة يومين منها ، وبدأ له من اللحظة الأولى التي التقى فيها بابن عمه أن مهبطه لن تكون سهلة أبدا ، مهد أبي أن يستمع لنصحه أو رجائه . واقسم ألا يعود إلى الخرطوم قبل أن يتم رحلته هذه . فلما أن يلقى ذويه غنيا ثريا ، ولما أن يمضي في عداد الهالكين ، كان عنيدا جريئا ككل أفراد آل رحمة ، غير أن الزبير مع هذا لم يفقد الأمل في اقناعه .

ومضى يستعرض أمامه أخطار هذه الرحلة ، فلم يردد إلا تشبثا بها ، عندئذ نثر الزبير آخر سهامه واقسم له بالطلاق أنه لن يعود إلى الخرطوم إلا وهو معه ، وأنه أن لم يكف من عزمه هذا ، فسوف يسافر معه إلى بحر الغزال ، قالها الزبير ظلما منه أن ابن عمه لن يرضى بسفره معه ريتضحيته هذه ، فيفسطط عندئذ للعودة إلى الخرطوم ، ولكن هذا القسم الغليظ لم يجد معه وهكذا وجد نفسه بالرغم من كل ما بذله من جهد لاقناعه مضطرا في النهاية للبر بشسمه ومشاركته في هذه الرحلة ملتحقا هو الآخر بخدمة علي أبو عموري . وفي الرابع عشر من سبتمبر سنة ١٨٥٦ م غادرت القافلة ود شلعي ووجهتها بحر الغزال ، وكان هذا هو الخيط الأول في القصة (٢٢) .

نرى مما سبق أنه بعد أن فشل الزبير في محاولته للتأثير على ابن عمه للعودة معه ، التقى بآخر سهامه وهو شسمه بيمين

الطلاق أن لم يعد معه ، فسوف يتبعه في رحلته . وإذا نظرنا إلى تلك الرواية نجد أن بين الطلاق هذه هي من أشد الأيمان وأغلظها عند المسلم . أما عن تأثيرها على ابن عمه فإنه لم يبال بها أقسم به لأنه كان قد وطد عزمه على الاستقرار في رحلته مع ابن عموري ، ويتضح من القسم الذي أقسمه للزبير والذي وضع له فيه أنه لن يعود إلى ذويه إلا ثريا ، أو يمضي في عداد الهالكين . وقد كان هذا اليقين هو الفاصل في سفر الزبير مع ابن عمه كما كان السبب في اشتغاله مع أبي عموري واتخاذة التجارة مهنته الأساسية ، يضاف إلى ذلك عامل حب الزبير لابن عمه وخونه عليه من المخاطر والأهوال . ولم تكن الرحلة إلى الجنوب سهلة ميسورة بل اتسمت بالقسوة والخشونة لما أحاط بها من مخاطر وأهوال الطريق .

وإذا كان العناد من أبرز صفات الأسرة ، واتضح هذا العناد في موقف ابن عمه ... فإن هذا العناد يقضض أيضا في موقف الزبير ، فقد أقسم بيمين الطلاق لابن عمه على ضرورة العودة معه ، وحين رفض الأخير لم يجد الزبير أمامه مناداة المتصلل بدا من أن يبر بقسمه ويتبعه في رحلته . ولم يكن الزبير يملك شيئا تجاه تطور الأحداث على هذا النحو ، لذا فقد توجه إلى الله بل بالدعاء أن يحفظه وابن عمه بفضلله ورحمته ، وأن يردهم سالمين من هذه المخاطرة ، وقد استجاب الله لدعائه ، فبالرغم من كل الصعاب والأخطار التي لقيها ، فقد عادت عليه الرحلة بأكثر مما كان قد توجه به إلى الله في دعائه ، فقد كانت هذه الرحلة سبب نجاحه وشهرته وما أصبح فيه من منزلة في بلاده لم يصل إليها أحد من قبل . ولم تكن هذه الرحلة الأولى مع أبي عموري سهلة ميسورة فقد دفعا فيها من النصب والاجهاد وتحمل المشاق لنا عسيرا منذ اللحظة الأولى التي التحقنا فيها بخديته (٢٣) .

وقد وصلت السفينة التي اتلفتها الى مخرج المرق (٢٤) وبدأ
عملها بعد ان التحقنا بجماعة ابي عموري وسرعان ما اندمجا في
البيئة الجديدة وكينا نفسيهما بالوسط الذي وجدنا فيه ، وبعد
اعوام كانت شهرة الزبير كناجر تفوق شهرة التجار الآخرين . وقد
اكتسب صداقة الزعماء ، واهل البلاد وصاهر ملك بلاد النيام
نيام ، فعلا نجمة ومسا مقامه (٢٥) .

هوامش المقدمة

(١) هولكو (١٢١٧ - ١٢٦٥ م) : وهو جنيد جنكيز خان ، وجهه أخوه منكوقان الموقلي الأعظم لأخيلاد ثورة في فارس سنة ١٢٥٦ م ، فعبر نهر جيحون ، فأهلت سفار الأبراء في فارس ولاءهم له فلم أبان هذه الصلة بالقضاء على ملكه الحشاشين وقتل زعيمهم ركن الدين ، ثم واصل بعد ذلك حيلاته حتى كانت هزيمته سنة ١٢٦٠ م في عين جالوت قرب بلدة الناصرية في فلسطين . أسلم هولكو بعد هزيمته واتجه شرقا ، وقد عبرت أبلخاتيقه التي شملت بلاد فارس حتى سنة ١٢٢٥ م وفي هذه السنة قضت إلى خمسة أقسام .

(٢) الحشاشين : طائفة من فرقة الاسسسمايلية دعت إلى أمية نزار ابن المستنصر . وبؤسها الحسن بن الصباح ، الذي انضم وهو حدث لقدموة العاطية وقد وفد على حمر في أثناء حكم الخليفة المستنصر الناطقي ، وانضم إلى مؤيدي أمية نزار ثم حاد إلى إيران ، وبعد دعوته فيها بقتل حوله كثيرون . وفي سنة (١٠٦٠ - ١٠٦١ م) استطاع أن يستولى على قلعة الموت الجبلية الحصينة واتخذها مقرا لدعوته . ثم وجه اعتيابه للاستيلاء على قلاع أخرى وإلى التخلص من أمواته . وقد تميل بتنظيم دقيق ، والتمكذ الاختيال أداة يتخلصون بها من أعدائهم ، فكان يرأسهم السيد أو شيخ الجبل وهو صاحب الأمر والنهي ، ويليه الدعاة ، ويطلقون أوامرهم منه ، ويلتدون طليمانه ، ويتقسم الباقون إلى مراتب حسب اطلاعهم على أسرار الفرقة ومن أهم هؤلاء فئة الغدائيين الذين كانوا يفتلون الأعداء .

(٣) المستنصر بالله : (١٢١٢ - ١٢٥٨ م) آخر خلفاء الدولة العباسية بالعراق . ولد ببغداد وولى الخلافة ١٢٤٢ م في أحد أيام شعبان ، احتج على وزيره مؤيد الدين ابن العلقمي . تم للسلول الاستيلاء على بغداد في عهده ، ثم قتلوا سائرته وعلماها ، وآبقوا على الخليفة حيا إلى أن أرشدتهم على أماكن الأموال ، ثم قتلوه وبموته انقرضت الدولة العباسية في العراق .

(٤) غيليب حتى وآخرون : تاريخ العرب ج ٢ ص ٥٨٢ - ٥٨٤ .

(٥) كارل بروكلمان (ترجمة) : ابن مقرب ووزير البعلبكي (تاريخ الشعوب الإسلامية ج ٢ من ص ٢٧٢ - ٢٧٣ .

(٦) شجرة الدر (ت ١٢٥٧ م) : ثقب بعصبة الدين ملكة مصر ، وهي من جوارى الملك الصالح نجم الدين أيوب . اشترها أيام أبيه وولدت له ابنة ختيلا ، فأعتدها وتزوجها ، ذهبت معه إلى الشام ، أيام كان ماثوليا عليها ، وكانت تدير الملك أثناء غيابه عن العزوات . كان خطها يشبه خطه ، فكانت تعلم على التواضع . أخفت خبر موته أيام المماليك الناشئة بينه وبين الأفرنج بالمصورة ، وخطب لها على السامر ، وسكنت باسمها النقود ، حكمت ثمانين يوما وخرجت انقسام على طاعتها ، فتزوجت وولدها عز الدين ، وتنازلت له عن السلطة مكتفية بالسيطرة عليه . طلق زوجته الأولى أم علي من أجلها ، ولكن لما أراد أن يتزوج عليها أمرت مملكتها بقطوعه ، ولكن زوجته المطلقة أم علي أمرت جوارها بقتلها .

(٧) سعد الدين الزبير : الزبير باشا رجل السودان من ص ٩ - ١٠ .

(٨) واداي : سقطلة سابقة لشرق أفريقيا الاستوائية قرب بحيرة تشاد . تأسست فرنسا واداي في القرن التاسع عشر الميلادي ، ودرست عليها الحياة سنة ١٩٠٣ م ، وصارت منذ سنة ١٩٠٩ م جزءا من أفريقيا الاستوائية الفرنسية ومن ماضيها بدا طريق القوافل إلى بشاري ، وإلى أفريقيا الغربية . أهم معالمها النحاس والتصدير والرساكن .

(٩) جبل الشيخ الطيب : جبال الشاميات وهو مؤسس الطريقة السامانية في السودان ، وله قبلة تزار واقعة في سفح جبل صغير يعرف بجبل أم مرجي الثقب بجبل الساحل نسبة إليه .

Jackson, H.C. The black ivory and white P. 8. (١٠)

(١١) محمد محمود الصياد (دكتور) ، محمد عبد الغني سعودي (دكتور) : السودان من ١٦٠ .

(١٢) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من ص ٧ - ٨ .

(١٣) أم ديمان : تقع فجاء الخرطوم وغرب النيل في خط عرض شمالي ٢٨° ١٥' وخط طول شرقي ٢٩° ٥٣' ، وقد كانت قبل ذلك بلدة صغيرة قائمة في سهل مسيح رملي لا شجر فيه وكانت محطة لرجال تجار الخرب قبل دخولهم الخرطوم . تسببت الحكومة بها بدء الثورة المهدية طابية استولى عليها المهديون في ٥ يناير

سنة ١٨٨٥ م ، واحتل البلدة انصار المهدي نفسه ، وعند وفاته دفن فيها ، بنى خليفته عبد الله العميشي قبة فوق قبره جعلها مزارا وجعل أم درمان عاصمة للكلية وسماها بقبة المهدي .

Macmichael, H.A. : A history of the Arabs in (١٤)
the Sudan PP. 221 — 222.

(١٥) عبر رضا كماله : معجم الصالح العرب القديمة والحديثة ج ١ ص

٢٠٦ .

(١٦) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ١٠ .

(١٧) سعد الدين الزبير : نفس المرجع ص ١٢ — ١٣ .

(١٨) نعم شكير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافية ج ٣ ص ٦ .

(١٩) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ١٣ .

(٢٠) علي أبو عسوى : من أهالي نجع حمادي بصعيد مصر ، ومن أوائل التجار الذين أسسوا مراكز تجارتهم في خندكور وغريت ، وكان مع غيره من التجار شركات تملك الكثير من القرايب في كل من بحر الغزال وأهالي النيل ، وكان يتصف بأنه محدودب الظهر حديد التقلبات قصير القامة .

(٢١) ود شلمى : وهي من مدن النيل الأبيض التابعة لمديرية الجزيرة وتقع على بعد ١٨ ميلا من القطنية وهي مرسى جيد للسفن .

(٢٢) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ١٤ — ١٥ .

(٢٣) مشروع الرق : وهو مرسى على بحر الغزال تستطيع السفن أن تتجاوز جنوبا ، والمشرع يمكن للتجارة على شكل مربع من حروق الاشجار يقيم فيها التجار أو وكيله ومعهم بعض الحراس للخفاف ولجلب الرقيق وقد دفع الفديوى أسماهم لتعويضات لاصحاب المشرع ليقتلوا منها للحكومة .

(٢٤) سعد الدين الزبير : نفس المرجع ص ١٦ .

(٢٥) عبد الرحمن زكي : اعلام الجيش والبحرية في مصر أثناء القرن التاسع عشر ج ١ ص ٩٤ .



الفصل الأول

بداية ظهور الزيبر رحمة في السودان

بداية ظهور الزبير رحمة في السودان

نهـسـيـد :

تحرك الزبير رحمة للحاق بابن عمه محمد بن عبد القادر في الجنوب خوفا عليه من محاطر وأهوال الطريق بعد غشله أمام عناده على الاستمرار فيها اعتزم عليه ، وكان ذلك التحرك من المواقف ذات الأهمية في تغيير مجرى حياته ، وقد كان من الجائز أن تفسد عليه هذه الحادثة حياته ، ولكن صدره وعناده واستعداداته العظلى كان يدفعه الى الامام في سبيل ما أرادت له الأقدار كافة ألوان المحاطر والأهوال التي تكتنف الرحلة الى الجنوب ، وكان هذا بداية لتاريخ حافل في حياة الزبير مملوء بالاثارة وحب المغامرة ، وكان العمل في الجنوب أيا كان نوعه يعتبر في حد ذاته خطرا على من يمارسه ، ويحتاج الى الرجل الذي لا يهاب المضي قدما فيما عرضه عليه الواقع من ضرورة وجوده في هذه الأصقاع الفاتنة ، ولم يكشف الزبير في نفسه هذا إلا بعد أن صمد للكثير من التحديات التي واجهته في رحلته مع ابن عمه والتاجر على أبو عموري بجنوب السودان (١) .

بدأت رحلة الزبير الاولى الى جنوب السودان في ١٤ محرم سنة ١٢٧٣ هـ الموافق ١٤ سبتمبر سنة ١٨٥٦ م حينما غادر ومن

معه قرية « ود شلعى » وهو يدعو الله أن يشفى عليه من حياته ورعايته في هذه الرحلة التي توقع منها المخاطر والأهوال ، ولكنها كانت السبب الأول في تقدمه وشهرته في مجال التجارة . ومن خلال هذه الرحلة وصل إلى القمة إلى لم يصل إليها أحد في بلاد السودان من قبل .

كان الزبير يتخوفا جدا من هذه الرحلة ، ولم يصبح أهلا لهذه المكائنة التي وصل إليها إلا بعد شدة وخطب عظيمين لقي خلالها الكثير من صنوف المتاعب ، وبعد أن عمل في جو مصحوب بالضيق وضنك العيش وليس قريبا أنه عندما الحق نفسه بالعمل عند على أبي عمورى ، كان في ظروف معيشية سيئة أنت بهذا الرجل إلى أن يعامله بمظالمة ، ولم يكن ليعطيه من الكعك المصنوع من الدقيق الجيد ، ولا من اقتداح القهوة ، ولا حتى من شرائح اللحم شيئا يذكر ، يضاف إلى ذلك أنه لم يترك له الفرصة كي يقتات ما يقيم أوده ويحفظ عليه حياته وصلة الروح بالجسد (٢) .

هكذا كانت البداية سيئة ، بل ازدادت سوءا على ما كانت عليه ولم تكن لتشجع على الاستمرار لولا أن كان هناك هدف أسعى الزبير من أجله إلا وهو إخلاصه ووفائه لابن عمه وخوفه عليه من أن يتركه وحيدا عرضة للمخاطر ، ولذا فقد قبل عن طيب خاطر أن يتحمل كل هذا دون أدنى شكوى من المعاملة القاسية التي يتلقاها يوميا على يد على أبي عمورى (٣) .

ظل الحال على ما هو عليه وهم يجتازون قلب السودان حتى بدأت الغابات المحيطة بالذيل الأبيض تخدني رويدا لتتسح المكان لمستنقعات بحر الغزال الشاسعة المترامية الأطراف ، وهناك أخذ أبو عمورى يوزع السلاح والخيرة على أتباعه ، ولم يحرم منه أحد سوى الزبير ، وكان هذا أكبر من أن يمسكت عليه الزبير ،

وأحسن وقتها أن عزمه وكرامته لن تتحملا أكثر من هذا فمضى إليه ،
وفى أعماقه غضب مكبوت وطالبه سلاح يحمله فقبل على النهاية
أن يعطيه مسدسا صدينا عتيقا لا يكاد يصلح لشيء ، غير أن
الزبير رضى به ، وبذل جهدا كبيرا فى إصلاحه وتجهيزه للعمل
حتى استطاع فعلا بعد ذلك عندما جاء وقته أن يعمل وأن يقوم
بالمعجزات (٤) .

وقد حدث فى أحد الأيام أن تأمر عليهم سكان المناطق المحيطة
بهم وكان عليهم أن يلحوا للسلاح دفاعا عن أنفسهم فحسبوا
قواتهم الى معسكرين يضم كل واحد منهما هوالى مائة رجل ،
واخذ أبو عمورى ورجاله أهبتهم للقتال ، ولم يلبث الاعداء أن
احاطوا بهم فى عدد لا حصر له ، ولم يمض لحظات حتى كان
الزبير ومن معه مشتبكين فى قتال مرير مع الاعداء ، وأحدثت
المعركة ، وبدا موقف الزبير ومن معه يتخرج ويسوء لكثرة ما خسروه
من القتلى ، وفى هذا الوقت وقع بصر الزبير على واحد من
المهاجمين ضخم الجثة كالفيل ، وكان يبدو عليه من اندفاعه وطاعة
الرجال له أنه قائدهم ، فنهض أسرع الزبير فسدد إليه ضربة
قاتلة أصابته بين عيفيه فخر على الأرض صريعا يتخبط فى دمه .
والتقط الزبير مسدسه المحشو ، واستأنف القتال ، ولم يمض
غير ساعة واحدة حتى كان الزبير قد صرع أحد عشر رجلا من
الاعداء ، وأسرع لمساعدة بقية الرجال الذين كان موقفهم يتخرج
من لحظة لأخرى ، وقد أوشك الاعداء على التغلب عليهم ، ولم
يمر وقت طويل حتى كان قد أباد عددا آخر من المهاجمين ، وبهذا
بدا الموقف يتحسن الى أن بدأ الاعداء يحسون الهزيمة عندئذ ولوا
الأدبار وهم من خلفهم يطاردونهم ويقطون منهم حتى تم لهم النصر
عليهم وعندما اقتبل المسدس كانت المعركة قد انتهت تماما وكان

التجار قد فرغوا من بناء زريبة يقضون فيها ليلتهم ، وليلتها رأى الزبير أبو عمورى وهو يتقدم نحوه حاملا له من أطيب الطعام ما كانت تشتهي نفسه من زمن بعيد ، ثم مضى يعانقه ويقبل رأسه ويده وأمضى معه وقتا طويلا فى التودد اليه والثناء على شجاعته مشيدا بأنه كان السبب فى تخليصه من براثن موت محقق . ومن يومها تغيرت معاملته للزبير واتخذة صديقا له (٥) .

أظهرت هذه المعركة مدى قسوة الزبير وشجاعته فى مجابهة الشدائد . عندما أبلى فى قتاله مع رجال أبى عمورى بلاء حسنا فى قتاله ضد هؤلاء السكان . بل كان هو السبب الاول فى الانتصار عليهم ، مع أن هذه المعركة كانت تعتبر الأولى بالنسبة له . وقد كان لها أهميتها من حيث التغيير الذى أحدثته فى مجرى حياته مع أبى عمورى .

وفى صباح اليوم التالى استأنفوا الرحلة فى النيل الأبيض الى أن وصلوا الى مشرع الرق . فنزلوا ببضائعهم وأمتعهم وكان فى ذىس العام سنة ١٢٧٣ هـ الموافق ١٨٥٦ م أخرجوا بلاد الجانقية (٦) الى أن وصلوا بعد مسيرة خمسة أيام الى أرض الجور (٧) Jur — حيث كان لأبى عمورى محطة هناك تسمى عاشور على اسم شيخ البلد هناك . وفى منطقة بحر الغزال كان هناك الكثير من التجار غير أبى عمورى متفرقين فى أنحاء الاقليم ولكل تاجر منهم زريبة (٨) وكانت أهم البضائع المتداولة فى تلك البلاد هى الخرز على اختلاف أنواعه وألوانه وأحجامه ثم الودع والقصدير وكله مما يترين به النساء والرجال . وكان الأهالى يفضلون هذه الأشياء على الذهب والفضة ، لكانوا يأخذونها من التجار ويقايضون عليها بسن الغيل (٩) وريش النعام (١٠) والمطاط والحديد والنحاس وغيرها من موارد البلاد (١١) .

ظل الزبير بعد ذلك مساعداً لأبي عمورى فى تجارته غير أنه لم تمض الا بضعة شهور حتى تار اهل البلاد مرة اخرى على التجار طبعاً فى أموالهم ويضربونهم وما جاءت سنة ١٢٧٤ هـ الموافق سنة ١٨٥٧ م حتى كانت قواتهم قد تجمعت من جميع أنحاء البلاد واستعدت للمعركة الفاصلة ، عندئذ بدأوا فى الهجوم على الزرائب وقتلوا بعض التجار وهم نائمون ، وسلبوا أموالهم كما هاجموا زريبة ابي عمورى ، فتصدى لهم الزبير على رأس الرجال واحاط بهم وقاتلهم حتى أنزل بهم هزيمة ساحقة ، وسمع التجار بخبر انتصاره عليهم ، فجمعوا اليه من جميع أنحاء البلاد ودانوا له بالطاعة ، واصبح اهل البلاد لا يجرؤون على مهاجمة زريبة ابي عمورى او زرائب التجار الآخرين ، وعندما وجد أبو عمورى نجاة فى المرتين السابقتين بفضل شجاعة الزبير زادت ثقته فيه وجعل له قسماً من ارباحه يبلغ عشر العاج . وعندما هدأت الاحوال بالبلاد ترك أبو عمورى الزبير وكيلا عنه وسافر الى الخرطوم مغاب فيها مدة ستة اشهر وعاد بالبضائع فوجده قد جمع عنده من موارد البلاد ما لم يكن ليجمعه هو فى سنين ، فزاد هذا من احترامه للزبير وعرض أبو عمورى على الزبير مشاركته له فى تجارته على أن يكون الربح مناصفة بينهما ، الا أن الزبير رفض ذلك وعزم على أن يستقل بنفسه فى أعماله وأن يبدأ فى الاتجار لحسابه (١٢) .

ترتب على المعركة السابقة مدة نتائج اولها فتح ابواب كثيرة أمام الزبير منها أن أبا عمورى قد عرض عليه مشاركته فى تجارته ومناصفته ارباحه فرفض ، ولانها أن تجار هذه المنطقة قد احسوا بقيمته وقدرته واخلاصه فقدموا اليه فروض الولاء والطاعة ، كما انها اعطته الثقة الكاملة فى أن يقوم هو بنفسه بالاتجار لحسابه الخاص .

الانطباعات التي تركتها هذه الرحلة في حياة الزبير :

أولاً : استطاع الزبير أن يكتشف نفسه الخليفة بالصمود أمام المعبات والتحديات ويمثل ذلك في المعركتين اللتين خاضهما مع رجال أبي عموري ضد سكان البلاد وظهوره بمظهر المدافع عن حقوق صاحبه أبي عموري وبقية التجار .

ثانياً : كان لهذه الرحلة الأثر الكبير في تزويد الزبير بخبرات واسعة في مجال الاتجار والمتايضة مع سكان الأقاليم الجنوبية ، وتنوع المواد التي يجب أن يتاجر فيها ويقايس عليها ، والتي كانت محل رغبة من الأهالي .

ثالثاً : تعرف الزبير على مصادر حاصلات الجنوب ، وقد استطاع أن يجمع من هذه الحاصلات مثل العاج وسنن الفين وغيرها كميات كبيرة .

رابعاً : كان من نتيجة تحسن مركز الزبير لدى أبي عموري وبنية التجار الأثر الناجح في أنه وجد أحسن الطرق وأيسرها لتحقيق أماله وبلوغ طموحه لا يمكن في مشاركته لأبي عموري أو تنافسه أرباحه بل في استقلاله بالأعمال التجارية التي أصبح له فيها شأن كبير .

الزبير يستقل بنفسه :

قرر الزبير الاستقلال عن أبي عموري وممارسة التجارة بحسابه الخاص ، لذلك سافر إلى الخرطوم لشراء ما يلزمه من البضائع التي تروج في البلاد التي سوف يتاجر فيها ، واستلجار الأمراد اللازمين للعمل معه ، وليبدأ جولة جديدة في حياته ، بدأ الزبير رحلته إلى الخرطوم بالابحار من بحر العرب حتى وصل

الى مكان التقاء بحر العرب ببحر العزال ، وفي اثناء اجتيازه لهذه المنطقة وقع بصره على قطيع كبير من الفيلة ذات الانياب الخليطة التي تعتبر من اهم مصادر العاج ، محاول الزبير ومن معه اصطيد هذا القطيع يشتى الطرق للحصول على العاج ولكنهم اخفقوا في ذلك لوجود مستنقع عميق يتسع حال بينهم وبين الوصول اليه .

وعندما اتى عليهم الليل صنعوا لانفسهم مأوى من الاغصان يبيتون فيه ليلتهم . وفي اثناء الليل خرج الزبير ومعه أحد ابناءه للمغامرة بينما ترك بقية الرفاق ، واثناء سيرهم خلال المنطق الموحشة والاحراش الكثيفة لفت نظرهم وجود تمساح ضخم يرقد قرب النهر محاول الزبير اصطاده برصاص بنديته ، ولكنه قبل ان يفعل ذلك توجه باسد يتقدم في خفة صوب التمساح ، بعدها بدأت معركة وحشية بين الاسد والتمساح انتهت بصرع التمساح - وفي صباح اليوم التالي عاد الزبير وصحبه الى حيث كان ينتظرهم باقي الرفاق واستأنفوا رحلتهم الى الخرطوم التي بلغوها في السابع من ربيع الاول سنة ١٢٧٠ هـ الموافق الخامس عشر من اكتوبر سنة ١٨٥٨ م وكان الزبير قد جمع من تجارتها مع ابي عموري نحو الف جنيه ، لها وصل الخرطوم حتى اشترى بهذا المبلغ قاريا حمل فيه من مختلف البضائع التي تروج في بلاد الجنوب ، كما انه استأجر لنفسه بعض الرجال وسلحهم بالبنادق كما كانت عادة التجار آنذاك (١٣) .

وقد كانت هذه الرحلة التي قام الزبير بها لونا من لوان المغامرة ، التي عبرت من شكل من اشكال الحياة في السودان لذلك فهي تعتبر صورة من الصور التي سوف تتكرر رؤيتها في جميع رحلاته التي قام بها الى الجنوب .

الزبير في بلاد قولو (١٤) (١٢٧٥ هـ — ١٨٥٨ م)

حمل الزبير أثناء عودته من الخرطوم من البضائع التي تروج ببلاد الجنوب الشيء الكثير مثل الخرز بكافة أنواعه وأشكاله وأحجامه واللوانه ، والودع ، والقصدير ، والقماش المصنوع من القطن وغير ذلك من البضائع للتعاضد عليها. بريس للنعام ، وسن القيل ، والخرتيت ، والمطاط ، والحديد ، والذهب ، وغير ذلك من موارد البلاد كما أنه اصسطحبت معه رجالا للقيام بأعمال الحماية وآخرين لحمل البضائع ، وغيرهم ليكونوا أدلاء ومرشدين عبر الطرق والمناطق التي يتجهون إليها .

وبدا الزبير رحلة العودة متجها نحو الجنوب في اتجاه مشرع الرق هو ومن معه ، ولكن لم يلبث أن اعترض طريقهم أثناء أبحارهم عبر مجارى أحد الأنهار سد كبير من أم الصوف (٢٠) وكان عليهم لكي يواصلوا الرحلة أن يزيلوا هذا السد من النهر ، وظلوا أياما يحاولون إزالته ، ولكن دون جدوى ، وكاد اليأس يتسرب اليه لولا أن جاءهم في النهاية رجل من قبيلة النوير - Nuer من العارفين بأسرار هذه البلاد فإزاله لهم بالتعاون مع بقية الرجال في سهولة ويسر ، وقد أخبرهم بأن من عادة القبائل هناك أن تعتمد إلى ربط الأعشاب الطاغية - Weeds بعضها إلى بعض حتى يتكون منها جسر واحد تمر عليه الأغنام ، هذا إلى أنه في موسم الأمطار تملأ الأنهار بالمياه ، فإذا أتى فصل الصيف جفت هذه الأنهار ، فيترك الأهالي أغنامهم لرعى العشب على الشاطئ ، مكان التجار في ذهابهم وإيابهم في النهر يعمدون إلى صيد الأغنام والانتفاع بها ، لذا كان الأهالي يعملون على تقوية هذه السدود وتكثيفها حتى تقف حجر عثرة في طريق التجارة فيأمنوا بذلك على أغنامهم من الهلاك .

استأنف الزبير الرحلة الى مشرع الرق ، وهناك استأجر بعضا من الرجال لحمل بضائعه برا في منطقة بحر الفزان وسار الزبير ومن معه ، فأجتمعا في بلاد الجانكاه — Jauket او الجاشية والجور — Jur والبنقو — Bongo (١٥) حتى وصلوا بلاد قولو — Golo فرحب بهم ملكها كواكي — Kuwaki وأكرم لقيامهم وتاجر الزبير في هذه البلاد بما حمله معه من البضائع حتى اجتمع عنده من سن الفيل وريش النعام وغيرهما من موارد البلاد الثمن الكثير ، فأرسلها مع ابن عمه محمد بن عبد الرحمن الى الخرطوم حيث باعها وعاد بكثير من البضائع في السابع عشر من ربيع اول سنة ١٢٧٦ هـ الموافق الرابع والعشرين من أكتوبر سنة ١٨٥٩ م ، وقد طبقت للزبير الإقامة في هذه البلاد ، واخذت تجارته في الاتساع والنمو حتى غادرها الى بلاد النيام نيام (١٦) .

وهكذا أصبح الزبير تاجرا موهوبا أقام تجارته على أسس غير أسس التجار العاديين ، واتخذ أساليب غير أساليبهم ، فلم يهاجم القرى الآمنة ولم يهاجم القرى الضعيفة بل قصد بلاد النيام نياه حيث يوجد اكلة لحوم البشر وهي كما يصفها الزبير البلاد التي ليس فيها مقابل (١٧) .

الزبير في بلاد النيام نيام (١٢٧٦ هـ — ١٨٥٩ م)

بلغ الزبير أنه توجد الى الجنوب الغربي من بلاد قولو — Golo بلاد واسعة الأطراف كثيرة الخسيرات تتميز بكثرة إبقارها وبقطعان الفيلة التي لا حصر لها وأن الحاج لكثرة هناك يكاد الا تكون له قيمة تذكر . ومن ثم مرم على الرحيل الى هذه البلاد ، فما كاد يمضي على مودة ابن عمه من الخرطوم شهر حتى حزم بضائعه وحمل معه للسلطان هدية ماهرة ، وانطلق قاصدا

هذه البلاد . فبلغ عاصمتها دارتكمه بعد رحلة شاقة استغرقت خمسة وعشرين يوما . وكان يحكمها سلطان يسمى تكمة ويقوم في عشة كبيرة يحيط بها سياج من انياب الفيلة يبلغ مددها ما بين ثلاثة واربعة آلاف . في هذا المقر قبيل الزبير السلطان وقدم له الهدايا التي جلبها معه ، واستأذنه في الاتجار في بلاده ، فأذن له ، وبدأ مرحلة جديدة من مراحل حياته بالاتجار وسط هذه القبائل من اكلة لحوم البشر (١٨) .

وعلى هذه البلاد أطلق الجغرافيون العرب في العصور الوسطى اسم « نيام نيام » وبالتحديد شعوب هذه المناطق من سكان اواسط افريقية ، وكان أولئك الكتاب لا يميزون بهذا الاسم شعبا بذاته ، بل مجموعة سكان هذا الاقليم الاوسط الذي يشمل الكونغو واعلى النيل والذي اشتهر سكاته بهذا الاسم ، وهذه البلاد تشمل الجزء الجنوبي من حوض بحر الغزال المتاخم لاعلى روافد نهر الكونغو ، وهنا نجد مساحة واسعة جدا من السودان الجنوبي الغربي وفي الشمال الشرقي من الكونغو ، وهي بذلك تقع في مركز متوسط بالنسبة للقارة الافريقية في هضبة متوسطة الارتفاع ، وتحتلها مجموعة من الشعوب المختلفة من اشهرها قبائل هورو ، وماضي ، وبونجو ، وندو ، والمكاركة ، والازاندي ، والمجيبيتو وغيرهم . هذه المساحة العظيمة من جملة الجهات الافريقية افنشر فيها ذباب « تسي تسي » المسبب لمرض النوم . وعلى الرغم من ذلك فقد احتشدت فيها في القرون الثلاثة الاخيرة جماعات مختلفة من اقاليم الكونغو واواسط افريقية ، ودارت بينها اشتباكات ومنازعات وأخذت جماعات تتشكل في مختلف الجهات ثم تتحلل ، تظهر ثم تختفي ، تستقل ثم تندمج ولا تزال آثار هذا التفتت والتمزق واضحة ، بحيث يصعب معها رسم خريطة لتوزيع الشعوب في هذا الاقليم الكبير .

وعلى فرض أن هناك منطقة انتشرت فيها ظاهرة النامية ،
وانها تمتد من الكونغو الى امالي بحر الخزال ، فإن اكبر الظن
انها لم تكن يوما عادة شائعة في طول الاقليم وعرضه . وكثير
من السكان ينكرون أن أمرا كهذا يمارسه أحد ولا شك أن الاتصال
بين الشعوب ، لا بد أنه قضى على هذه الماديات في الجهات القليلة
التي كانت تمارس فيها (١٩) .

ويقال أن آكل لحوم البشر في بلاد النيام (النيام — نيام)
ليس غذاء عاديا لهم كما يدّعون البعض . بل هو طريقة اتخذوها
لبيان معزة أحدهم عند الموت ويرونها أسى شائنا من دفن الانسان
في القبر أو احرقه بالنار مثلا ، ويرون في ذلك راحة لهم من
عناء انشاء المقابر واحتياطاتها الصحية (٢٠) .

وكان من العسير على سلطان النيام نيام أن يفهم لماذا اهتم
الزبير بالعاج وسمى الى جمعه ، فلما ابلغه أنه يجمعه ليسحقه .
لم يلبث عندها عادوا في العام التالي ، أن وجد الاهالي قد احرقوا
العاج كله . وكان من الواضح أن السلطان قد عهد الى هذا خوفا
من أن يكون الزبير ومن معه قد خدعوه عندها قالوا له اننا نجعله
لنسحقه .

وكان الزبير ومن معه يقيمون طول فترة اقامتهم بداركمة
في عشية بالقرب من مقر السلطان . وقد بنيت هشيش زوجات
السلطان بجواره في شبه نصف دائرة تحيط بأرض فضاء ممتدة .
وتسلل ذات مساء أحد الخمير التي مع الزبير من مربطه ، واخذ
طريقه الى مقر السلطان حيث افراء بذلك مشهد الأكرة التي كان
الاهالي قد تركوها هناك في الليلة الماضية ، ولما كانت أنظار أهل
بلاد النيام نيام لم تقع قط على صور مثل هذه الحواب كالجمال
والخيل . فلقد ذعرت زوجات السلطان لرأى هذا الحمار وولين

من إليه الأتباع في دعر وهياج ، وقد ظنوه رجلاً مسحوراً على صورة أخرى ولم يلبث السلطان أن شاركهم هو الآخر في هذا الظن ، فأمر وقد أخذ منه الغضب كل مأخذ بقتل الحيوان وبدق طبول الحرب لدعوة المحاربين من كل مكان لقتال الزبير ، وتخرج موقف الزبير ومن معه حتى بات يهددهم خطر عظيم . ولكن الزبير ، بما عرف عنه ، لم يتوان لحظة واحدة في إصلاح الأمور فأرسل إلى السلطان أحد المقربين إليه من أتباعه ومعه بندقيتان وأرسمون طلقة هدية من الزبير إلى السلطان لكي يسترضيه ويتقي غضبه . غير أنه أدار لرسول الزبير ظهره وأبى أن يتقبل الهدية فلما سمى الزبير بنفسه وتقدم منه محيياً أدار له ظهره مرة أخرى . وكانت هذه الحركة من عاداتهم في اظهار الغضب والاستياء عندئذ خباطه نورأنجره (٢١) Nur Angra قائلاً : أيها الملك العظيم ما الذي يفضبك مني وأنا الذي طالما أصطدتك لك القروء المكتنزة لتكون طعاماً لك في ولائتك العامرة اللذيذة ؟ منعذ أجاب السلطان في حدة قائلاً : « وما الذي تنتظره مني غير الغضب وقد أرسلتم أحسد رجالكم بالليل إلى حي زوجاتي ينتهك حرمتهم . فقال نورأنجره Nur Angra بأن الحمار لا يعدو أن يكون حيواناً كالبقرة والغزال حتى هذا أخيراً وخف غضبه ، عندما زادوا له الهدية إلى ست بنادق تنازل له الزبير منها مكرها .

وكان لسلطان تكه مايقرب من الأربعمئة امرأة والأربعمئة من الإبناء والبسات . فقام بزواج راتبوه كبرى بناته للزبير ، وكانت على قدر كبير من الجمال . سسساعد هذا الزواج الزبير على توطيد مركزه بين أهالي البلاد ، ورفعته هذه المصاهرة الملكية في انظار الأهالي ، وزادت تجارته رواجاً واتساعاً واستطاع في وقت قصير أن يجمع الشيء الكبير من العاج وغيره من موارد الجنوب (٢٢) .

وإذ كانت رحلة الزبير إلى هذه البلاد ذات أهمية من حيث
أثره :

أولاً : استطاع أن يكتشف لنفسه أماكن جديدة للتجارة لم
يطرقها أحد من قبل .

ثانياً : كانت هذه البلاد تبثل مستودعها طبيعياً بكرة لحاصلات
الجنوب من العاج وفيره ، التي لم تقلها أيدي التجار بسوء فكان
هذا فتحاً عظيماً لزيادة حجم تجارته من هذه الموارد الطبيعية .

ثالثاً : كان تقربه للسلطان وحبه له ثم تزوجه من ابنته عاملاً
مساعداً على تقوية مركزه وسط شعوب هذه البلاد واتساع مجال
تجارته فيها .

الزبير والملك كويم (١٢٧٨ هـ - ١٨٦٢ م) :

بعد أن جمع الزبير الشيء الكثير من حاصلات بلاد النيام
نيام استأذن السلطان تكة في الرحيل عن البلاد فرحل عنها في
السابع عشر من رمضان سنة ١٢٧٨ هـ الموافق الثامن عشر من
سارس سنة ١٨٦٢ م قاصداً الخرطوم ومعه ما حمله من سلع البلاد
وعلى أثناء سيره مر بصاحبه على أبي عموري فوجده متأهباً للسفر
بتجارته إلى الخرطوم فاتفق على الذهاب معه . وكان لأبي عموري
زريبة قرب نهر البنتو (٢٣) الذي لم يسلكه أحد قبلهم على حد
قوله ، فقاموا باجتيازه رغبة في التخلص من مشقة نقل البضائع
بالبر ، ولهذا الغرض أتموا بناء مركبين ووضعوا فيهما بضائعهما
ورجالهما البالغ عددهم مائتين وأربعة عشر رجلاً ، ثم ساروا
قاصدين مشرع الرق ومعهم من الزاد ما يكفيهم لمدة شهرين .

وبعد أن ساروا ثلاثة عشر يوماً بلياليها اتسع مجرى النهر
حتى صار أشبه ببحيرة واسعة منه بالنهر ، واختفى عن أعينهم

المجرى الأصلي للنهر ، فتأهوا في هذه البحيرة الواسعة مدة خمسة وسبعين يوما تاسوا خلالها الأهوال وهم تحت رحمة السماء ، وفي تلك الفترة نفذ زادهم جميعه ، ولم يصبح لديهم ما يأكلون من الطعام ، وفقدوا كل أمل في النجاة من الموت . الا ان الله اراد لهم النجاة ، فقد لاح لهم من بعيد دخان ، فأسرع الزبير ومعه على ابي مهورى ومعهما تسعة من الرجال في قارب صغير . كانوا قد آتوا به معهم في المركبين الكبيرين . قاصدين جهة الدخان ، وما كانوا يبتعدون عن المركبين حتى اختفى الدخان تماما ثم غاب من انظارهم أيضا المركبان ، فأصبحوا يسرون على غير هدى وظال بهم الحال حتى اشرعوا على الهلاك .

ولم ينتقذهم من ذلك غير رؤية تساح كبير ، كان برقد تحت شجرة على تل في وسط الماء فاصطادوه برصاص بنادقهم ، ومن هناك انطلقوا بعد ذلك يبحثون عن المركبين وسط هذه البحيرة ، وظلوا على ذلك الحال لمدة اربعة ايام ، حتى عثروا عليهما اخيرا ، وهناك شاهدوا المأساة التي حدثت ، فقد وجدوا ثمانية عشر رجلا من رجالهم قد ماتوا جوعا ، وعندما علم واحد من رجالهم بنجاتهم تولى على النور . وقد اخبرهم الرجال انهم كانوا يرون الدخان كل يوم في آخر النهار ، فأيقن الزبير ومن معه بوجود بر قريب فانتقل اثنى عشر رجلا من اقوى الرجال وانزلهم في القارب وتوجهوا معا الى جهة الدخان ، ولم تبض بضع ساعات على ابحارهم حتى اشرعوا على جزيرة واسعة هائلة . مأهولة بالناس وبها من الأبقار مالا يحصى عدده ، فنزلوا الى البر . فوجدوا ان الدخان الذي كانوا يرونه هو دخان ارواث الأبقار التي كان يحرقها الاهلون في عصر كل يوم ليتخذوا رمادها فرائشا لهم كمداداتهم (٢٤) .

وكان يسكن تلك القرية قوم من النوير (٢٥) فلما دخلوا الجزيرة اجتمع عليهم السكان ، فآخذوا يسألونهم عن هذه الملابس ، ومن أين أتوا الى هذه الجزيرة ، وهم في كل هذا ينوون الغدر بهم . ولحسن حظ الزبير كان معه شخص مترجم على علم بلغة القوم ويعرف ملكهم وأخبرهم الزبير على لسان مترجمه بأنه يعرف ملكهم « كريم » وأنه يريد مقابلته ، فلما رأوا أنه يعترف بملكهم ولفتهم رغبوا به هو وصاحبه وأمنوهم على حمايتهم ، وأكروا ضيافتهم واشتروا الزبير ثمانى أنقار ذهبها وأرسلها قطعا في القارب الى بقية الرماق في المركب وبعد أن أكلوا منها واستعادوا نشاطهم لحقوا بزملائهم في الجزيرة (٢٦) .

ذهب الزبير بعد ذلك لمقابلته الملك كريم ، ولما أمثل بين يديه حياه لرد عليه التحية ثم أخذ يسأله عن أمره والسبب الذي أتى به الى هذه الجزيرة ، فأجابه على جميع أسئلته . وسرعان ما انتشر خبر تواجدهم في الجزيرة الى جميع الأهلين ، وأخذ كبار القوم وزعمائهم ينفذون الى الملك أفواجا مطالبين بقتل الزبير والاستيلاء على أمواله ، فأذن لهم الملك في ذلك بعد تردد طويل . على أن يتم ذلك بعد خروجهم من داره ، وكان قد أفت نظيرهم البضائع والأموال الكثيرة التي كانت تقص بها مراكبهم . فغير أن الزبير وصاحبه علموا بها كانوا يدبرون . ومن ثم أخذوا حفرهم من ذلك وباتوا يحرسون أنفسهم بالتناوب . وحين جاءت نوبة الزبير في الصباح الأول من الليل . شاهدوا أسدا مقبلا من بعيد مرماه برصاص بندقيته ، فأراداه قتيلا ، ولما رأى الملك والسكان الأسد مقتولا فرحوا بذلك فرحا شديدا لأن ذلك الأسد كان مسلطا عليهم يفترس كل من يصادفه منهم حتى لم يعد يجسر أحد على الخروج من بيته ليلا ، أما الملك كريم فقد عظم سروره من قتل الزبير للأسد ، حتى أنه عقد له على أحسدى ثنائه ورغبه في الإقسامه معه في

جزيرته . فاقام عنده شهرا كاملا حتى استنرى جميع ما يلزمه من
المؤن ثم احتال على الملك وخرج من جزيرته بالمركبين ميمما شطر
الخرطوم من جديد .

ولم تلبث الاقدار ان بدأت تلعب بحياة الزبير ومن معه مرة
أخرى ، فما كادوا يغيبون عن الجزيرة حتى ضلوا الطريق مرة
أخرى الى نفس البحيرة المسممة وتوالت الكوارث على الزبير ومن
معه ، وقد ظلوا تائهين حتى نفذ زادهم وطعامهم ، وتوالى بعد
ذلك سقوط رجالهم سرعى الواحد تلو الآخر بسبب الجوع والانهك
والضعف الشديد الذى اتضح على وجوه الجميع عدا ستة من
الرجال الذين اراد الله لهم النجاة مع الزبير وأبو عمورى . فقد
شاهدوا مركبا على بعد فاطلقوا عليها عيارا ناريا تصد الاشارة
الى مكانهم لانقاذهم ، ولم يمض الا القليل من الوقت حتى اقتربت
منهم تلك المركبة وبها عبد الرحمن أبو قرون من تجار بحر الغزال .
الذى قدم لهم ما يلزمهم من الزاد والكسوة وقد كانوا على بعد
خمسة أيام من مخرج الرق ، فساروا مبحرين اليه حتى وصلوه
فى الثانى من صفر سنة ١٢٨٠ هـ الموافق التاسع عشر من يوليو
سنة ١٨٦٣ م فاجتمع الناس حولهم يهللونهم بسلامة العودة ويعزونهم
فيمما فقدوه من رجال ومناخ . ومن مخرج الرق أقطعت المراكب
المقلة لهم الى الخرطوم مرة ثانية . فوصلوها فى السابع والعشرين
من ربيع الأول من نفس السنة الموافق الحادى عشر من سبتمبر
سنة ١٨٦٣ م وهناك مكثوا فى الخرطوم بضعة اشهر فباعوا فى
خلالها تجارنتهم ، واشتروا بثمنها تجارة أخرى مما يروج فى تلك
البلاد وما يلزمهم من اسلحة وذخائر ورجال (٢٧) .

الزبير في بلاد النيام نيام ثانية (١٢٨٠ هـ - ١٨٦٣ م) :

وفي ٢٢ ذى القعدة سنة ١٢٨٠ هـ الموافق التاسع والعشرين من أبريل سنة ١٨٦٤ م غادر الزبير الخرطوم في طريقه الى بلاد النيام نيام ، فوصل بعد بحيرة ستة عشر يوما في ٢٠ صفر سنة ١٢٨٠ هـ الموافق ٢٥ يولية ١٨٦٤ م الى قرية تقع على الطريق تسمى قرية شول (٢٨) ، وفي هذه القرية التقى الزبير بسيدة اوروبية نمساوية او فرنسية ، لا تعرف على وجه التحديد جنسيتها ، وقد كانت فاتنة ، عذبة الحديث ، فائقة الثراء وتدعى بين الاهالي هناك باسم السنيورة (٢٩) .

وقد وقع الزبير عليها في هذه القرية وهي قائمة امام بيتها الكبير تبيع بعض الطيور لتتزع ريشها الامر الذي تعجب له الزبير كثيرا ، وكان يقيم في هذه القرية وتحت امرتها مائة وخمسون من الجنود المسلحين بالبنادق . فلم يلبث الزبير ومن معه من اصحابه ان انفقوا على صيد اثني عشر ليلا . اقمعوا هذه السيدة ببساطة هذا الحاج كله بأسلحة رجالها .

اقام الزبير ومن معه في هذه القرية اياما اخرى وقصصت السيدة الزبير في ان يصطاد لها خريتا ، فلم يفرده نورانجره مرافق الزبير في هذا الطلب واصطاد لها واحدا بالفعل ، فقد كان رجالها لا يجيدون الرماية واقل مهارة في التصويب نحو الهدف ، وحدث اثناء اقامتهم هناك ان توفيت واحدة من خدمها وكلب لها فأمرت ان يحملها في تابوتين الى الخرطوم ، ثم لم تلبث هي بعد ذلك ان شحت رجالها عائدة بدورها الى الخرطوم (٣٠) .

وفي ٢٠ صفر سنة ١٢٨١ هـ الموافق ٢٥ يوليو سنة ١٨٦٤ م وصل الزبير الى بلاد النيام نيام وقدم للسلاطان تكملة الذي

رحب كثيرا بعودته هو وزوجته الى بلاده ، مجموعة من الهدايا الفاخرة كان من بينها سلطانية شربة موشاة بالذهب سر بها مسرورا بالفا ، حرص بعد ذلك أن يضعها فوق رأسه في المناسبات الهامة كأنها تاج ثمين واحتفالا بعودة الزبير أولم السلطان له وليمة فاخرة لم يكن طوال الولاية عن الترحيب به ومن معه وعن ابداء اعجابه وزهوه بالتاج الجديد .

عاد الزبير بعد ذلك الى دار زوجته رانبوه وبدأ في الاتجار ، وكانت العادة قد جرت في تلك البلاد في أن يعرضوا للبيع في الأسواق أصحاب الجنائيات كالثلثوس والزناة حيث يذهبون كالنجاج ، وتباع لحومهم طعاما لمن يشترى . ولما بدأ الزبير يحس بحاجته لتجمع عدد من الرجال حوله لتحقيق ما يجيش بصدرة من آمال . رأى أن ينتهز هذه الفرصة وينتدي من الذبح من يراه أهلا لحمل السلاح من بين هؤلاء المذنبين ، ففعل حتى اجتمع عنده خمسمائة رجل أنقذهم من المصير الرهيب الذي كان يتقنظرون ثم سلحهم بالأسلحة . بعد أن دريهم على استعمالها ، فكان هذا بداية لعهد من الغلاقل والصعاب التي اكتوى بها الزبير في بلاد النيام .

ساء الملك تكمة ان تنمو قوة الزبير الى هذا الحد وأوجس شرا من نواياه ، وهو يراه يصنع جيشا مسلحا لمسابه قد يكون خطرا على مملكته ، فاستشار كهنته الذين استشاروا عليه بقتل الزبير . غير أن ابنته رانبوه اخبرت بذلك زوجها سرا ونصحته بالرحيل من بلاد أبيها ، ولكن الزبير لم يكن ليميل الى الرحيل ، ومن ثم نشط لعلاج الموقف بطريقة أخرى ، وهي التزلف الى الملك تكمة بالهدايا الثمينة ، ولكن الموقف بعد ذلك لم يتغير . بالرغم من كل ما فعله الزبير من هدايا . ولم يلبث أن وجد نفسه فعلا مضطرا الى الرحيل عن هذه البلاد التي لم يعد له فيها اقامة أو تجارة .

وقرر الزبير الرحيل بطلب من الملك ان يأذن له بالرحيل الى بلاد الملك دوية زاعما له انه قد بلغه كثرة العاج في هذه البلاد ، ورغبته في ان يذهب اليها برجاله لجمع ما يمكن جمعه منه . لكن تكلم لم يكن سائجا الى الحد الذي يسمح للزبير فيه بالخروج من بلاده ، مصطحبا معه هذا الجيش الجديد . فقد كان همه ان يجرده من هذا الجيش فسمح له فقط ان يذهب وحده وان يترك الرجال من ورائه حتى يعود ، ولكن على الرغم من ذلك لم يعبس الزبير وقرر التحايل عليه ، فزعم له ان بلاد الملك دوية غير مأمونة الجانب ويسببها الظلم والفوضى وأنه يخاف من ان يراه اعداؤها ضعيفا فيقتلوه .

ونظرا لاصرار الزبير على السفر هو ورجاله تظاهر الملك بالموافقة ، واوعز الى جيشه ان يكمن سرا في الطريق ويقتلوه هو ورجاله ، وما كاد الزبير يغادر البلاد حتى وجد كميناً من رجال تكلم يقربصون به في الطريق ، ولكنه كان مستعداً لهذه المعركة المفاجئة ، فاطلق على رجال الملك تكمة نيراناً حامية لم يطيقوها ، فانهزموا امامه سريعا وهكذا فتح الطريق امام الزبير الى بلاد الملك دوية فمضى اليها هو ورجاله (٣١) .

الزبير في بلاد الملك دوية (١٢٨١ هـ - ١٨٦٢ م) :

بعد ان انتهى الزبير من معركته مع جيش السلطان تكمة سار ومن معه الى بلاد الملك دوية . وكان هذا الاخير عدواً للملك تكمة ، فلما علم بما حدث بينه وبين الزبير خرج للاقائه وتحميته على مسيرة اربع ساعات من عاصمته ، وانزله الى جواره ، وبقي له حصناً منيعاً من الخشب ، وامده بالحبوب والمؤن ما يكفي رجاله لمدة طويلة .

أما الملك تكة فلم يلبث أن أرسل جيشاً جراراً بقيادة عمه مريوه (٢٢) اتساع الرعب والذعر في بلاد دوية ، فذهب الأخير للالتقاء والاستعداد للمعركة الفاصلة غير أن الخوف والقلق لم يلبثا أن استوليا عليه فقبل أن يبدأ المعركة مر هو ورجاله خلسة مقسترين تحت جناح الظلام ، وترك الزبير وحيداً ، فلم أصبح الصباح تكشف له حرج موقفه الذي نجم عن هذا المأزق . غير أن العذر شاء إلا يتخلى عنه في تلك اللحظة ، قد ساقى له النجاة في المساعات الأخيرة ، على صورة لم يتوقعها أبداً إذ وفد عليه من الملك تكة وفد نقل له رسالة يبلغه فيها : « أن حرمة المصاهرة وسابق المودة تمنعان الملك من محاربتك ولكنه يرغب اليك أن تخرج من جميع بلاد الملك دوية التي أصبحت تحت سسلطانه ، وتذهب إلى حيث تشاء ولك الأمان » فأجابهم الزبير إلى ذلك ولم يتردد الزبير في قبول هذا العرض وفعلًا جمع رجاله وخرج من بلاد الملك دوية تاصداً بلاداً جديدة هي بلاد قولو — Golo حيث يقم الملك عدوه شكو تدخلها في أول محرم سنة ١٢٨٢ هـ الموافق السابع والعشرين من مايو سنة ١٨٦٥ م (٣٣) .

وهكذا لعت حرمة المصاهرة دوراً مهماً في منع السلطان تكة من قتال الزبير كما أن الجبن والخوف منعاً الملك دوية من قتال الملك تكة .

« الزبير وعدوه شكو وابنه شيجا » (١٢٨٢ هـ — ١٨٦٥ م) :

ومرة أخرى نجد الزبير في بلاد قولو — Golo في المرة الأولى كان قد مر بها وهو في طريقه إلى بلاد النيام فيام يتصد التجارة ، أما هذه المرة فقد دخلها هرباً من أن يبطش به السلطان تكة .

على أول محرم سنة ١٢٨٢ هـ الموافق السابع والعشرين من مايو سنة ١٨٦٥ م دخل الزبير بلاد تولو وكان ملكها عدوه فسكو قد سبق أن غدر بمنصور أحد أخوة الزبير وقتله هو ورفاقه الذي كان الزبير قد أرسلهم معه للتجارة في بلاده كما أنه استولى على جميع أموالهم ، فكان طبيعيا أن يظن أن الزبير قد جاء للأخذ بشار أخيه ، والا يسمح له بدخول بلاده ، وعبثا حاول الزبير أن يتوود إليه بالهدايا مؤكدا له أن لا قصد له من اللجوء إلى بلاده سوى التجارة ، إلا أنه أصر على أن يغادرها ، وهدده بالحرب إن لم يفعل .

كان المصسل عندئذ شتاء ، والمياه تغمر البلاد وهناك استحالة في الرحيل من بلد لآخر . فسأله الزبير أن يمهله إلى أن ينقطع المطر وتفتح الطرق ليرفض ، ومن ثم أخذ الزبير في الاستعداد لحربه ، فقام ببناء قلعة حصينة على مساحة واسعة تقترب من ثلاثة أمدة ، وأحاطها بسياج من الأشجار المتشابكة التي قصد أن تكون من الضخامة والقوة بحيث لا يؤثر فيها إطلاق الرصاص ، واستغرق ذلك ثلاثة أيام ولم يلبث عدوه فسكو أن أرسل من يستنصر عن سبب انشاء الزبير لهذه التحصينات وهل هي موجهة ضده أم لا ؟ فأجابه الزبير بأن هذه القلعة قد بناها بقصد الحماية من الحيوانات الضارية التي تحوم حولهم ، غير أن هذا الرد لم يقنع به عدوه فسكو ، فأرسل مرة أخرى إلى الزبير يأمره بالرحيل عن بلاده ، ليرفض الزبير ذلك في حزم .

وبدا الملك في جمع رجاله استعدادا للحرب . وقد رأى قبل أن يبدأ الهجوم أن يستعمل معهم طريق الحيلة والخديعة ، فأرسل إلى الزبير وصاحبه ذات صباح خمسمائة من خدمه يحملون له زقانا مليئة بالخمر علامة على الاحتفاء بهم راجيا أن يقبلهم

عملا بأصول الضيافة العربية . غير أن الزبير رفض كل هذا وأدرك ما يريد هذا الملك من وراء هذه الهدية (٣٤) .

وعلى الفور أرسل الزبير إلى يونس سفيره لدى الملك عدوه شكو يستعجله في الرجوع إليه ، وعملا عاد يونس عدا الرجال الأربعة الذين كانوا معه ، فقد قتلوا بيد رجال عدوه شكو . وبدأ الزبير في الهجوم على قوات عدوه شكو واستمر القتال لبضعة أيام انتهت بانتصار الزبير ومصرع عدوه شكو نفسه .

غير أن ابنه شيجا أخذ مكانه وواصل القتال فلم يلبث بعد معارك قصيرة متتالية أن أثر الفرار والتجأ إلى جبل «سيراجو» (٣٥) على مدى تسعة أيام متتالية قام الزبير فيها بمهاجمة مواقع شيجا في هذا القل الحصين هجوما شديدا واستمر القتال بين الجانبين إلى أن جرح ساق الزبير جرحا بليغا في المرة الثالثة ، فاضطر إلى تأجيل الهجوم حتى يشفى من أصابته . وفي تلك الفترة هب أحد رؤساء القبائل المجاورة إلى معاونة الزبير وأرشده إلى المسالك الخفية في الجبل التي يستطيع عن طريقها تطويق قوات شيجا والانتصار عليه فقتلته هو ورفاقه مدة ساعة ونصف في مسالك الجبل إلى أن وصلوا منطقة تكثر فيها الصخور الضخمة النائية التي حاولوا أن يتسلقوها ففشلوا في ذلك مرتين وكالت هناك صخرة ضخمة عالية توجه إليها الزبير ومعه خمسة عشر رجلا وبدأوا في الصعود مع خمسة من الرجال بينما ترك الباقين أسفل القل . وبعد أن أوصاهم أن يبدأوا هجومهم في الصباح بمجرد أن يطلق النار ، وصل الزبير ومن معه إلى قمة الصخرة مع أول خيوط الصباح ، وسرعان ما بدأت المعركة وهاجم رجال الزبير قوات شيجا من كل مكان ، وأخذت النيران تنصب عليهم من كل صوب فتولاهم القمع والاضطراب ، فلولوا الأدبار ، وتم للزبير النصر عليهم في هذه المعركة (٣٦) .

وبهذا الانتصار دان له حكم هذه البلاد وجميع البلاد المجاورة حتى بحر العرب ، واتخذ بابه التي عرفت بعد ذلك باسم « ديم الزبير » (٣٧) عاصمة له وبهذا أصبح ملكا ، وبدأ الناس يجتمعون حوله ويغدون عليه من جميع الجهات للانتظام في خدمته . فاجلب الاسلحة وجمع جيشا قويا ومضى يحكم البلاد طبقا لاحكام الدين الاسلامي . وبذلك بدأ العبران يفتزرو هذه المناطق حاملا معه للأهل والأمن والرفاهية والسلام (٣٨) .

تجدد النزاع بين الزبير والسلطان تكمة :

بعد ان تم النصر للزبير رحمة على محمد البلالى (٣٩) في ربيع اول سنة ١٢٨٨ هـ الموافق ابريل سنة ١٨٧١ م وتمكن من يسط نفوذه على بحر الغزال وما جاورها ، وتكوينه مملكة عظيمة وجيشا قويا ، لم يرق هذا الانتصار وهذا الملك للسلطان تكمة ، وفي ذلك الوقت كانت شهرة الزبير كهاجر تفوق شهرة الدجار الآخرين ، وقد اكتسبهم صداقة الزعماء وأهالي البلاد وكانت مصاهرته لهذا السلطان سببا في علو نجمه وسمو مقامه (٤٠) ولذلك أعلن السلطان تكمة الحرب على الزبير . وكانت رابووه مازالت في عصمة الزبير يرسل لها والدها كل عام هدية من العاج تبلغ الخمسين قنطارا الى جوار مائتي رقب من العسل ومائة أردب من السمسم ، فلما اشتهر ملك الزبير الى جواره بدأ يمتنع عن ارسال الهدايا الى ابنه ، ومناسبة الزبير العداء .

ففي اوائل سنة ١٢٨٩ هـ الموافق سنة ١٨٧٢ م سير جيشا لحاربه بقيادة عمه ماربوه الذي قام بالاعمار على أطراف مملكة الزبير ، غير أن الزبير لم يثرك لقتاله الا بعد أن تأكد له أنه يريد الاستيلاء على مملكته ويجعله يعود تاجرا كما كان . كان هذا بعد

أن تبادل الاثنان الرسل الذين أخبرهم السلطان تكمة أن الزبير يذهب ومن معه من حيث اتوا خير أن الزبير قال لهم « اذهبوا الى ملككم هذا وبلغوه بأننى ما كنت لانتازل عن ملك أسسسته بسيفى لمجرد تهديد أو وعيد ، فان كان يستصغرنى الى هذا الحد فليجرب معي قوته التى ان كان قد استطاع ان ينتصر بها على حفنة من المتوحشين وأن يلقى فى قلوبهم الرعب فانه لن يستطيع ان يفعل بقوته شيئا امام اثنى عشر ألفا من جنود جيش المتشواتين للقتال » (٤١) .

وهكذا بدأت الحرب بينه وبين السلطان تكمة . ولم تنته سريعا كما قرر هو بل استغرقت ثلاثة عشر شهرا باكملها على الرغم من أن اسلحة رجال تكمة لم تعد السهام والسيوف . فانهم كانوا يتبعون فى نقل اخبارهم من قرية الى قرية طريقة الإشارة التى اُرهِقت قوات الزبير طويلا . وكانت طريقتهم فى هذا أن يلقب الرجال منهم فى محطات تبعد بعضها عن البعض مسيرة ساعة ونصف نادا ما رأى الرجل منهم فى واحدة من هذه المحطات قوات الزبير وهى تشرع فى الزحف يادر بقرع أداة خاصة تسمى الرونجا (٤٢) ، فتلقى المحطة التالية هذه الإشارة وتقوم بدورها بترحيلها الى المحطة التى تليها ، وهكذا حتى تصل الى القرية المتسودة بالهجوم ، فيتم بذلك انذارها قبل وصول القوات بوقت طويل .

واستطاع الزبير فى نهاية الامر ان يخوض مع العدو بالرغم من نظام الاشارات هذا مدة معارك حاسية انتهت بمقتل السلطان تكمة وعيه ماريوه ، ودان له ثمانية من كبار ملوك لنيام الذين كانوا فى حروب مستمرة بعضهم ضد البعض فلما تولى امرهم الزبير ألف بينهم ، وبسط الأمن بين ربوعهم ، نصاروا يتعاملون فيما بينهم بالبيع والشراء والمصاهرة وسمع من بجوارهم من

لنسود بأخبار عدل الزبير ، وما نال الذين دخلوا تحت طاعته من
لراحة والأمن وسعة الميشف ، فاقبلوا عليه متمسكين بروض الطاعة
برغبتهم فى أن ينصب عليهم الزبير حكاما من قبله فأجابهم الى
لك واتسع نطاق ملكه اتساعا عظيما .

وعلى الرغم من ظروف الحروب التى خاضها مع العديد من
سلالطين وملوك الجنوب ، فإنه لم يهمل أمر تجارته بل على
لعمس من ذلك تابعها فى توسيع كبير حتى أنه قام برحلة طويلة
لى الجنوب والغرب من ديم الزبير استغرقت ثلاثة عشر شهرا
حفا من العاج فى تلك المناطق ، وفى هذه الرحلة وصل الى أرض
يكى فيكى وهى على مسيرة تسعة أيام الى الغرب من إقليم
ونيانو وكان يقطنها قوم من الاقزام نوى الاجسام العليظة واللهى
لمسترسلة ، وكانوا يقصونها بطريقة معينة حتى لا تتصلل الى
لأرض ، وكانت جماعة الزبير فى هذه الرحلة تتكون من خمسة
رسمعين رجلا وكانوا يقايضون بالخرز كل ما يلزمهم من الاتوات
يسن الفيل . وقد وصلوا فى احدى جولاتهم فى تلك المناطق
لى اقليم يسمى أبو دنجا(٤٣) ويقطنه هو الآخر قوم من الاقزام
زرعون الفرز فى الأرض على أنه حب من الحبوب يتبت بالزراعة ،
علمهم الزبير وأتباعه كيف يستخدمونه ، وكانوا يحينون بالاسلام
يرحسون على الصلاة وختان الصبية(٤٤) .

وأذا القينا نظرة على حياة الزبير فى هذه المرحلة نجده
تد ألقت به ظروف حياته فى هذه الرحلة من عمره الى ميادين
القتال والحروب فعاش عيها باحساسه وانفعالاتها . ويتلخص
التغير الذى حدث فى حياة الزبير فى تلك الفترة فى التمساط
الإقية :

أولاً : حقيقة يجب أن يذكرها التاريخ والمهتمون به هي أن الزبير كان ضمن أوائل التجار المغامرين الذين طرقت أبواب الجنوب وسمعوا إليه مع بداية ازدهار وتجارة العاج ، وغيرها من حاصلاته طلباً للثروة والسلطان ولم يكن لأى فرد أن يقوم بذلك إلا من توافرت لديه القوة والشجاعة . لأن ما عرف عن هذه البلاد بما تضمه من قبائل همجية اختص بعضها بعادات ذنيقة منها الجنوح إلى التنمية كانت بمثابة الحائق المثبط لهم الكثيرين والتخطى عما يراودهم من أفكار وذلك لعظم توافر الشجاعة والجرأة لديهم . علاوة على الكثير من المساحات الشاسعة التي تكسوها الغابات الاستوائية والأحراش الموحشة ، وما تضمه هذه الغابات والأحراش من مخاطر وأهوال يحسب لها الإنسان ألف حساب ، وقد كانت هذه الصفات متوافرة لدى الزبير بدرجة كبيرة .

ثانياً : أن من ينظر إلى الجنوب بقبائله وأحراشه وغاباته وحيواناته يشفق على نفسه من أن يجتازه منفرداً خشية الوقوع ضحية الأخطار التي تكن في تلك الأصقاع لذلك أصطحب التجار الذين ارتادوا هذه المناطق العديد من الاتباع المسود الذين استأجروهم أو استتروهم بفرض الحماية لأنفسهم من مخاطر الطرق ، وليكونوا لهم عوناً في نقل ما يحملونه من بضائع ، وليتخذوا منهم مرشدين وأدلاء في رحلاتهم عبر هذه المناطق ، هكذا كان الهدف من شرائهم أو استئجارهم . ولم يكن قصد جميع التجار استرقاقهم كما كان يعتقد . وهذا هو الذى فعله الزبير حينما قصد الجنوب مع رطل من هؤلاء فكانوا له خير عون ، وكان لهم نعم الأخ والصديق . لذا وجب أن ننسى بشدة ما التصق به من تهمة الاتجار فى الرقيق . لأن الجنوب بحاصلاته وموارده مثل العاج وربص النعام وغيره كان متسماً لأن يتجر فيه أى إنسان دون أن

يمير ابتهاها لسلعة أخرى كالرقيق مثلا . وان وجد هناك من التجار
من كان يتجر في الرقيق بالبيع والشراء .

ثالثا : ان من يعرف الاصلاخ العربية العريقة التي افحضر
منها الزبير يتأكد له مدى حرص هؤلاء القوم على احترام النفس
البشرية ، وهذا يدفعنا للقول بأن القصد الذي انتهى اليه مؤرخي
الغرب من أن رحلات الزبير الى الجنوب كان القصد منها الاتجار
في الرقيق (٤٥) ينتفى تماما أمام هذه الحقيقة التاريخية . لذلك فان
ما اشتراه الزبير من رجال سود أثناء اقامته ببلاد السلطان تكمه
كان معظمهم من المجرمين والمتبوعين من المجتمع ، الذين كانوا
ينظرهم القتل عقابا لما اقترفوا من جرائم ثم التهام لحوم اجسادهم ،
تكان القصد من شرائهم هو انتقاذ حياتهم أولا ، ومنح سبيل
العيش الكريم لاسمهم . ولان معظمهم من أشداء القوم واصليهم
عودا فكان أن اشتراهم الزبير لكي يكون منهم جيشا مسلحا
بالبنادق يستطيع حمايته وحماية تجارته من بطش سلاطين الجنوب ،
الذين ما برحوا يضسسون الخناق عليه في كل مكان فيه أمثال
السلطان تكمه وعدوه شكو . وابنه شيجا ، وغيرهم ممن لم
يقرهم التاريخ .

رابعا : كان لطبيعة الزبير السمحة وما اتصف به من كرم
ورجاحة في العقل اثره في طبع معاملاته وتصرفاته وسلوكه مع
سلاطين هذه البلاد بالطابع المحمود الذي أدى به في النهاية الى
اكتساب صداقة هؤلاء الزعماء في سهولة ويسر وأدت أيضا الى أن
يعرض هؤلاء السلاطين على الزبير شرف تزويجه من بناتهم
وانتسابهم اليه ، فقد رآناه قد تزوج رانيوه ابنة السلطان تكمه
وابنة الملك كريم . وبهذه الرابطة رابطة النسب وملة الدم
استطاع أن يكسب تأييد وصداقة هؤلاء الملوك والسلاطين ، فقد

منعت حرمة المصاهرة السلطان تكلم من قتال الزبير في المرة الأولى .

هوامس : لم يقصد الزبير عقدا دخل بلاد الملك عدوه شكرو الانتقام لما حدث لأخيه ومن معه على يد هذا السلطان ، بل كان قصده التجارة ، ولكن إصرار عدوه شكرو على ضرورة مغادرة الزبير لبلاده — في وقت كانت فيه الأمطار تهطل في بغزاره والطرق كلها مغلقة — مما أرغم الزبير على حربه انشأدا لنفسه ومن معه والاستيلاء على بلاده . بل كان هذا سببا في تكوينه لمملكة عظيمة في تلك المناطق مع جيش قوى وتجارة ناجحة رابحة .

هوامش الفصل الأول

- (١) Shukry M.B. The Khedive Ismail and slavery in the Sudan (1869 — 1879) PP. 104, 147.
- (٢) سعد الدين الزبير : الزبير باشا رجل السودان ص ١٦ .
- (٣) Jackson, H.C. : The black ivory and white PP. 5 — 6.
- (٤) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ١٦ — ١٧ .
- (٥) سعد الدين الزبير : نفس المرجع ص ١٧ — ١٨ .
- (٦) الجانكا Janket ويسكنها قبائل الجانكي وهم فرع عظيم من الدنكا وأكبر قبائل بحر النزال وأقدمها وأطولهم ثبة ومكانهم السهول النواظنة الشمالية .
- (٧) النجور : وبلادهم بين الدنكا والبنغو وهم يرجعون من النسايم إلى الدنكا ويتكلمون لغتهم ولا يعنون بالثقافة إلا بقدر كثيرهم من السسود بل يهتمون بالزراعة ويشغلون بالصيد ولهم معرفة بحفر الخشب وعمل التماثيل .
- (٨) الزريبة : من غشاء مسور به مسكن يوضع فيها التجار السلع والأمتعة والخيول والمشيخة الخاصة بهم .
- (٩) سن الليل : وأكثر وروده من بحر النزال وخط الاستواء وهي تغطي على الجودة بحسب كبره وسلايته من التشقق ومن الأعلى أملس وأجود من سن السكر .
- (١٠) ريش النعام : وأكثره من أواست السودان وأجود أنواعه الريش الأبيض ثم الأسود وكلاهما ريش الذكر ثم الزيدة ولونه رمادي وهو ريش الأنثى .
- (١١) سعد الدين الزبير : نفس المرجع ص ١٨ — ١٩ .
- (١٢) عموم شكير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ج ٢ ص ٦١ — ٦٢ .

Jackson, H.C. : Op. Cit., PP. 9 — 12. (14) (13)

(15) القولو : وهم من غرب قبائل البقو ويتسببون في هبائهم واختلافهم
ومسباتهم .

(16) أم الصواب : وهي التسمية التي يطلقها سكان هذه المناطق على
أشجار العلب التي تنمو على سفح بحر الخزال وبحر العرب وكان يحدث
تقطع الرياح التي تصاحب موسم الأمطار هناك هذه الأشجار وتطيرها في النهار
لتصاحب مع مراحه التي لا تصل إلى أحد متعرجاته التي تعمق ثقوبها لتتلف وتسرع
ما توجد جذورها إلى أسفل حتى تلحق بقاع النهر وهكذا تثبت في مجراه وتعمق
بذورها أسفل الأشجار والأعشاب المائية في المياه فتتجمع هذه في حولها ويتكون
من الجميع سد مريض قد يمتد في النهر لمدة أيام طويلة .

(17) البقو Bongo ويسكنون السهول المولعة جنوبهم وهم
أرض قبائل بحر الخزال بل هم في رأي كوخورث الألفي أرضي عثا من سائر قبائل
السود ، ويمتطرون عنهم بالوداعة ولين الجانب وحب العمل والفرق بينهم وبين
جيرانهم الدنكا في اللون كنسبة الفرق بين قرية القبيلة الواحدة وقرية الأخرى
لثمة البقو حمراء فاتحة فيها من الحديد وقرية الدنكا سوداء إذ لا حديد فيها .
ولذلك ترى لون الدنكا أسود حالكا ولون البقو أحمر فاتحا وهم يستخرجون الحديد
ويستغلون به

Jackson, H.C. : Op. Cit., PP. 12 — 14. (18)

(19) ه . س جاكسون (ترجمة عزيز يوسف عبد المسيح) فردون باشا
من ٦٥ — ٦٦ .

Jackson, H.C. Op. Cit., P. 14. (20)

(21) محمد عوض محمد (دكتور) : الشعوب والسلالات الأفريقية ص
١٨٨ — ١٩٢ ، ١٩٠ .

(22) إبراهيم فوزي : السودان بين يدي جوردون وكشنور ج ١ ص ٢٢ .

(23) نور أنجره Nur Angra نيز بطول القامة والسواد الذي يضره
إلى اللون الأسود الفحاشي وعلى خفيه ثلاثة خطوط طولية ، ويتميز بنظرة حادة
صارمة فلم من قسرة ونشاط ولكنه عندما يتحدث يبدو كأنه إنسان مسالم طيب .
وهو متفلاوي كان قد أحضر برامسة ملك الشاهية الذي كان يعمل كسجناء ، ودهى
غور أنجره أنه ينحدر من سلالة ملوك الشاهية متديا أحفادهم وهو يفتل إلى
القاهرة . وقد حصل على كثير من السمعة والتوسية الطيبة من الحكومة بسبب
اتصاله وارتباطه بكل من الوزير رحمه وأبنه من بعده .

(٢٢) Jackson, H.C. : Op. Cit., PP. 14 — 17.

(٢٣) نهر البنتو : أحد فروع بحر الفزال .

(٢٤) نعيم شقير : المرجع السابق ص ٢ — ٦٤ .

(٢٥) النورابين : وهم يسكنون بين بحر ميت وبحر الفزال وفي بلادهم يسبح النيل وتكثر السدود والمستنقعات حتى أن بعضهم يسكنون الجزر فيعيشون على الأسماك والنباتات والطيور المائية .

(٢٦) نعيم شقير : نفس المرجع ج ٣ ص ٦٤ .

(٢٧) نعيم شقير : نفس المرجع ج ٣ ص ٦٤ — ٦٥ .

(٢٨) شول : كانت امرأة من أثرياء قبيلة دنكاوية تسمى دنكا وصارال الأهلين حتى اليوم يتحدثون عن قوتها وبطشها بل عن بشاعة خلقتها أيضا .

(٢٩) السنيورة : وهي الترجمة للكلمة الآسيوية — *Tanora* ومعناها سيدة ويقابلها في اللغة الإيطالية كلمة — *Signora* ومعناها أيضا السيدة .

(٣٠) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٢٦ — ٢٧ .

(٣١) سعد الدين الزبير : نفس المرجع ص ٢٧ — ٢٩ .

(٣٢) أومخوة كما ورد في كتاب نعيم شقير ص ٦٦ سطر رقم ٥ .

(٣٣) نعيم شقير : المرجع السابق ج ٣ ص ٦٦ .

(٣٤) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٤٠ — ٤١ .

(٣٥) سراجو : وهو قل طويل يبلغ مرصه حوالي الميل ويكون من صخور هادة ناعمة تغللها هنا وهناك مناطق من الأرض الحصبة التي تتجمع فيها الأهالي ليقوموا بالزراعة حول مياه النابيح المنحدرة التي كانوا يشربون منها ويمسكون أرضهم .

(٣٦) سعد الدين الزبير : نفس المرجع ص ٤١ — ٤٢ .

(٣٧) حيم الزبير : وقد عرفت باسم بله أما كلمة ديم — *Dehm* فجميعها اللغوي دهم — *Denm* وهي كلمة يطلقها الخرطويون على أسواق تجارة العبيد والمعاج الكبيرة التي يقصدها من الغرب . وهي تعني الزريبة أما ديم الزبير فهي العاصمة التي اتخذها الملكة وبني لنفسه فيها زريبة تقع على ارتفاع ٢٢٨٣ قدما فوق سطح البحر أو على ارتفاع ٤٦٤ قدما من زريبة ناسوني وعطاس و ٧٢٧ قدما من ارتفاع المستوطنة الرئيسية لعطاس *Ghatas* وهي أعظم ضياع أو مقاطعات نجار الرقيق . وقد عرفت أحيانا باسم ديم سليمان وهي بقية إلى شانية أعسام كل قسم منها يرأسه بلنر .

- (٣٨) سعد الدين الزبير : نفس المرجع من ٤٢ .
- (٣٩) انظر تفاصيل موضوع حملة محمد البلالى الفصل الثانى .
- (٤٠) عبد الرحمن زكى : اعلام الجيش والبحرية فى مصر "ثناء القرن التاسع عشر ج ١ من ٩٢ .
- (٤١) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من ٦٣ - ٦٤ .
- (٤٢) الروتجا : عبارة عن قطعة كبيرة من الخشب المجوف على هيئة البكرة أو القيل تفرع بواسطة ثلاث شعب من المطاط ويستطاع بواسطتها أن توجه إلى أبعاد شاسعة مختلفة الاشارات كالدموية للحرب أو الحصاد أو صيد الفيلة وكان لهم فى هذا شدة خلصة يفهما لاهلى فى مخطى قراهم .
- (٤٣) أبو دنجا : وهو اسم يطلق على شعب زنجى مختلف تماما على نسل شعوب النيام بياض ويجرى بالاقليم الذى يسكنه هؤلاء القوم نهر يطلق عليه الخرطوميون اسم بحر ابودنجا على مسيرة يومين ونصف من داريندا وكان هذا النهر سريفا جيدا للزبير وجماعته الذين كانوا يقومون بزيارة سنوية للكلبيم الذى يسكنه هذا الشعب الذى يطلق عليه ابودنجا .
- (٤٤) سعد الدين الزبير : نفس المرجع من ٦٤ - ٦٥ .
- (٤٥) انظر الفصل التالى تفاصيل موضوع تجارة الرقيق .



الفصل الثاني

الدور الذي لعبه الزبير في بحر الفزال
وبلاد شكا

الدور الذى لعبه الزبير فى بحر الغزال وبسلاد شكا

لم يقتصر دور الزبير على المشاركة فى الأحداث التى وقعت فى بحر الغزال فقط ، بل تحمل أعباء فتح هذه المديرية وتأمينها من الأخطار التى كانت تحيط بها من كل جانب ، والعمل على عمارتها ونشر العدل والسلام بين ربوعها ، وهو عمله هذا أضاعه إلى مصر أراضى جديدة لم تكن لها من قبل .

موقف الحكومة المصرية من تجارة الرقيق فى السودان :

كان الرق موجودا فى السودان قبل فتح محمد على ، وكان السودان مصدر الرق إلى مصر وبلاد العرب قبل أن تدخل الجيوش المصرية مملكة سنار ، وكان العمل فى الحقول ورعاية الماشية من عمل الرقيق ، وليس من أعمال السادة العرب ، وكان الرق يمثل نظاما اجتماعيا ، وإذا كان محمد على قد قرع بفتح السودان لتزويد الجيش المصرى بحاجته من المحاربين من السودانيين (١) فإن الحكومة المصرية توقفت بعد ذلك عن إرسال الغزوات إلى السودان للحصول على الرقيق بعد ثبوت عدم إمكان استخدامهم فى الجيش المصرى ، كما بدأت تغير سياستها ، فأتجهت نحو

التوسع بنية محاربة هذه التجارة ، الا ان هذه السياسة لم لها انجاح الكامل وكان ذلك لأسباب كثيرة منها :

أولاً : في الوقت الذي بدأت فيه مصر تنفذ هذه السياسة كانت هناك بعض حكومات في أوروبا لاتزال تمارس التجارة (٢) .

ثانياً : ظل عدد كبير من التجار الأوروبيين يعارضون حكوماتهم مدة ليست بالقصيرة على الرغم من وجود الأساطير في مياه المحيطين الهندي والاطلنطي لضبط السفن تحمل الرقيق ، وتقدم هؤلاء التجار الى المحاكمة .

ثالثاً : كان الرق في السودان جزءاً من نظام اقتصادي عليه الحياة الاقتصادية في هذا الجزء من العالم .

رابعاً : بعد مراكز تجارة الرقيق عن حكومة القاهرة وانعدام المواصلات السريعة مما جعل اتسراف القاهرة سياسة الالغاء وأمور الحكم في السودان يكاد يكون منعماً (٣)

خامساً : استمرار الصيادين في غزواتهم الموثقة مستخدمين الأسلحة النارية وهي أسلحة فتاكة ليس في الامكان مقاومتها جانب الرقيق ، الذين كانوا يقاومون بعض المقاومة عندما الصيادون يستخدمون الحراش والسيوف .

لذلك لم يكتب النجاح لسياسة الحكومة المصرية ، و الحال على ما هو عليه بل ان الأمور أخذت تسير من سيء لسيء ، وفي عهد محمد علي أيضاً اقترح احمد باشا المنكلى

عدة نظم لاحتكار تجارة النيل الأبيض بواسطة الحكومة في مصر ، ولكن محمد على لم يوافق عليها منعا لاحتجاجات الأوروبيين الذين بدأوا يمارسون تجارة العاج والمواد الأخرى المصرح بها ، وفي ظل حكم عباس الأول (٥) انشئت القنصليات الأجنبية وتبع ذلك تعمق التجار الأجانب نحو الجنوب بطريق النيل الأبيض ، وزيادة عددهم ، ونشاطهم الذي امتد إلى نهر السوبات ، وبحر الخزال ، وغندكرو . وفي عهد سعيد (٦) التحق في خدمتهم عدد كبير من السودانيين الفارين من دفع الضرائب الباهظة التي لم يكن في مقدورهم تحملها ، وخاصة سكان دنقلة . انتهز التجار المصريون الفرصة فبدأوا ينشئون الزرائب ، واستخدموا هذه العناصر الجديدة لحمايتهم وحماية تجاراتهم ومحطاتهم وفي البداية كانت التجارة الشرعية في مواد وحاصلات الجنوب هي المورد الأساسي في مليات الكسب ، ولكنهم سرعان ما أدركوا أن اصطياد الرقيق وتصديره للخارج ليجدى وانفع من التجارة المصرح بها ، وتبعاً لذلك أصبح التجار يقومون بغزواتهم بهدف اصطياد الرقيق من الزنوج مستنديين في ذلك إلى زرائبهم التي اعتبروها كحصصون لهم ، واستعان هؤلاء التجار سواء من العرب أو الأجانب بقبائل موالية للاغارة على قبائل أخرى معادية لها ، وأصبحت المراكب تحمل بدلا من العاج الأبيض عاجا أسود ألا وهو الرقيق ، ومر الرحالة على هذه الأقاليم ، وهي خالية من سكانها الذين اتقدم هؤلاء التجار حريتهم وأدميتهم ، وجعلوهم سلعة تباع وتشترى ، وقد وصل هؤلاء التجار إلى القمة من حيث الجشع وحب جمع المال وقد ذكر الرحالة والمكتشفون كل ذلك في مذكراتهم وتقاريرهم التي قدموها لحكوماتهم (٧) .

تولى اسماعيل باشا (٨) حكم مصر ، وحالة تجارة الرقيق كما هي بعد أن غشلت الإجراءات التي اتخذها من سبقوه في الحكم ، فعزم على المضي قدما في سياسة الإلغاء . وبدأ يتخذ

من الوسائل ما رآها كهيئة لتنفيذ السياسة وكان للفاعلية والجدية اللذين تميزت بهما جهود اسماعيل باشا ، لتنفيذ ما اعتزم عليه .
النخل الأول في الحد من هذه التجارة شيئا فشيئا ، بل انها كادت تختفى في بعض المناطق بفضل هذه السياسة ، أما الاجراءات التي اتخذها اسماعيل باشا لتنفيذ سياسته فقتلخص في الاتي :

أولا : فرض موسى حيد باشا (٩) اول حكدأر في عهد اسماعيل باشا ، ضريبة سميت « بالمسوبركو » على كل بحار أو عامل على المراكب التي تسير في النيل الأبيض .

ثانيا : تشديد الرقابة على النيل بالوابورات الحكومية ، حتى لا تهرب المراكب المهربة عن انظار الحكومة .

ثالثا : كان لضرورة السيطرة على المراكب القادمة من بحر الغزال ، وبحر الجبل ، ونهر السوبات ، انشاء مدينة بها حماية قوية في موقع استراتيجي يكون عند ملتقى هذه الطرق الملاحية الثلاث ، فكان انشاء ناشودة كماصصة لمديرية البحر الأبيض خطوة مهمة .

رابعا : تم حظر ارسال أو توريد كافة انواع الأسلحة والذخائر الى هذه المناطق حتى لا يقوى أصحاب الزرائب على المقاومة .

خامسا : منع قنامل الدول الأوربية من اضاء أى نوع من انواع الحماية على من يسعى استخدامها من التجار .

سادسا : العمل على شراء الزرائب من التجار ، وبلغ ما دفعته الحكومة في عهد جعفر باشا مظهر (١٠) ما يزيد على المائة ألف جنيه ، ولكنها لم تستطع الاستمرار في المحافظة عليها .

سابعاً : السيطرة على المنافذ الرئيسية لتصدير تجارة الرقيق
بالحقاق ميناءى سواكن ومصوع على البحر الأحمر بإدارة السودان،
وبذلك أكن تسيطر الارسلالات الكبيرة من الرقيق المصدر .

ولم يطق التجار الصبر على هذا الوضع ، بل أخذوا فى
التحايل للتهرب من هذه الاجراءات فكان من نتيجة ذلك ان :

أولاً : استمر التجار فى السيطرة على المنابع الرئيسية لهذه
التجارة البشعة التى لم يكن لسلطة الحكومة فيها أى اثر .

ثانياً : بدأ التجار فى مراوغة الدوريات النهرية المسلحة
التي عينتها الحكومة لضبط هؤلاء التجار ورقيتهم . وينزلون
رقيتهم فى أماكن بعيدة من نقط المراقبة ، ويسوقون سسلعتهم
بعدها عبر الجزيرة الى الشرق عن طريق الموانئ الصغيرة التى
لا تخضع لإدارة الحكومة .

رابعاً : التجا بعض تجار الرقيق الى استخدام الرشوة
لتسهيل أعمالهم ، وخضع لذلك بعض ضعاف النفوس من موظفى
الحكومة بالسودان .

خامساً : أصبح من الصعب على الحكومة فرض سيطرتها
على هذه البقاع الشاسعة التى تضم الغابات والأحراش الكثيفة
والمجارى المائية المتسعة ، يضاف الى ذلك انعدام وسائل الاتصال
والمواصلات بين هذه الأجزاء المتباعدة (١١) .

وعندما عين السير سمويل بيكر — S.S. Baker (١٢) .
حاكماً لأعالى النيل فعن فى البند الثانى من عقد استخدامه ، ان
يكون القضاء على تجارة الرقيق من اختصاصه ، واستعمل السير
سمويل بيكر أقصى وسائل العنف ضد تجار الرقيق ، مما اثار
عليه ثائرة الأهالى الذين لهم مصالح فى استمرار هذه التجارة

البغيضة ، ولكن ما انتهت فترة عقده مع الحكومة حتى ادى ذلك الى مودة الحال الى اسوأ ما كان عليه ، وفقدت الحكومة معظم نفوذها وسلطانها في تلك الانحاء ، فرأت الحكومة أنه لا بد من ايجاد خلف قوى للسير صمويل بيكر يستطيع أن يجد مخرجا لهذه المشكلة المتفاقمة في الشرق ، فكانت أن عينت جوردون — Gordon (١٣) حاكما على مديرية خط الاستواء في فبراير سنة ١٨٧٤ وبدأ جوردون منذ لحظة توليه زمام الأمور في هذه المنطقة في اتخاذ الاجراءات الكفيلة بالقضاء على هذه التجارة فكانت كالآتي :

أولاً : ادخال السفن الحكومية الى بحيرتى البرت وليكتوريا لامكان مقاومة تجارة الرقيق ، وفتح ابواب البلاد للتجارة المصرح بها .

ثانياً : اصدر تعليماته باحتكار تجارة العاج لحساب الحكومة .

ثالثاً : حظر السفر الى الجنوب لاي شخص ماعدا من يحمل تصريحاً بذلك .

رابعاً : قام بحل الجماعات المسلحة داخل المديرية .

خامساً : قام كذلك بانحسار عدد من النقاط والمحطات العسكرية على طول النيل الأبيض الاعلى .

سادساً : اصدرت الحكومة المصرية قراراً في فبراير سنة ١٨٧٢ باحتكارها لكل أنواع التجارة في اقاليم النيل العليا وعادت مشكلة تجارة الرقيق الى ما كانت عليه ، عندما ترك جوردون وظيفته كحاكم لمديرية خط الاستواء واصاب الجهود الم بذولة للقضاء عليها بعض الجمود والفتور ، ماعدا ما قام به الزبير ،

نقد قدم ولاءه للحكومة ، وامتنع عن ممارسة هذه التجارة واشترك مع اسماعيل باشا أيوب (١٤) في فتح سلطنة دارفور باعتبارها مركزا مهما من مراكز تجارة الرقيق (١٥) .

مزم الخديو اسماعيل باشا على مواصلة جهوده من أجل حسم أمر هذه المشكلة الشائكة بجانب ما ظهر من مشاكل أخرى من السودان في هذه الآونة ، وذلك انقاذاً لجهوده السابقة ، وما أنفق من أموال طائلة في هذا السبيل ، كما أن تراجعه عن مواصلة هذا السعى كان يعنى تنازله عن جزء كبير من نفوذه ، وكان الخديو يخله في ذلك كمثل رجل أعمال شمعى نشاطه حدود امكانياته وأصبح مهدداً بالانفلاس ، ولكنه يصر على مواصلة نشاطه على أمل أن يواتيه الحظ ، فإذا كانت تجارة الرقيق لم تؤت أى أرباح فلان هناك مصادر طبيعية أخرى يمكن أن تأتى بعائد مثل تجارة العاج ، وعلى الرغم من أن الأفيال كانت تصاد بأعداد هائلة إلا أنه كان لا يزال هناك المزيد من الفيئة ، كما أن الطلب شديد على العاج من أجل صناعة كرات البالياردو ، ومفاتيح البيانو ، والتماشيل، وكانت تجارة الصمغ العربى ، وريش النعام تدر ربحاً كبيراً بالأضافة إلى منتجات أخرى عندئذ خيل للخديو اسماعيل أنه لا يفتقر للبلاد من هذه المشكلة سوى صديقه جوردون ، فأرسل إليه برقية في السابع عشر من يناير سنة ١٨٧٧م يستدعيه لهذا الغرض ، ولم يأت فبراير من نفس العام حتى كان جوردون في القاهرة ، كانت شروطه أن يكون حاكماً على السودان كلها . مليون ميل مربع . وأن تكون له الحرية الكاملة في القضاء على تجارة الرقيق . موافق الخديو على شروطه في الحال ، وكتب سير أيفلين بارنج (١٦) S. Evelyn Barin الممثل البريطانى في القاهرة يقول حتى إذا افترضنا أن الخديو كان مخلصاً في رغبته في القضاء على تجارة الرقيق واصلاح السودان ، فقد كان من المؤكد أنه لا يستطيع تحقيق

ذلك . وكتب الخديو لجوردون يطلب منه استخدام كل ما منحه من وسائل القوة ، واتخاذ أى إجراء يراه ضروريا ، فكان هذا ما قام به جوردون فعلا فى السودان (١٧) .

وفى للأربع من صفر سنة ١٢٩٤ هـ الموافق الثامن عشر من مبرابر سنة ١٨٧٧ م صدر فرمان بتعيين جوردون حاكما لعموم السودان (١٨) ووصل جوردون الى الخرطوم فى مايو سنة ١٨٧٧ م ، وبدأ يمارس مهام وظيفته الجديدة باتخاذ عدة إجراءات منها :

أولا : طرد كل من شك فى إخلاصه من موظفى الحكومة بشأن تحرير الرقيق ، واستبدل بهم موظفين أوروبيين (١٩)

ثانيا : استطاع بالتعاون مع رومولوجسى (٢٠) فى مطاردة تجار الرقيق بمنطقة بحر الخزال ، أحد المراكز الرئيسية لهذه التجارة والقضاء القبض على ثلاث وستين قافلة وتحرير أكثر من ألفى فرد من الرقيق .

ثالثا : طرد حوالى أربعمائة وسبعين تاجرا للرقيق فى يوم واحد أثناء زيارته لأحد الأقاليم (٢١) .

وبنما جوردون يجتهد فى علاج مشكلة الرقيق ، كانت المفاوضات ما تزال قائمة بين الحكومتين البريطانية والمصرية منذ مدة أربع سنوات ، من أجل اتخاذ قرار حاسم للقضاء على هذه التجارة ، وقد انتهت هذه المفاوضات بإبرام معاهدة إلغاء الرقيق (٢٢) فى الرابع من أغسطس سنة ١٨٧٧ م (٢٣) .

ورغم كل هذه الجهود والإجراءات التى اتخذت من قبل « المستولين على كل من القاهرة والخرطوم » للقضاء على مشكلة تجارة الرقيق ، إلا أنها لم تسر عن نتيجة كاملة للنجاح ، بل استمر الكثير من التجار يمارسون هذه التجارة وزاد على ذلك أنهم

كونوا فيما بينهم جماعات مسلحة أشبه بالمعصابات لحماية متاجريهم ،
والضرب بها على الأيدي التي تمس تجارتهم بسوء ، فكان من نتيجة
ذلك أن الحكومة رأت أنه لا حل لهذه المشكلة إلا بضم هذه المناطق
وأخضاعها بالقوة العسكرية لسيطرة الحكومة . فكانت بداية ذلك
ضم منطقة بحر الغزال .

التفكير في ضم بحر الغزال (٢٤) :

أصبح ضم منطقة بحر الغزال أمرا لا مناص منه ، وخصوصا
عندما فشلت الجهود التي بذلتها الحكومة في سبيل القضاء على
تجارة الرقيق في مناطق جنوب السودان ، وخاصة منطقة بحر
الغزال باعتبارها أحد المراكز الرئيسية لهذه التجارة التي يتجمع
فيها كل من التجار والرقيق معا ، وقد ساعد على استفحال أمر
هذه التجارة بعدها من مراكز السلطة الحكومية ، وضعف السيطرة
على طرق تهريب الرقيق منها إلى بقية أجزاء السودان وخارجها .

وحتى سنة ١٨٦٩ م الموافق سنة ١٢٨٦ هـ لم يكن الحكام
المصريون في السودان يميلون إلى استخدام العنف في محاربة
تجارة الرقيق إلا عند الضرورة القصوى ، وكان ذلك يتم بمنتهى
المهارة والحكمة ، وذلك بدفع التجار بمهاجمة بعضهم البعض ،
بدون أدنى تضحية من جانب الحكومة ، مؤكدين في نفس الولايات
سلطانهم عليهم . ولكن منذ هذه السنة أحس تجار الرقيق في
بحر الغزال بقتوتهم ، مرفبوا في تحدى الحكومة المصرية ، بالامتناع
عن دفع المبالغ السنوية المقررة عليهم للحكومة . وولوا أمرهم
إلى الزبير رحبة ، الذي ذاعت شهرته في جميع أرجاء السودان ،
وأصبح أكبر شخصية سودانية ظهرت في القرن التاسع
عشر (٢٥) .

وقد توالى بعد ذلك الاتهامات الموجهة ضد الزبير على اعتبار أنه المحرك لهذا العصيان . وأنه عندما أصبح التجار تحت قيادته رفضوا دفع الضريبة السنوية ، وساد شحور في القاهرة في هذه الآونة بأن جرائم هؤلاء التجار قد استفحل أمرها لدرجة يستحقون معها التماس . وكان للزبير احترامه وتقديره حين كان في أوج قوته وعلى رأس هذا التحالف الذي يجمع تجار الرقيق ، كان يجب أن يتباهى بهذه البطانة من الاتباع ، كملك تمرس على السلطة في أقاليم واسعة بفضل جيش قوى . وفي أوائل سنة ١٨٦٩ م كان الزبير بالفعل الحاكم المستقل بأقليم بحر العزال وقد صمم الخديو اسماعيل على تأكيد حقوقه في تلك الأصقاع وقمع ثورة هؤلاء التجار الذين تمردوا ورفضوا دفع الضرائب (٢٦)

وقد كان لظهور الزبير رحمة . الذي كان معروفاً بالباشا الأسود والملك والسيد لثلاثين محطة تجارية ، والذي عاش في قصر باحدى مقاطعاته عيشة فيها ثراء الملوك مع عدد كبير من الزوجات والمحظيات ، مع قيام ثورة هؤلاء التجار ، من الأسباب القوية التي أدت بالحكومة الى تغيير سياستها تجاه هذه التجارة ، وجعلها تسرع الخطى في ايجاد الوسائل الكثيلة باظهار سطوتها ونفوذها في تلك المناطق (٢٧) يضاف الى ذلك ما كان ينقله الرحالة والمستكشفون للحكومة من اخبار سيئة عن احوال اقليم بحر العزال وما جاورها ، واستفحال أمر هذه التجارة بها ، لذلك صمم الخديو اسماعيل انه لابد من ضم الاراضي التي يتلاعب فيها هؤلاء التجار الى ممتلكاته ضماً نهائياً ، وايجاد الحماية الكافية لها ، فكان ان أرسلت الحكومة حملة تحت قيادة محمد اليلالى (٢٨) لهذا الغرض (٢٩) .

جبهة البسالى :

بدأ الزبير حياته كمحسوب بسيط ولكن ذكائه وصفاته الزعامة والقيادة التي امتاز بها على من حوله جعلته يتقدم خطوات في التجارة من ناحية ، والملك والسلطان من ناحية أخرى ، وأصبح له بالتدريج شأن يختلف عما كان عليه اقرانه من التجار ، وصارت جهات بحر الغزال الغربية تحت نفوذه التجاري والاداري ، ومقد له التجار لواء الزعامة التي وصل اليها باجتهاده وصفاته (٣٠) .

ومسرحان ما بدأت سنة الزبير كتاجر تفتى شيئا فشيئا لتخلي مكانه لصفته كحاكم لهذا الاقليم يرم المعاهدات والاتفاقيات وتأتيه الوفود طمعا في عدله وطلبها للأطمأنينة والسلام الذي اشتهر به في تلك الاقاليم التي اعتادت القسوة والظلم من قبل حكامها ، فير أن الزبير لم يكد يصبح الحاكم الحقيقي لاقليم بحر الغزال (٣١) حتى بعث الخديو ب خطاب الى جعفر مظهر باشا حاكم السودان تاريخه الثامن والعشرون من ذي الحجة سنة ١٢٨٥ هـ الموافق الثاني عشر من أبريل سنة ١٨٦٩ م يطالبه فيه بضم هذا الاقليم ، وكان جعفر باشا مظهر سبق ان اقترح ضمه لحاكم حكومة السودان في خطابه للجناب العالي بتاريخ الخامس عشر من شوال سنة ١٢٨٥ الموافق ٣٠ يناير سنة ١٨٦٩ م (٣٢) وطبقا لأوامر الخديو وضع الحاكم الخطة لأخضاع اقليم بحر الغزال لسيطرة الحكومة وكلف بهذا العمل محمد البلالى وتدعيما لمركزه مينه الخديو مديرا على هذا الاقليم لتوطيد سلطة الحكومة المصرية به (٣٣) .

تحرك محمد البلالى من الخرطوم في سنة ١٨٦٩ م قاصدا احتلال اقليم بحر الغزال ، وكان الجيش الذي وضعه الحاكم تحت امرته يتكون من مائة وخمسين نفرا مسلحين من اتباع واقارب

البلالى نفسه بصفة عسكري ، شاة وعليهم ثلاثة رؤساء بلوكباشية من اقربائه ، وكذا مائتا نفر من جنود البيادة من قبل الحكومة تحت أسرة مامور وصباط وتسعين كجوك على الماء (٣٤) سرية لقسيم بحر الفضال ، وهذا ما ورد ذكره بالخطاب الذى بعث به الخديو للحكمدار بتاريخ التامس والعشرين من ذى الحجة سنة ١٢٨٥ هـ الموافق الثانى عشر من ابريل سنة ١٨٦٩ هـ (٣٥) الا ان سعد الدين يذكر ان هذا الجيش كان يكون من مائتين من الجنود السودانيين بقيادة الحسناغ محمد اندى منيب واربعمئة من العسسساكر الشاسوزق (٣٦) بقيادة اليوزباشى كوتشوك على بالاضضافة الى ستمائة رجل من الخطرية (٣٧) .

والملاحظ انه لم يات اى ذكر بالوثيقة « لمحمد افندى منيب » والمرجح انه قد تعين بعد ذلك على المائتى جندى السودانين ، كما لم يذكر بالوثيقة الاربعمئة جندى الباشبوزق الذين تعينوا تحت قيادة اليوزباشى كوتشوك على ولا للستمائة رجل الخطرية ، والمؤكد ان السلطات التى فوضها الخديو اسماعيل للحكمدار لاتخاذ كافة التدابير اللازمة لنجاح الحملة ادت بالحكمدارية الى اصابة هذه الاعداد من الجنود للحملة وتزويدهم باللازم من السلاح والذخائر والذين لم يرد ذكرهم بالوثيقة ، وهى التى ادت بالتالى الى هذا الفارق فى العدد والتنوعية بين ما ذكرته الوثيقة وما ذكره سعد الدين فى كتابه . ولم تهمل هذه الوثيقة ذكر ما تعين لهؤلاء الجنود من المرتبات والمؤن اللازمة ، وقد سر الخديو اسماعيل من اجراءات التنفيذ هذه ، غير انه حفر حكمدار السودان من النساهل فى قوة هذه الحملة ، حتى تستطيع رد اى هجوم قد يقوم به سلطان دارفور (٣٨) .

أبرق الخديو اسماعيل فى السادس عشر من جمادى الاول سنة ١٢٨٦ هـ الموافق الثالث والعشرين من أغسطس ١٨٦٩ هـ

يستفسر من الحكمدار عما تم بخصوص إرسال القوة العسكرية
الممينة لضم اقليم بحر الغزال (٣٩) . ثم بعث ببرقيتين الى حاكم
السودان في ٢٢ جمادى الثاني سنة ١٢٨٦ هـ الموافق الثاني عشر
من اكتوبر سنة ١٨٩٦ م يستعجل فيها ارسال الموظفين والجنود
والحكّام المقرر ارسالهم الى اقليم بحر الغزال (٤٠) كما صدرت
ارادة سنية في التاسع والعشرين من جمادى الآخر سنة ١٢٨٦ هـ
الموافق الثلاثين من اغسطس سنة ١٨٦٩ م الى حاكم السودان
بعدم التراخي أو الاهمال في تنفيذ الاوامر الخديوية ، وضرورة
اعطاء الاوامر والتعليمات للحكام المرسلين الى جهة بحر
الغزال لمعاملة الاعالي بالرفق واللين وعدم فرض الضرائب
البهاظة التي تثقل كاهل السكان ، والعمل على استئالة السكان
وجلب محبتهم نحو الحكومة (٤١) .

وقد قابل محمد البلالى أثناء وجوده في القاهرة الخديو
اسماعيل ، وقدم نفسه على انه المالك الوحيد لمناجم النحاس
الموجودة في جنوب دارفور في المنطقة المعروفة باسم حفرة
النحاس (٤٢) ، وانه قد حصل على تلك الارض عن طريق الهبة
من سلطان دارفور ، وزين للحكومة وجوب احتلال اقليم بحر الغزال
ووافقت الحكومة المصرية على ذلك الرأي ، ووضعت تحت امرته
القوة اللازمة لتحقيق هذا الهدف (٤٣) .

وكانت حملة محمد البلالى اول عتبة حقيقية تواجه الزبير ،
كما كانت اول اختبار لدهائه السياسي بعد ان استطاع البلالى
تضليل الحكومة المصرية عن حقيقة الموقف في اقليم بحر الغزال ،
واقناعها بان تطلق يده في هذه المناطق ، فكان من الطبيعي ان
يصطدم البلالى بقوة الزبير وسلطانه وحقه في البلاد التي فتحها
بسيقه (٤٤) .

ولم تلبث الحكومة المصرية أن تبينت أن كل أهوال البلالى لا تعدو أن تكون مجرد ادعاءات كاذبة لرجل مخادع ، فهو لا يمتلك أرضا فى هذه المنطقة ، كما أن سلطان دارفور لم يهبه أى قطعة من الأرض ، ولقد تسبب البلالى بادعاءاته الكاذبة هذه فى كراهية جميع الأهالى هناك له ، وذلك أنه ألقى الشك فى صحة ملكيتهم للأرض التى بنوا عليها مساكنهم وزرائبهم (٤٥) .

وبوصول البلالى أسرع الزبير لاستقباله وتحيته ، فالتقيا عند مشرع الرق ، ولم يرتح اليه الزبير منذ اللحظة الأولى ، وكان اللقاء بينهما فائرا ميلا ، وقد استطاع الزبير من خلال الفترة التى قضها فى معسكره أن يدرك أن العلاقة بين البلالى وعجوك على أفا ليست على مايرام ، وأن الخسلاف بينهما قائم ومتجدد على الدوام . ولم يلبث الزبير أن رود محمد البلالى بكل ما يحتاج اليه من الطعام والشراب ، ثم قفل عائدا إلى الغرب لكى يسهل الطريق أمامه ، غير أن البلالى عاد بعد ذلك فتوقف عند زريبة على أبو عمورى (٤٦) وهناك توفى أبو زبابة كجوك على أفا ، فاستولى على أسلحته وأمواله بمجرد وفاته معلنا مصادرتها باسم الحكومة (٤٧) .

وفى البرقية التى أرسلها الحكمدار للخديو فى الخامس والعشرين من رجب سنة ١٢٨٧ هـ الموافق الثانى والعشرين من أكتوبر سنة ١٨٧٠ م تؤكد أن وفاة كجوك على أفا كانت طبيعية فقد ذكر « سريةادة كجوك على أفا الذى .. توفى هناك بأجله الموعود » (٤٨) .

وهذا ينفى ما جاء فى كتاب سعد الدين من أن كجوك على أفا مات مسموما بيد البلالى ، رغم ما ذكر من أنه كان بينهما

خلافات حادة . وقد ساهمت الكراهية التي نشأت بين الاثنين
الذين وجدوا للتعاون من أجل نجاح الحملة في فشلها وعدم تحقيقها
للأهداف التي أرسلت من أجلها .

أهداف حملة البلالي :

— كانت حملة البلالي تهدف الى :

أولاً : القضاء على النفوذ الفعلي لتجار الرقيق بمنطقة بحر
الغزال ، وتأكيد سلطة الحكومة المزعومة بها بضم هذه المنطقة
الى الملكات المصرية ضمًا نهائيًا .

ثانيًا : القضاء على الزبير بما له من نفوذ في منطقة بحر
الغزال ، ومصادرة أمواله وأملاكه باسم الحكومة التي رأت في
وجوده خطراً على مصالحها في هذه المنطقة ، لأنه كان يمثل الزعيم
السياسي والاداري لبقية التجار في هذه المنطقة ، غيبت عنها منه
يكون من السهل التخلص من بقية التجار الا أنها صارت بعد ذلك
وسلكت اتجاهها عكسياً بعدما وجدت أن بقاء مصالحها في هذه
المنطقة يعتمد أساساً على وجود الزبير ونفوذه وخاصة بعد فشل
حملة البلالي .

ثالثاً : تمكين محمد البلالي من مناجم النحاس الواقعة بمنطقة
حبرة النحاس والتي ادهى ملكيتها عندما حظى بمقابلة الخديو في
القاهرة .

والحقيقة ان هدف الحملة الرئيسي كان القضاء على الزبير
أما بقية الأهداف فقد كانت تمثل أهدافاً ثانوية لعدم إبراز الهدف
الحقيقي ، والذي يؤكد ذلك هو الاهتمام الكبير الذي أولاه كل من
الخديو والحكمدار في إعدادها وتجهيزها لمواجهة قوة الزبير

العسكرية التي لم يكن هناك غيرها ، فقد بلغت جولة ما صرف على الحملة قبل ترحيلها من الخرطوم في شهر صفر سنة ١٢٨٦ هـ الموافق مايو سنة ١٨٦٩ م ما يزيد على ثلاثة آلاف كيسة وكسور هذا غير ما تقرر لها من مصروفات سنوية تزيد على الفين وأربعمائة كيسة وكسور (٤٦) .

بداية الصراع بين الزبير والبلالي :

استمرت حملة محمد البلالي في تقديمها ، ولكنه ظكأ في طريقه وعمل على الاجتماع بالتجار قبل أن يلتقى بالزبير وذلك للاستيلاء على امتعتهم وأموالهم والبطش بهم ، ولم يكد يصسل محمد البلالي إلى الزريبة التي بناها له الزبير خارج « ديم الزبير » حتى يثبت للحكومة صدق إخلاصه وولائه وأنه ليس متهددا ولا ثائرا ضسدها . حتى أمر باستدعاء رؤساء الزرائب المجاورة له ، وطلب اليهم أن يقوموا بتسليمه ممتلكاتهم جميعها باسم الحكومة المصرية ، فرفضوا ذلك حتى يستشيروا شركاءهم أصحاب الزرائب المقيمين في الخرطوم ، إلا أن بعضهم قد قبل في نهاية الأمر أن يتنازل للبلالي الذي كان يتحدث باسم الحكومة عن بضائعه . وطلبوا منه أن يستقدمي الزبير إلى محلسهم مظهرين أنهم سسوف يرضون بما يرضى به الزبير ، وقبل أن يحضر الزبير لمقابلة البلالي اجتمع بالتجار وأخبرهم أن البلالي لم ترسله الحكومة إلا لستغل مناجم القحاس ، وأنه لا سلطان له عليهم ، ولا شأن له بأمور بحر الغزال ، وفي هذا الاجتماع اتسسم جميع التجار على اطاعة أوامر الزبير ، وعدم اطاعة أوامر البلالي ما لم يبرز لهم التعليمات المكتوبة التي رددته بها حكومة الخرطوم . وقد دفع الزبير إلى عمل ذلك أن الحكمدار كتب إليه يبلغه ثقته فيه ، ويترك له حرية الموانعة على

ما يشير به البلالي أو رفضه ، وكأنها أدرك الحكمدار بعد أن سير البلالي في قوة من الجيش النظامي ، أن السلطان الفعلي بمديرية بحر الغزال هو الزبير ومن حوله من التجار ، فإراد الحكمدار برسالته (٥٠) هذه استرضاء الزبير التي حاول فيها أن يقسم شؤون هذه المنطقة بين الرجلين ، وأن يمهّد إلى البلالي مهمة استغلال مناجم منطقة « حفرة النحاس » والقضاء على تجارة الرقيق (٥١) ، ومن المؤكد أنه لم يحدث خطأ من جانب الحكمدار عندما قام بتقسيم شؤون المنطقة بين الرجلين والدلائل التي تثبت صحة ذلك هي :

أولاً : أن الحكمدار أدرك بعد فترة من وصول الحملة أن البلالي لن يستطيع انجاز المهمة الرئيسية الموكولة للحملة ، وهي القضاء على تجار الرقيق بهذه المنطقة وعلى رأسهم الزبير ، بجانب تأسيس مديرية بهذه المنطقة واستغلال مناجم النحاس ، فتقسم شؤون هذه المنطقة بينه وبين الزبير كي يكسب جانب الزبير وقواته للحملة محققاً بذلك أهدافاً ثلاثة هي :

الأول : عدم تعرض الزبير للحملة .

الثاني : الاستعانة به في القضاء على بقية تجار الرقيق .

الثالث : قيام البلالي باستغلال مناجم النحاس لصالح الحكومة .

ثانياً : أن الحكمدار بعدما وصلته الأخبار السيئة عن أحوال الحملة وخاصة وفاة كجوك على أفا ، والخلافات التي نشبت بينه وبين البلالي ، وقيام البلالي بالاستيلاء على أموال وبضائع التجار دون وجه حق ومناصبتهم العداء ، والوقوف في وجه الزبير رغم مساعدته له مخالفاً تعليمات الحكومة الخاصة باسترضاء

الاهالى وجلب محبتهم لها . رأى من الصواب تقسيم شئون المنطقة بين الرجلين .

ثالثا : لم يكن بمستطاع الخديو ولا الحكمدار ولا البلاى انكار قوة وتدوؤ الزبير على بقية التجار فى هذه المنطقة لذا رأى الحكمدار أن من مصلحة الحكومة عمل ذلك .

رابعا : لم يخالف الحكمدار أوامر الخديو عندما فعل ذلك لأن الخديو حمله مسئولية فشل هذه الحملة وفوضه فى اتخاذ ما يراه مناسبا من اجراءات لنجاحها .

خامسا : لم يكن الحكمدار يتمسرف بمكرده بل كان يبلغ الخديو أولا بأول بأخبار الحملة والاجراءات التى يتخذها حيالها ثم تأتبه بعد ذلك التعليمات .

سادسا : ان هذا الاجراء الذى اتخذته الحكمدار لم يكن ليتغاضى بح أوامر الخديو ولا الاهداف التى أرسلت من أجلها الحملة بل سيكون عاملا مساعدا على نجاح الحملة فى تحقيق هذه الاهداف لو ان البلاى التزم بتنفيذها .

ونرى الاجتماع الذى عقده البلاى . طلب من الزبير تسليم اسلحته متعللا بأنها أوامر جعفر باشا مظهر (٥٢) الذى عينه حاكما على بحر الغزال ، ولكن الزبير رفض ذلك ما لم يظهر لهم مرسوم تعيينه هذا ، فراوغ فى الاجابة ، فأبرز الزبير له خطاب الحكمدارية إليه ، وعرفه أنه بالرقم من أنه ضلل الحكومة بمعلوماته الكاذبة فإنه لن يتوانى فى تنفيذ أوامر الحكمدار بتقديم كل مساعدة ممكنة له فيما يختص باستغلاله لمناجم النحاس فقط ، وأبلغه بأنه لن يسمح له بمخاطبة رؤساء التجار الخاضعين لحكمه راسا ما لم يسمح هو لهم بذلك . بعد ذلك أراد البلاى ان يبيع بضائع كجوك

على أفا التي صادرها باسم الحكومة ، وتوزيع ثمنها على جنوده
إلا أن الزبير ومن معه أجبروه على حفظ ثمن هذه البضاعة التي
بلغت سبعة وأربعين قنطارا لابنه في حجرة خاصة حتى يصل
من الخرطوم لاستلامها ، وأثارت تصرفات الزبير ضيق
البلالي وحنقه الشديد ، غير أنه لم يجد أمامه من وسيلة
سوى التسليم بالأمر الواقع ، ورحل عائدا معه إلى ديم
الزبير وقد أضمر في نفسه البطش به عن طريق الحيلة
والدهاء ، فلم يبال الزبير بذلك وبني له زريبة خاصة ، وأمر
أن توزع على رجاله الملابس والأقوات ، كما سلم البلالي ألفا
وخمسمائة كيس من الذهب ، ومثلها من النحاس المستخرج من
مناجم حفرة النحاس (٥٣) .

في هذا الوقت كان الزبير يحتفظ لنفسه وتحت يده بجيش
قوي وأمر العدد والعدة يمكنه من مواجهة البلالي وتحدياته ،
وكان يتكون من الأفراد الذين اقتادهم الزبير وألقدهم من أحكام
الموت الصادرة ضدهم أثناء وجوده في بلاد النيام تيام ، وهم
الذين نبذهم المجتمع نتيجة الجرائم التي ارتكبوها ، فكان منهم
الزبير جيشا لحمايته وحماية تجارتها . أما الفئة الثانية التي
ضمها جيشه فكانوا من العبيد الذين التقى بهم أثناء زيارته
الأولى للمناطق الواقعة غرب بحر الغزال ، وهم الذين آثروا
الفرار من أسسادهم ، وأقبلوا عليه يطلبون الانضمام إليه ،
ولكن أسسادهم لم يرضوا عن ذلك وعملوا على حرب
الزبير ، فطلب الزبير من العبيد العودة إلى أسسادهم فأبوا ذلك
وصدموا على قتل ساداتهم أن هم عادوا ، فاضطر الزبير
لمراعاة الجماعتين بأن يبادل على هؤلاء العبيد بعدد مماثل من أتباعه
وبذلك تم حل المشكلة . وسلح الزبير حوالى ستمائة منهم
وجعل قيادتهم لأربع (٥٤) وبهم أحرز الكثير من الانتصارات ، وأم

يليك اقارب هؤلاء واصدقائهم ان انضموا لجيش الزبير بعد
 ان ذاع حسن معاملته لرجالهم في جميع الجهات ، وهكذا تجمع
 للزبير جيش كبير بلغ تعداده حوالي اربعة آلاف رجل تحت قيادة
 قواده وزعمائهم ، والجميع يخضعون للقيادة العليا التي
 وضعها الزبير في يد رابع ، وحين حدث الخلاف الذي تقدم ذكره
 بين البلالي والزبير ، عهد البلالي الى اغراء جنود الزبير بتركه
 والتوجه اليه واعدا ايامهم بمفتحهم الكثير من الامتيازات في مقابل
 هذا ، ورغم كل ما قدمه لهم الزبير فقد خدع الكثير منهم بوعود
 البلالي ، ولما كان الزبير غير مستعد للتضحية بجنوده هؤلاء ، فقد
 بذل كل ما في وسعه لملاينة البلالي بالهدايا والقول الطيب
 ليعيد اليه رجاله فرفض ، عندئذ عرف انه لا مفر من استخدام
 القوة والحيلة لا جباره على ذلك . . فانطلق بجواده ، ومعه اثنان
 من اخلص رجاله هما حاك ودوليب نحو زريبة البلالي . وفي
 الطريق اطلع صاحبه على خطته ، وما بلغ زريبة البلالي حتى
 اقتحم الزبير عليه غرفته وهو جالس . وخيره بين ان يرد له
 رجاله او ان تصعد روحه الى بارئها مصحوبا مسدسه الى
 راسه وهو واقف الى جواره ، غير ان البلالي كان قد اشترى
 بيده الى خادمه ، فهدده الزبير بان يأمر خادمه بالانصسراف وان
 يعيد اليه رجاله ، والا قتله بمسدسه ، فخضع البلالي
 لطلب الزبير . ولم يترك الزبير البلالي حتى اقبل واحد من رجاله
 عليه يلفه نبالا طلاق سراحهم ، فعدل اسرع الزبير بمغادرة
 معسكر البلالي عائدا الى زريبته ، وفي اثناء عودته علم ان
 رجاله مشبكون مع رجال البلالي ، فأتجه نحو ساحة المعركة ،
 ففوجئ برجال البلالي وهم عائدون من المعركة التي انتهت بهزيمتهم
 يطلقون عليه الرصاص ، فاشتبك معهم الزبير بمن معه من
 الرجال الذين بلغوا حوالي ثلاثين رجلا بينما كان رجال البلالي
 اكثر عددا وعدة . ولم تلبث الامدادات ان وصلت لنجدة الزبير ،

فاستطاع بعد جهد يسير أن يوقع بالاعضاء هزيمة ثانية . انتهت بمصرع تسعة عشر رجلا من رجال البلالي مقابل تسعة من رجال الزبير . وبعد هذه الهزيمة حرص البلالي على مهادنة الزبير ولكي يأن جانبهم قام بوقيع معاهدة سلام معه ، وأرسل يطلب من الحكمدار سيرا بعض الفجوات نجاست بعد حوالي العام من يوم حدوث المعركة (٥٥) .

وعندما وردت أخبار هذه المعركة الى الخرطوم أرسل الحكمدار معاوننا من الحكمدارية وكتبا مع بلوك من العسسسكر الجهادية وأسلحة ونخائر وطاقم مدفع ب ذخيرته لأجل تحقيق النصر في هذه المعركة (٥٦) .

ولم تكد تصل البلالي الامدادية التي طلبها وهي عبارة عن فرقتين من الجنود معها مدفع واحد حتى بدأوا في إطلاقه في الهواء ، فراع الأهالي الذين لم يشاهدوا المدفع من قبل واقتنعوا تماما بأن البلالي هو مثل الحكومة الفعلية برغم أنه لم يطلق أمرا بتعيينه حاكما على بحر الغزال ، ثم لم يلبث البلالي أن دعا الزبير للاجتماع به لتوقيع معاهدة السلام التي بينهما ، وبعد انتهاء الاجتماع أعلن البلالي عن عزبه على الارتحال لمحاربة تجار الرقيق والقضساء على هذه التجارة البغيضة تنفيذا لأوامر الحكومة التي أبلغ بها أخيرا ، فعرض الزبير عليه كل مساعدة ممكنة واتفق الاثنان على أن يقوم الزبير بتوديعه وحماية مؤخره قوائمه ، بعد أن يعلنه بموعد قيامه . وكانت الخطة أن يرسل البلالي رجاله قبله ثم يلحق هو بهم بعد ذلك ، ولكنه أخل باتفاقه ورحل بعد عدة ساعات من رحيل رجاله ، فميا ذلك عن الزبير . وكان النبا قد ومسل الى علم الزبير قبل أن يقارب اليوم على الانتهاء فلم يمنع هذا من ضرورة توديعه والحق به قبل

حلول الظلام ، ولكن الزبير فوجيء بمرض جواده ، وكان سريعا
 بمقدد بذلك كل اهل في اللحاق به ولكن الاقدار كانت تنحصر له
 مفاجأة كبرى ، فقد كان البلالى واثقا من أن الزبير سوما يتبعه
 لتوديعه ، لذلك خلف وراءه في الطريق الذي قدر له أنه سوف
 يسلكه كميناً من اربعين رجلاً اوصاهم بقتله واللاحاق به (٥٧) ولكن
 كتب للزبير النجاة من مكيدة البلالى ، وكان البلالى قد وصل
 الى قرية موجومنجى — Mugmngi واخذ في مهاجمة التجار
 الا ان رجاله اثاروا عليه بمهاجمة الزبير اولا والقبض عليه نادا
 ما تم له ذلك فان جميع الزرائب الاخرى سوف تستسلم له (٥٨) ،
 وهكذا تنكر البلالى لمعاهدة السلام التي وقعها مع الزبير ، بل
 زاد على ذلك أنه حاول اغتياله بغتة مما لوث صفحته في هذه
 المنطقة .

المعركة الناصلة ونهاية الصراع بين الزبير والبلالى

وقته في (سنة ١٢٨٦ هـ - سنة ١٨٦٩ م) :

بدا كل من الزبير والبلالى باعداد نفسيه وقواته للمعركة
 الناصلة ، نوضع البلالى الخطة لمهاجمة الزبير في أكثر من مكان
 لتضليله من اتجاه الهجوم الرئيسى له ، وفي نفس الوقت لكي
 يتجنب المواجهة المباشرة معه حتى لا يتعرض لخسائر أكثر سواء
 في الأمداد أو المعدات ، وكانت خطة البلالى ترمى الى مهاجمة
 مخازن ومستودعات الزبير التي يحتفظ فيها بأسلحته ولخبرته
 ومؤنه حتى يمكن له احداث أكبر خسائر ممكنة بها دون أن يتعرض
 له الزبير ، حينئذ يمكنه اجبار الزبير على الاستسلام اذا ما فكر
 في مناجمته لأنه لن يكون لديه من المؤن أو الأسلحة والذخائر ما
 يكفي لصبوده امام البلالى كثيرا . وطبقا لهذه الخطة عهد البلالى
 لاحد تجار الرقيق وهو جلاوى بمهاجمة مخزن من مخازن الزبير

كان قد تركه في حراسية مشسرين رجلا ، وكان الهدف من ذلك هو العمل على شغل الزبير ويثما يتم البلالي هجومه الرئيسي على عاصمة الزبير بعد احراقها ، الا ان هذا الحرس على قلعه استطاع ان يصد هذا الهجوم ، ونجحت الخطة لما علم الزبير نبأ هذا الهجوم على مخزنه ومصرع ابن عمه عبد الله بن الزبير ، حتى اسرع بالتوجه على رأس مائة رجل الى هناك لتأديب جلاوى ، وما كاد الزبير يعيد الامور الى نصابها ويؤمن مخزنه ، حتى بلغه من طريق عيونه ورجاله ان البلالي يستعد لهجمة عاصمته منتهزا فرصة انشغاله في الهجوم الذي شنته جلاوى فاسرع الزبير على رأس قوة من جيشه الى عاصمته فرأى النار مشتعلة فيها والحرائق التي نجح رجال البلالي في اشعلها هنا وهناك تلتهم كل مخازنه وتأتى عليها ، وعلى الرغم من ان الحرائق ملأت المدينة كلها فانها لم تصل الى مخازن السلاح والذخيرة ، التي كانت موجودة تحت سطح الارض (٥٩) ونجت بذلك من الحريق وبقيت كما هي ، ولو كان قد توصل الى علم البلالي وجودها في هذا المكان ، لكانت النتيجة قد تعيرت لصالحه وقد دلت هذه العملية التي تشبه عمليات قوات الكوماندوز في الجيوش الحديثة على مدى ضعف المعلومات التي استقاما او جمعها جواسيس البلالي من عاصمة الزبير ، فكانت هذه بمثابة ضربة قاصمة للخطة التي رسمها البلالي للتضاء على الزبير وشل قاعدته معنويا .

استطاع الزبير بعدما رأى الحرائق التي اشعلها رجال البلالي في المدينة ، والهجوم الذي قام به جلاوى على احسد مخازنه ، ان يحرى تفاصيل الخطة التي رسمها البلالي التي كانت تهدف الى مهاجمة المدينة بقواته بعد ان تكون الحرائق قد آتت على جميع ما بها من مخازن وقلاع لا تستطيع قوات الزبير

ولا أى قوات أخرى الاحتباء فيها أو المدافعة عنها ، ولكن الزبير وحده العزم على الانتقام لما أصابه على يد البلالى ورجاله ، ورغم قلة قواته التى لم تكن تتجاوز الثلاثمائة رجل ، فإنه لم يستسلم لليأس والتشاؤم ، بل أسرع فى تقسيم قواته الى خمسة أقسام بثها فى كل جانب من المدينة حتى يتخذ العدو بقواته ، وقد دلت هذه الأفكار على أن الزبير كان يتمتع بفكر عسكري متقدم اكتسبه بخبرته الطويلة فى المعارك والحروب التى مرت به دون دراسة .

أرسل الزبير عيونه يستطلعون له الأخبار ، فعادوا وأخبروه بأن البلالى قد قرر مهاجمته خلال ساعات الفجر مستغترا فى الظلام ، وفى مساء ذلك اليوم ظهرت قوات البلالى التى قدر الزبير عددها من وثيقة وتمت فى يده بحوالى أربعة آلاف رجل مزودين بالعتاد والذخيرة تحت قيادته ، حيث قد وقع الرعب فى قلوب رجال الزبير ، وساءه أن يحدث هذا لرجاله . فى وقت اقرب منه فيه المعركة ، فتنشط للمرور عليهم فى مراكزهم وتشجيعهم ، وتقوية عزائمهم للقتال ، ثم أمر بإعدام ما تبقى لديه من العساج خشية أن يضع خنيفة فى يد البلالى ، وكان يقدر بحوالى ستة قناطير . والحقيقة أن الزبير نفسه كان متخوفا من هذه المعركة نظرا لعدم تساوى القوتين سواء من حيث العدد أو التسليح ، خشى الزبير على مصير رجاله ، وكيف فكر البلالى فى مهاجمته رغم أن الأوامر الصادرة له من جعفر باشا مظهر واضسحة ومحددة . بعد أن وصلتته النجدة الأخيرة . وتلقى بمهاجمة تجار الرقيق فقط ، وقام الزبير بتقديم كل مساعدة ممكنة له لتنفيذ ما أمر به ، وبهذا يكون البلالى هو المخالف لأوامر الحكومة . ولو أن رجال الزبير كانوا ينظرون الى البلالى بعد وصول النجدة اليه على أنه الممثل الفعلى للحكومة ، التى لم يكتفوا يرغبون

في تحديها أو التمرد عليها حتى لا يتهموا بالمعصيان أو الثورة على قوات الخديو واستقر رأي الزبير على تسليم نفسه ، ثم سار بعد ذلك في اتجاه قوات البلالي لتفقيذ ما عزم عليه ، ولكنه ما كاد يقترب حتى وجد نفسه أمام ميمنة قواته ، وبمجرد أن راوه ظفوا أنه قد أتى لمهاجمتهم ، فاطلقوا الرصاص عليه . فأسرع رجاله لتجذته من كل مكان ، وهاجم موسى ود الحاجي أحد قواد الزبير جيش البلالي فحلب الذعر في صفوفه ، وسمعت الفوضى ، وفقد البلالي كل سيطرة على قواته ، لأن أوامره لم تصل اليهم . وبعد أن أيقن من هزيمته فر هاربا إلى دارمونيو ، وفي اليوم التالي اتبل حامد ابن عم الزبير على رأس ثمانمائة رجل ، وبعده أقبيل رابع وكان في مهمة فأرسله الزبير في أثر البلالي ، فادركه مند ديم جوجو بالقرب من دارمونيو وهناك دارت معركة بين الاثنين انتهت بمسرع البلالي والتخلص منه نهائيا ، وبذا طويت صفحة البلالي في بحر الغزال إلى الأبد (٦٠) .

وبهذا الانتصار الذي حققه الزبير على حملة البلالي ، أكد دون تردد أنه الرجل الأول بمنطقة بحر الغزال الذي له السيطرة الإدارية والعسكرية ، كما عكس مقتل البلالي وهزيمة الحملة اثره السيئ في دوائر الحكومة بكل من القاهرة والخرطوم نتيجة ما يأتي :

أولا : فشل الحملة في تحقيق الاهداف التي أرسلت من أجلها برغم الاهتمام الواضح الذي أولته الحكومة في امدادها وتجهيزها من حيث العدد والسلاح والذخائر .

ثانيا : فشل قادة الحملة في توجيهها الفوجيه المسند الذي يحقق اعدائها التي ترمي أساسا الى تأكيد سلطة الحكومة وسيطرتها السياسية والإدارية والعسكرية في هذه المنطقة نتيجة

سيطرة روح العداء والحناء بين البلالى وكهوك على أفا واختلاف
الرأى وعدم الانسجام الكامل بينهما .

ثالثا : حرص البلالى على تحقيق مصالحه الذاتية ، التى
كانت هدفا من أهداف الحملة ، وهى العمل على الاستيلاء على
الأراضى التى أدهى ملكيتها فى المنطقة المسماة بحفرة النحاس
جنوبى دارفور واستغلالها لصالحه دون الاهتمام بتحقيق الأهداف
الجوهرية للحملة .

رابعا : أكدت هذه الهزيمة سيطرة الزبير العسكرية والإدارية
على هذه المنطقة ، وأنه الرجل الذى يجب أن تخرس الحكومة على
اكتساب تأييده لها واستشارته فيما يجب أن تفعله مستقبلا حتى
لا تتعرض مصالحها للانهيار فى هذه المنطقة .

التحقيق فى مقتل البلسالى :

وصلت أبناء انتصار جيش الزبير ، ومقتل البلسالى ، وهزيمة
جيشه إلى حاكم دار السودان بالخرطوم فأسرع إلى مكان الحادث
معاونين الحكمدارية ، ومعه بلوك من العساكر لإجراء التحقيق
فى أمر مقتل البلسالى وعصيان الزبير ، وعندما وصل إلى منطقة
بحر الغزال كان الثجار هم سادة الموقف ، فقام بما تدب من أجه
من تحقيقات وأرسل تحرياته إلى الخرطوم (٦١) .

وفى الوقت الذى أبلغت فيه الخرطوم بنتائج المعارك الفاشية
بين الزبير والبلسالى ، بعث الزبير نبأ انتصاره على البلسالى إلى
الحكمدار شارحا تفاصيل ما دار بينه وبين هذا الرجل مبينا تعديه
ومحاربه له دون وجه حق ، وكان الحكمدار قد سبق أن نصح
الحكومة المصرية بضرورة عدم اظهار العداء للزبير الذى شاع

خبر انتصاره في ارجاء السودان كلها ما أدى الى زيادة عدد اتباعه وبالتالي زيادة عدد جيشه حتى أنه بلغ في نهاية سنة ١٢٨٩ هـ الموافق سنة ١٨٧٢ م اثني عشر ألف رجل ، وأصبح إقليم بحر الغزال كله يدين له بالولاء (٦٢) .

وصلت التحقيقات التي أجراها معاون الى الخرطوم (٦٣) وقد ورد للمعية من أمم باشا (٦٤) القائم بعمل مدير عموم قبلى السودان في السابع عشر من جمادى الآخر سنة ١٢٨٩ هـ الموافق عشرين من أغسطس سنة ١٨٧٢ م بطلب التنبية الى مديرية كردفان بإرسال عسكري ، ونخيرة ، ومدافع الى مشارع الزبير لضبطه بما معه في مشارعه ، وإرساله لأجل التحقيق معه فيما نسب إليه لأن المسافة من الخرطوم بعيدة كإشارة مدير عموم قبلى السودان في كتابه والى المعية السنية بتاريخ الخامس والعشرين سنة ١٢٨٩ هـ الموافق ٢٥ أكتوبر سنة ١٨٧٢ م الذى شرح فيه تفصيلا قصة البلالى منذ توجيئه الى بحر الغزال حتى مصرعه على يد جيش الزبير ، كما أشاد بقوة الزبير العسكرية ونفوذه الواسع في منطقة بحر الغزال ، وأوضح كذلك مدى الشعب والمشكلات التى سوف يتحملها الجنود اذا ما أرسلوا للقبض على الزبير هذا قبر ما يحتاجون اليه من المصاريف ، فضلا عما يترتب على ذهابهم الى خراب هذه المناطق نتيجة المعارك التى قد تنشب بينهم وبين قوات الزبير ، وقد أوصى المدير أخيرا بالكتابة للزبير للحضور للخرطوم للنظر في أسباب حدوث تلك الواقعة والتحقيق معه في ذلك (٦٥) وقد كان هذا الخطاب بمثابة وثيقة تشرح تفصيلا ما حدث منذ مجيء البلالى وحملته حتى مصرعه .

وجد الزبير ان هذه التحقيقات اذا ما سسارت في طريقها الرسمي فسوف تعدد الحكومة نائرا ، ولا تستطيع ان تدرك الظروف التى تحت ضفتها دافع عن نفسه وأمواله ، فرأى ان يوسط

« حسنين بك خليفة العيادى » مدير بربر ودنقلة آنذاك لدى الحكومة ، فشرح له الحالة شرحا وافيا ، وأظهر الخطسوس والامثال لسلطان الحكومة ، مما كان الزبير يريد أن تنسب اليه الثورة أو العصيان (٦٦) .

ونتيجة هذه الوساطة ، رأى الخديو أن يعفو عنه ، وأصدر أوامره الى مدير قبلى السودان باعطاء الزبير الأمان ، اذا ما حضر للخرطوم ، ولادامى لحضوره مصر (٦٧) وذلك بتاريخ السابع والعشرين من رمضان سنة ١٢٨٩ هـ الموافق الثامن والعشرين من نوفمبر سنة ١٨٧٢ م .

وفى نفس الوقت وصلت برقية من خيرى باشا (٦٨) مهردار الخديو الى مدير عموم قبلى السودان بتاريخ السابع والعشرين من رمضان سنة ١٢٨٩ هـ الموافق الثامن والعشرين من نوفمبر ١٨٧٢ م يبلغه فيها بالموافقة على ما جاء فى برقيته الى المعية بتاريخ الخامس والعشرين من شعبان سنة ١٢٨٩ هـ الموافق الخامس والعشرين من أكتوبر سنة ١٨٧٢ م فيها يتعلق بمأمورية بحر الغزال (٦٩) .

أطمان الزبير الى جسائب الحكومة بخصوص مسئولية عن مصرع البلالى ، الا انه حتى هذه اللحظة لم يضمن جانب اقارب البلالى نفسه ، ففى السابع عشر من ربيع أول سنة ١٢٩٠ هـ الموافق السادس عشر من سنة ١٨٧٣ م أبلغت المعية السنوية مديرية عموم قبلى السودان بان جماعة من اقارب البلالى قد حضروا الى مصر للشكوى فى مقتل البلالى ، وأنه بعد عرض الموضوع تم ابلاغهم بانتهاء التحقيق فيه وأنه لم تكن هناك أى مسئولية على شخص معين لذلك فلادامى لوجودهم بمصر بل العودة الى بلادهم (٧٠) .

لم يكتفى الخديو بالعفو عن الزبير بل رأى فيه الرجل القوي الملم بأحوال وشئون منطقة بحر الغزال ، وأنه يمكن للحكومة أن تستعين به في توطيد سسلطاتها وسيطرتها المزعزعة في هذه المنطقة ، ولذلك صدرت الأوامر من القاهرة لاسماعيل باشا أيوب حاكم دار السودان بتشكيل مديرية بحر الغزال ، وتعيين الزبير مديرا عليها وبحث أمور هذه المديرية الجديدة وما يلزمها من المستخدمين من الجنود والموظفين مع الزبير لحين حضوره إلى الخرطوم وقد أرسل الحاكم هذه التعليمات إلى الزبير مع رسول خاص بطريق كردفان - دارفور ، ولكن الرسول تأخر في الطريق لأن عربان الرزيقات تصدوا له أثناء توجهه إلى الزبير ، وفي هذه الأثناء كان الزبير قد صمم على الذهاب بنفسه إلى الخرطوم ، لإعلان ولائه وإخلاصه حسب ما اتفق عليه مع الحكومة ، فسير قبل قيامه بعض مراكبه تحمل السن والريش وغيرها ريثما يتم استعدادها هو للسفر . وقبل أن يغادر مقره علم أن عربان الرزيقات (٧١) قد أغاروا على حدود منطقة نفوذه ، وقطعوا الطريق الذي بينه وبين دارفور ، فرأى أن يقوم بتأديبهم أولا ، ثم يواصل سيره شمالا إلى كردفان ومنها إلى الخرطوم ، إلا أن الأمور سارت على غير ما أراد ، بل قادت إلى حرب الرزيقات (٧٢) .

وفي غرة رجب سنة ١٢٩٠ هـ الموافق الخامس والعشرين من أغسطس سنة ١٨٧٣ م بعث مدير عموم قبلى السودان بمكاتبة إلى المعية السنية أوضح فيها تعذر حضور الزبير للخرطوم لبحث مسألة تنصيبه على مديرية بحر الغزال إذا وافق على شروط الحكومة ، وبحث مسألة المبالغ التي صرفها على العساكر الطوبجية جهة بحر الغزال بسبب قطع عربان الرزيقات الطريق عليه وقيامهم بارتكاب الحوادث وبعض الأمور غير اللائقة (٧٣) .

أرسل الزبير مندوبا عنه الى الخرطوم يحمل بعض الهدايا ومبلغ ثلاثة آلاف جنيه الى مدير عموم قنلى السودان على سبيل الهدية ، وعندما وصلت هذه الهدايا والمبلغ المذكور مع الرسول الى الخرطوم قام الحكمدار بإبلاغ القاهرة بما أرسسسته الزبير يستفسرها عن كيفية التصرف ، فجاءه رد القاهرة بأعادة الهدايا والمبلغ المذكور الى الزبير وشكره باسم الجنتاب العالى الخديو ورضاه عنه وبإبلاغه باستغلال هذا المبلغ فى انشاء مكتبة ومسجد باسمه فى منطقة بحر الغزال كى يستفيد منها الناس هناك (٧٤) .

قيام الزبير بتنظيم أمور مديرية بحر الغزال :

بدأ الخديو يغير من طريقة معاملته للزبير فترك سياسة العنف التى تمثلت فى حملة البلالى التى سبق الإشارة اليها . وبدأ يسلك فى معاملته سياسة اللين والدهاء ، فعفا عنه وعينه مديرا على بحر الغزال ، فشرع الزبير فى اعادة تنظيم الأمور للمديرية الجديدة ، وبحث وسائل العمل على تمدينها وتأسيسها ، ولم يلبث ان وفد عليه الناس من جميع جهات المديرية يطلبون الانتظام فى جيشه أوالاتجار فى بلاده . فكان لهم ما أرادوا . وساد البلاد الهدوء والسكينة (٧٥) .

راى الزبير انه لا ضرورة للابقاء على هذه القوة الكبيرة من جيشه متجمعة فى مكان واحد ، بل انه فى سبيل نشر السلام والامن فى روع وانحاء البلاد لابد من العمل على توزيعها فى انحاء الاقليم فأبقى على ثمانية آلاف رجل فى « سايونجا - Sabunga » بينما قام بتوزيع باقى الجيش على بقية المناطق ، فى مجموعات يتراوح عددها ما بين خمسين ، ومائة ، ومائة وخمسين رجلا ، فوضع مجموعات منهم فى باية (٧٦) Baia - وبونت ... Bunet وأبودنجا (٧٧) - Abu Dinga

وقد أحاط الزبير نفسه ببلاط لا يقل في روعته عن بلاط الملوك، وكان سكنه الخاص يتألف من عدة أبنية ضخمة مربعة الشكل متينة البناء يحيطها سور مرتفع ويقف على أبوابها الحراس على تمام الابهة ليلا ونهارا ، وكانت هناك حجرات خاصة مزودة بأغلى الطنافس والرياش ، معدة لاستقبال ضيوف الزبير يقودهم اليها عبيده وغلبنه وقد أرتدوا أبهى الحلل ، وخلف ستار ضخم في إحدى الحجرات الداخلية كان يوجد عرش الزبير حيث يجلس وقد حفر به عدد من الاتعاع على استعداد لتلبية اشارته في أى وقت بينما يجلس جماعة من الفقهاء على ديوان خارج الستار (٧٧) .

دور الزبير في فتح شككا (٧٨) وتأديب عرب الرزيقات :

بعد ان تم للزبير الانتصار على ملوك وسلاطين بلاد النيام « وما جاورها وخضوع تلك البلاد حتى بحر العرب لحكمه ، واتخاذها باية التي عرفت فيما بعد باسم ديم الزبير عاصمة له ساد السلام والأمن في البلاد ، وبدأ يتجه الى الاهتمام بشئون التجارة بالاقليم ، التي كانت قد توقفت حركتها بسبب الحروب المتوالية التي خاضها . واتجه اهتمامه في هذه الفترة الى فتح طريق جديد للتجارة بدلا من طريق النيل . الذي كانت الرحلة فيه تعترضها الكثير من الصعاب ، كان الطريق الجديد الذي سعى الزبير الى فتحه هو الطريق البرى الواصل بين بحر الفراء وكرنفان والمار ببلاد شككا موطن عرب الرزيقات ، وكان لهذا أهمية كبيرة نظرا لبعد طريق النيل وكثرة أخطاره ومشاقه ففي مارس سنة ١٨٦٦ م الموافق شوال سنة ١٢٨٢ هـ بدأ الزبير في الاتصال بمشايخ عرب الرزيقات المقيمين على طريق التجارة ، وذلك من أجل عقد معاهدة معهم لفتح هذا الطريق وحمايته حتى تستطيع قوافل التجارة ان تعبر في أمان ، وذلك في مقابل رسوم

محدوده يدعمونها الزبير ولعرب الرزيقات ، فأومد الزبير لهم رسلا بالهدايا ، فجاء اليه مشايخهم وأقسموا له على القرآن بالمحافظة على هذه المعاهدة ، ولم يلبث هذا الطريق لقصره وسهولته وأمنه أن جذب اليه العديد من قوافل التجارة من كل مكان حاملين معهم الكثير من المضاع التي تروج في المناطق التي خضعت لحكم الزبير ، ماردهرت التجارة في البلاد وانتعشت الاسواق وتجمع الناس حول الزبير . وظلت هذه المعاهدة سارية المفعول بين مشايخ عرب الرزيقات والزبير لمدة طويلة . الى أن نقضوا هذه المعاهدة بعد انتصاره على البلالى ، وفي أثناء حربه مع الملك « تكه » وهى الحرب الثانية . قطعوا الطريق وقتلوا بعض التجار فأرسل لهم الزبير رسلا يسألهم تفسيراً لما حدث ، ولكنهم لم يجيبوا بشيء عليه سوى السياب والثقتهم ، وأقسموا الا يدعوا مسافرا واحدا يمر الى بلاده عن طريق بلادهم الا قتلوه وسلبوه أمواله (٧٩) .

وإمعنا في حديثهم قطعوا الطريق على رسول حكومة الخرطوم ، الذى أوفدته الى الزبير حاملا معه التعليمات الجديدة الخاصة بتشكيل مديرية بحر الغزال ، وتميينه هو مديرا عليها . فى هذا الوقت كان الزبير نفسه يستعد للسفر للخرطوم لتقديم ولائه للحكومة ، الا أنه علم قبل أن يخاطر مقره أن عرب الرزيقات أغاروا على حدود منطقة نفوذه وقطعوا الطريق ما سنه وسين دارفور حينئذ رأى الزبير أن من الصواب أن يقوم بتأديبهم أولا ثم يكمل مسيرته الى كردفان ومنها الى الخرطوم (٨٠) .

وقد تعمد عرب الرزيقات نقض معاهدتهم مع الزبير عقب انتصاره على البلالى وفي أثناء حربه الثانية مع الملك « تكه » للأسباب الآتية :

أولاً : كان معنى انتصار الزبير على حملة البلالى هو تأكيداً لسيطرته ونفوذه السياسى والإدارى على منطقة بحر الغزال دون غيره وهو الشيء الذى لم يكن عرب الرزيقات يستحسنونه مخافة أن تمتد سيطرته على بلادهم .

ثانياً : أنه فى سيطرة الزبير السياسية والإدارية على منطقة بحر الغزال وأماكن سيطرته على جميع النشاط التجارى والاقتصادية الواردة أو الصادرة للأقليم ، فى ذلك تقليم لنشاطهم ونفوذهم التجارى فى هذه المنطقة التى كان لهم تعاملاتهم التجارية معها منذ مدة طويلة .

ثالثاً : رأى عرب الرزيقات أن نصيبهم من الضرائب المفروضة على قوافل التجارة والتجار طبقاً للمعاهدة التى عقدها مع الزبير لم تعد مناسبة نظراً لزيادة عدد هذه القوافل نتيجة الاستقرار والهدوء الذى ساد منطقة بحر الغزال وما جاورها ، فكان هدفهم هو الاتفراد بالسيطرة على طرق التجارة بنقض المعاهدة .

رابعاً : كان القويتم الذى اختاروه لنقض المعاهدة فيه حرج لوقت الزبير وخاصة أنه كان فى حرب مع الملك تكمه ، فكانوا يريدون له الهزيمة حتى لا تتسع مناطق سيطرته ونفوذه السياسى والتجارى على حساب مصالحهم التجارية فى هذه المناطق .

خامساً : كان من المؤكد أنهم يريدون الوقعة بين الزبير وسلطان دارفور لكي يتخلصوا من الزبير إذا ما فكر فى غزو بلادهم التى كان السلطان يعتبرها جزءاً من مملكة دارفور .

رأى الزبير أن يستعين بالسلطان ابراهيم سلطان دارفور فى تأديب هؤلاء العرب حتى يثوبوا الى رشدهم ، فأرسل إلى

السلطان خطابا في أول جمادى الأولى سنة ١٢٩٠ هـ الموافق السابع والعشرين من يوليو سنة ١٨٧٣ يخبره فيهم بنقضهم للمعاهدة التي عقدها معهم ، وقيامهم بقطع الطريق على قوافل التجارة لبعض التجار وطلب منه إمداده بسرية من جيشه كي يستعين بها في تأديب هؤلاء العرب أو أن يتحمل مصاريف الحملة الذي بعدها هو لتأديب هؤلاء العرب ، وقد خاطب الزبير السلطان قبل أن يفعل أي شيء لسببين هما :

أولا : حرص الزبير على مشاعر السلطان الذي كان يعتبر بلاد الرزيقات جزءا من مملكته .

وثانيهما : تعريف السلطان بالدور الذي يجب أن يؤديه تجاه هؤلاء العرب بتأديبهم أو تقديم المعونة لمن يستطيع ذلك ، لأن الزبير كان يخشى أن يقوم بتأديب هؤلاء العرب دون علم السلطان ، فيعتبر ذلك السلطان تحديا وتعديا على سلطته (٨١) .

ولكن السلطان لم يجب على هذا الخطاب ، فلم يلبث الزبير أن وجه خطابا آخر للسلطان في غرة جمادى الآخر سنة ١٢٩٥ هـ الموافق السادس والعشرين من يوليو سنة ١٨٧٣ م مذكرا أياه بأنه ليس له اطماع شخصية في هذه البلاد وإنما الهدف من ذلك تأمين حياة الأهلين فيها بما يوفر لهم القيام بنشاطهم التجاري ، وتوفير جو السلام هناك بالقضاء على الخارجين وقطاع الطرق من مرب الرزيقات ومن على شاكلتهم ، ويكرر طلبه الأول بخصوص إمداده بالمساعدات العسكرية اللازمة من جنود وأسلحة وفخائر للاستعانة بها في تأديب هؤلاء العرب . وقد حمل الزبير السلطان مسؤولية ما يسفك من دماء المسلمين على يد مرب الرزيقات ، إذا لم يؤد واجبه نحو قتالهم والقضاء على صلفهم وفسادهم وتوفير جو الأمن والسلام في هذه البقاع (٨٢) .

وينبغي ألا تفصل بين تمرد عرب الرزيقات على الزبير ،
وضرورة تدخل السلطان إبراهيم للقضاء على هذا التمرد أو الأعمال
الإجرامية التي كانوا يقومون بها فسد التجار والتجارة وذلك
للسباب الآتية:

أولاً : كان السلطان يعتبر بلاد الرزيقات (شكا) جزءاً من
سلطنة دارفور وإن لم تكن تحت حكمه أو سلطته وإن كان التاريخ
قد شهد فترات انضمام وانفصال لهذه البلاد مع سلطنة دارفور ،
لذلك فقد اعتبر الزبير السلطان مسئولاً عن كبح جماح هؤلاء العرب
وكسر شوكتهم .

ثانياً : كان الزبير يريد من قيام السلطان بتأديب هؤلاء العرب
اختبار مدى صلة أو عدم صلة السلطان بهذه الأعمال التي
يقوم بها عرب الرزيقات وقد ثبت للزبير مدى الكراهية التي يكنها
السلطان له وصلته بهذه الأعمال عندما وجه إليه أكثر من خطاب
ولم يجيب السلطان عليها .

ثالثاً : كان الزبير يريد من وراء مطالبة السلطان بتأديب هؤلاء
العرب أو تقديم ما يمكنه من مساعدات لتأديبهم ، وقطع خط
الرجمة عليهم حتى لا يتحالفوا مع السلطان ضده كذلك ، فقد رأى
الزبير أن المصالح التجارية لمديرية بحر العزال وسلطنة دارفور
مصلحة مشتركة ينبغي أن يعمل هو والسلطان معاً كيد واحدة
للقضاء على الأخطار التي تحدق بهما .

اندلاع الحرب بين الزبير وعرب الرزيقات :

أخذ الزبير في استكمال استعداداته الحربية تمهيداً لغزو
بلاد الرزيقات ، تجهز ما يقرب من أربعة آلاف رجل وتقدم شمالاً
قاصداً شكا مقر عرب الرزيقات . وكان مقرراً أن تقطع الحملة

هذه المسألة في خمسة عشر يوما ، ولكن نظرا لطول الاطوار ، فقد أدى ذلك إلى ابطاء سير الحملة ، فاستغرقت أربعين يوما حتى وصلت جنوبى شكا بعد أن استغرقت معظم مؤننها ، ومات من رجال الزبير مالا يقل عن الستمائة رجل ، عندما اقتربت قوات الزبير من مرب الرزيقات شنوا عليهم هجوما بقوات كثيرة العدد (٨٣) .

ورغم تفوق الزبير في العدد ، فإن تقدمهم كان بطيئا . وذلك لأن عرب الرزيقات كانوا يستعملون الخيل في قتالهم ، ولم يكن رجال الزبير قد اعتادوا هذا النوع من الحرب السريعة الخاطفة واستمرت المعارك بين الجانبين ابتداء من العاشر من يوليو حتى الثامن والعشرين من أغسطس سنة ١٨٧٢ م وهو اليوم الذى استطاعت فيه قوات الزبير أن تضع حدا لهذا الصراع بانزال الهزيمة الساحقة بعرب الرزيقات . وقد ساعدهم في ذلك طبيعة بلادهم التى كانت تخلو من الانهار ، مما يضسسطرهم إلى اللجوء إلى بحر الغزال طلبا للماء ، وعندما فطن الزبير إلى هذا الأمر ، أى أن يكمن لهم قواته عند شاطئ هذا النهر وأخذهم على غرة بعد أن أعياهم قتالهم ، وتمكن الزبير بذلك من انزال الهزيمة بهم وقتل الكثير منهم ، والاستيلاء على الكثير من الغنائم من سلاح وذخائر ومؤن ، والواقع أن جيش الزبير لم يستطع التغلب على عرب الرزيقات ، إلا بعد أن بلغت خسائره أكثر من سبعمائة رجل بسبب مهارتهم في استخدام الجياد السريعة وفنون الحرب ، بالاضافة إلى تمردهم الانتفاض على قوات الزبير وهاجمتها على حين غرة من جهة لا يتوقعون أن يهاجمهم منها . وهكذا كان الأمر منذ بداية الحرب إلى أن استطاع الزبير الانتصار عليهم ودخول بلادهم وادخالهم تحت طامته وحكمه (٨٤) .

بعد هزيمة عرب الرزيقات ودخول الزبير شكاً في غرة رجب سنة ١٢٩٠ هـ الموافق الخامس والعشرين من أغسطس سنة ١٨٧٣ م ، مر عدد من مشايخهم والتجأوا الى السلطان ابراهيم سلطان دارفور . بثوا له شكواهم عن احتلال الزبير وجيشه لبلادهم وعاهدوه على الخضوع له ، بعد أن كانت بلادهم مستقلة عن دارفور منذ ثلاثين عاماً فرحب السلطان بهذا الذي رد الى مملكته ما فقدته منذ مدة ، وكأمر طبيعي أن يحى السلطان جارا التجأ اليه ، واحتفى به (٨٥) .

أبرق الزبير في الثامن والعشرين من شعبان سنة ١٢٩٠ هـ الموافق الحادي والعشرين من أكتوبر سنة ١٨٧٣ م غداة انتصاره على عرب الرزيقات الى مدير عموم قبلى السودان يششرح له تفاصيل المعارك التى دارت بينه وبين عرب الرزيقات ونبا انتصاره عليهم ويطلب منه ارسال اورطين عساكر واوردى باشا سبوزق للاتمام بهركز شكاً على أن يرسل بدلا منهم أربع اورطات من العساكر المستجدين . وقد صدق يوزباشى لبلوك ووكيل الاوردى الباشا سبوزق على ما رواه الزبير ، للمحافظة على الأمن بها ، وقد قام الحكمدار في غاية شجاعة سنة ١٢٩٠ هـ الموافق الثانى والعشرين من أكتوبر سنة ١٨٧٣ م بعرض ما فكر على خيرى باشا مقترحاً ضرورة التأكيد من صدق رواية الزبير قبل ارساله للنجدة التى طلبها . كما اوضح الحكمدار انه أمر الزبير بالابقاء على العساكر ومن معهم بجهة مؤمنة وتنصيب وكيل على جهة شكاً من طرفه ممن يراه صالحاً لذلك (٨٦) .

وفي الثانى من رمضان سنة ١٢٩٠ هـ الموافق الرابع والعشرين من أكتوبر سنة ١٨٧٣ م أبلغ خيرى باشا مدير عموم قبلى السودان بالموافقة على مطالب الزبير وارسال اورطة عساكر

جهادية وأوردى باشبوزق وندفعين وتخليغه ممنونية الحضرة
الخدوية والآنعام عليه برتبة قائمقام (٨٧) مكانة له مع البقاء بجهة
شكا لقمع العصاه والعمل على تأمين تلك الجهات ثم الحضور
للخرطوم بعد تلك المداولة في أمر تلك الجهات (٨٨) .

وقد وجد الحكمدار بعض الصعوبة في توفير ما يحتاج اليه
الزبير من العساكر والمدافع رغم موافقة الحضرة الخديوية من
الخرطوم ، فأرسل الى خيرى باشا في الرابع من رمضان سنة
١٢٩٠ هـ الموافق السادس والعشرين من أكتوبر سنة ١٨٧٣ م
يقترح ارسال القوة المطلوبة من مديرية كردفان وذلك لقرتها من
شكا وتوافر أدوات ووسائل ترحيل العساكر بها او الانتظار ريثما
يحضر الزبير الى الخرطوم للمداولة معه في أمر هذه العساكر
وتسليمها له (٨٩) ، فجاءت الموافقة على اقتراحات الحكمدار في
السادس من رمضان سنة ١٢٩٠ هـ الموافق الثامن والعشرين من
أكتوبر سنة ١٨٧٣ م (٩٠) .

وفي الثامن من شوال سنة ١٢٩٠ هـ الموافق الثلاثين من
نوفمبر سنة ١٨٧٣ م أبرق خيرى باشا الى مدير عموم السودان
يطلب منه تعسيفه باسماء اصحاب المشـاعـار ببحر
الغزال الذين لم يقدموا المساعدة للزبير في حربه ضد عرب
الزبيقات . وذلك تسهيدا لتكليف الزبير بطردهم من هذه المناطق
بعد حضوره للخرطوم (٩١) . وفي العاشر من شوال سنة ١٢٩٠ هـ
الموافق الثاني من ديسمبر سنة ١٨٧٣ م أبرق مدير عموم قلى
السودان لخيرى باشا موضحا له اسماء اصحاب المشـاعـار
الذين لم يقدموا بمساعدتهم للزبير اثناء حربه مع الزبيقات (٩٢) .

وكان خيرى باشا قبل ان يصله هذا الخطاب الاخير قد ابرق لمدير عموم قبلى السودان فى الثامن من شوال سنة ١٢٩٠ هـ الموافق الثلاثين من نوفمبر سنة ١٨٧٢ م بتعليمات تقضى بضرورة اجابة الزبير لجميع مطالبه ومحاولة استيفائه بكل الطرق ، وتشويقه وترغيبه من جهة الحكومة عند حضوره للخرطوم للتشاور والتباحث بشأن المناطق الجديدة (٩٣) .

وعلى الثانى من ذى القعدة سنة ١٢٩٠ هـ الموافق الثالث والعشرين من ديسمبر سنة ١٨٧٢ م ابرق خيرى باشا الى حاكم السودان يؤكد له ما سبق بخصوص استعمال الحزم والاحتياط باجراء كافة الوسائل والوسايط اللازمة لاستيفاء الزبير لجانب الحكومة وتجنب ما يغيره من جهتها والاحسان عليه برتبة الغائب مقام وتقليده مديرا على جهة بحر الغزال ، وارسل مقدار من العساكر والجبخانه لاعاقته فى ذلك (٩٤) . وعلى السادس من ذى القعدة سنة ١٢٩٠ هـ الموافق السابع والعشرين من ديسمبر ١٨٧٢ م ابرق حاكم السودان الى خيرى باشا يعلمه بأنه كتب الى مدير مديرية كردفان بارسال أربعة بلوكات جهادية ومائة خيل باشبوزق ، ومدفع بجبخانه كائىة للزبير بجهة شكا هذا بخلاف ما عنده من بلوك جهادية ومدفع ومائة نمر باشبوزق بالاضافة الى ما تحت يده من قوات أخرى ، وأنه سوف يرسل للزبير الفرمان العالى بالترتبة التى منح اياها . كما ان التعليمات اللازمة لادارة المديرية وتنظيمها ارسلت اليه (٩٥) .

الزبير وعبد الله التعايشى :

كان من بين الاسرى الذين وقعوا فى يد الزبير بحلة السروج (٩٧) رجل يدعى عبد الله ود محمد آدم توشين لم يتردد الزبير فى الامر باعدامه اول الامر ، ولكن العلماء المرافقين للزبير

اعترضوا حين أمر الزبير باعدام عبد الله بحجة أن الشرع لا يجيز له قتل أسير من أسرى الحرب ، فضلا عن أن السياسة تفكر دنيـه اعدام رجل يعتقد الناس في صلاحه ويؤدي إلى اعتقاد الناس أن الزبير رجل طاغية . وإمام هذه الأسباب عما عنه الزبير . وعند فتح دار نور طلب عبد الله من الزبير أن يقطعه قطعة من الأرض ، فاقطعه الزبير أياها على أن يكف عما فيه من الدجل والشعوذة ولم يمس سوى القليل حتى بعث للزبير بكتاب وهو في دارا يقول له فيه : « رأيت في الحلم أنك أنت المهدي المنتظر وأنا أحد أتباعك فأخبرني أن كنت مهدي الزمان لاتبعك » فرد عليه الزبير بالرد القائل « استقم كما أمرتك والا عملت السيف في رقبتك أننى لست بالمهدي المنتظر ، وإنما أنا واحد من جنود الله يحارب من طغى وتمرد » ورغم ذلك لم يكف عبد الله عن الدجل والشعوذة حتى اشتهر أمره مع محمد أحمد المهدي في جزيرة آبا (٩٨) .

هذا ما كان من أمر رجل أحترف الشعوذة والاتجار بدين الله وحلمه لينال قوت يومه ، وكاد أن يختفى اسمه من الوجود عندما أمر بإعدامه بعد أن أسره وأودعه السجن في شكا جنوبى دارفور سنة ١٨٧٤ م لولا أن منعه الملباء من ذلك باسم الدين والسياسة (٩٩) .

الزبير والشيخان منزل وعليان :

بعد أن دخل الربير بلاد الرزيخات فاتحا منتصرا في غرة رجب سنة ١٢٩٠ هـ الموافق الخامس والعشرين من أغسطس سنة ١٨٧٣ م مر هذان الشيخان ، والتجأ إلى السلطان إبراهيم في الفاشر عاصمة دارفور للاحتماـ به وكان الشيخ عليان هذا واحدا من عبيد الزبير ، أثرى بعد ذلك ثراء فاحشا بسبب اشتغاله

بالتجارة مع الزبير . وقد عبدا هذان الشيخان الى اثاره ثائرة
من تبقى حيا من مشايخ عرب الرزيقات على الزبير للتمرد عليه
قبل التجائهما للسلطان ابراهيم سلطان دارفور (١٠٠) .

وحين بلغ مسامح الزبير ذلك . ارسل الى السلطان ابراهيم
خطابا في الخامس عشر من رجب سنة ١٢٩٠ هـ الموافق الثامن
من سبتمبر سنة ١٨٧٣ م يشرح له فيه :

اولا : موقف عرب الرزيقات قبل نشوب الحرب بينهم وبينه
وتعمدهم نهب اموال التجار وقتل البعض الآخر ومنعهم من المرور
الى منطقة بحر الغزال ، وعدم استجابتهم للانذارات المختلطة التي
وجهها اليهم الزبير حتى يكتفوا عما يفعلوا بالمسلمين .

ثانيا : تناخر هؤلاء العرب بها يملكون من نرسان وجياد
سريعة واسلحة لا قتل للزبير بها . قبل ان يعول على حريمهم .

ثالثا : تفاصيل المعارك التي دارت بين قواته وعرب الرزيقات
والتي انتهت بهزيمتهم .

رابعا : المعلومات التي وصلتته عن التجاء الشيوخين منزل
وعليان له وتحريضهما له على الدخول في حرب مع الزبير لاستعادة
بلادهم .

خامسا : مدى الخطر الذي سوف يلحق به وببلاده ، اذا
ما اخذ بكلام هذين الشيوخين ودخل في حرب معه فانه بذلك سوف
يقع في حرب مع الدولة المصرية ذات القوة الغالبة والمدد غير
المتقطع وان الهزيمة سوف تلحق به .

سادسا : ضرورة تسليم الشيوخين منزل وعليان له وارسلتهما
تحت حراسة مشددة كي يستطيع ان يستخلص منهما حقوق
المسلمين التي اهدراها .

سابعها : أوضح له في خاتمة الخطاب ما كان من عظيم المودة وحسن العلاقة بين كل من خديو مصر ووالده السلطان حسين ، وطالبه بضرورة استمراره في نفس العلاقة ، وألا يعمل على انسدادها (١٠١) .

وعلى الرغم مما ورد في هذا الخطاب من جملة نصائح وتحذيرات . فإن السلطان إبراهيم ظل حاقدا على الزبير لدخوله بلاد عرب الرزيقات التي كان يعتبرها جزءا من مملكته ، فلم يرد على خطاب الزبير . بل أرسل إلى الشيخ ماديو بن علي (١٠٢) وغيره من مشايخ عرب الرزيقات خطاباتا مشحونا بالسياب والشتم في الزبير يقول لهم فيه : « لا تظنوا أنني أفرك البلاد لهذا الطاغية الجلابي ، وها أنذا أعد الجيوش للزحف عليه وطرده من البلاد بالخزي والخسران » (١٠٣) .

وقد وقع هذا الخطاب في يد الزبير . وبعد اطلاعه عليه أرسل للسلطان خطابا مؤرخ في الواحد والعشرين من رمضان سنة ١٢٩٠ هـ الموافق الثاني عشر من نوفمبر سنة ١٨٧٣ م يطلب منه فيه :

أولا : إبداء الأسباب التي دعت إلى الاكثار من الفاظ الشتم والسباب ضده في خطابه للشيخ ماديو بن علي حيث اتهمه بأنه طاغ وجلابي أي ظالم وتاجر رقيق ، وأوضح له أن دخوله بلاد عرب الرزيقات كان من أجل تأديبهم نتيجة الأعمال التي اقترفوها ضد قوافل التجارة والتجار .

ثانيا : تسليم الشيخين منزل وعثيان ، سببي الفتنة والوقية كما سبق أن طلب ذلك في خطابه السابق .

ثالثا : عدم المخاطرة بدخول حرب ضده والا لمستلحقه الهزيمة .

رابعا : عدم توقع خروجه (أى الزبير) من بلاد الرزيقات بالقوة أو الحرب ، بل أن أراد السلطان ذلك فيكون بالتراضى والادفاق بينه وبين السلطان وجناب الخديو ، على شرط دفع نفقات الحيلة ، فإذا فعل ذلك وأمره الخديو برفع يده عن البلاد .
فحينذاك سوف يخرج منها (١٠٤) .

وقد ذكر عبد الرحمن زكى أن الزبير أراد بهذه الحيلة فى المراسلات السياسية أن يضع السلطان أمام الأمر الواقع ، وأن يتحل عليه بالمطالب فلا يستطيع تنفيذها . حينئذ يجد الزبير سببا فى قتاله وهزو دارفور (١٠٥) .

من المؤكد أن الزبير لم يكن يريد ذلك . بل تمسكى حرب الرزيقات فى أمالهم الاستمرارية واحترامه لسيادة السلطان على الأراضى التى كان يدعى ملكيتها وهى شكا . . . هى التى دفعته الى الكتابة الى السلطان لكى يقوم بتأديبهم أو يقدم ما يمكنه من المساعدة للزبير لكى يقوم بتأديبهم . ولكن السلطان لم يابه بكل هذا ، فكان من الزبير أن قام بهذا العمل منفردا حتى أمكن الأمن والسلام أن يعودا لهذه البلاد . وأن تستمر حركة التجار دون توقف وهى عصب الحياة وشرائها فى هذا الوقت . وقد كان الدافع لقيام الزبير بمراسلة السلطان فى المرة التالية هو الغفنة التى بثها للسلطان كل من الشسيخين منزل وعليان ، والتى كان من نتيجتها وقوع الحرب بين الزبير والسلطان كما سيجىء فى الفصل التالى .

تعيين الزبير حاكما على بحر الغزال وشكا :

(سنة ١٢٩٠ هـ — سنة ١٨٧٢ م) :

اراد الزبير ان يستوثق من معاونة الحكومة له ، وانها لن تسدد له طعنة من الخلف ، وهو يقاوم عرب الرزيقات ، فامرسل الى حاكم السودان الجديد اسماعيل باشا ايوب يبلغه بتفاصيل ما حدث ، ويطلب منه ان يرسل حاكما بقولى حكم البلاد التى فتحها فى بحر الغزال وتخدم دارفور (شكا) بالنيابة عن خديو مصر (١٠٦) وختم رسالته « فاذا ما وصل الحاكم واستلم البلاد عدت انا الى تجارتي تاركا كل ما انشغلت من الاموال فى الفتح هدية لحكومتي السنية ، وانتظرت مكافأتها الادبية حسبيما تقتضيه عدالتها وكرمها » (١٠٧) . وقد قام الحاكم بابلاغ القاهرة برغبة الزبير ، فلم تلبيش الحكومة المصرية ان بعثت الى الحاكم بمرقية على الحادى عشر من محرم سنة ١٢٩١ هـ الموافق السابع والعشرين من فبراير سنة ١٨٧٤ م تمنح فيها الزبير الرتبة الثانية مع لقب بك مع التوصية بابلاغه هذه الرتبة واعتباره بها اعتبارا من تاريخ صدورها (١٠٨) . وقام الحاكم بابلاغه بما جاء بمرقية الحكومة بعد توجيه شكر جناب الخديو له على حسن ولائه ورفيقته فى وضع البلاد التى فتحها بين يديه ليولى عليها من يشاء . ماتحا اياه الرتبة الثانية مع لقب بك ويتولى امر مديرية بحر الغزال وشكا نظير جزية يدفعها لخزانة الحكومة المصرية قدرها ١٠٠٠٠ جنية سنويا . فقبل الزبير دفع هذه الجزية وتولى امر البلاد رسميا وشرعيا ، وشرع فى تنظيمها وعمارتها والعمل على اشاعة العدل بها يتناسب مع مهمة الحكم المصرى فى هذه البقاع ، ولكن السلطان ابراهيم لم يطلق صبورا على بقائه فى شكا فلم يلبث ان اصدر اوامره الى احمد شمسطة قائده فى دارا التى تقع على الحدود الجنوبية لملكته ، وسعد النور قائده فى الشرق . فاخذا

في حشد الجيوش واعداد العدة لأخراج الزبير من شكا . ولكن
حركات هذين القائدين لم تنب عن عيـون رجـال الزبير
فكان رجاله يبلغونه أولا بأول بهذه التحركات ، فيقوم بإبلاغها
بالتالى الى الحكمدار في الخرطوم ، فيرفعها الى الخديو اسماعيل
في القاهرة (١٠٩) .

ومما يذكر ان حكمدار السودان كان قد بعث الى خيرى باشا
ببرقية في السادس من ذى القعدة سنة ١٢٩٠ هـ الموافق السابع
والعشرين من ديسمبر سنة ١٨٧٣ م يستأذنه في الكتابة الى
سلطان دارفور لتبليغه بأن الزبير قد صار تعيينه بصفة رسمية
مديرا على جهات بحر الغزال وبحر العرب والقبائل التابعة لها
حتى لا يظن السلطان بأن الزبير يقيم بجهة شكا من تلقاء نفسه ،
كما أبلغ الحكمدار خير باشا بأنه قد تأكد على الزبير بعدم التمدي
على حدود دارفور حتى يكون هناك مودة وحسن جوار ولا تنقطع
التجارة بين البلاد . وقد جاء رد خيرى باشا في التاسع من ذى
القعدة سنة ١٢٩٠ هـ الموافق الثلاثين من ديسمبر سنة ١٨٧٣ م
بعدم الكتابة للسلطان في هذا الخصوص وذلك حسب ما تقتضيه
الارادة السنية (١١٠) .

هذه هي قصة الزبير منذ غادر مقره في بحـر الغـزال
لتأديب عرب الرزيقات ، وفتح الطريق بين مديريته ومديرية كردفان
ليحضر بعدها الى الخرطوم ، حيث يتفق مع الحكمدار على ادارة
مديريته الجديدة ، ولكن الظروف ساقته من حرب عرب الرزيقات
الى حرب مع سلطنة دارفور .



هوامش الفصل الثاني

- (١) مكى شببكة (دكتور) : السودان عبر القرون من ١٦٤ .
- (٢) مثل الحكومة البلجيكية والبرتغالية .
- (٣) زاهر رياض (دكتور) السسودان المعاصر منذ الفتح المصري حتى الاستقلال من ٨٥ ... ٨٦ .
- (٤) أحمد باشا المنكلى : تولى منصب الحكيدارية في السودان في عهد محمد علي من سنة ١٨٤٣ م الى سنة ١٨٤٥ م الموافق سنة (١٢٥٩ هـ - ١٢٦١ هـ) .
- (٥) عباس الأول : حكم مصر بعد محمد علي ابتداء من سنة ١٨٤٩ الى سنة ١٨٥٢ م ، وفي هذه التي احتكر الحكومة لتجارة التبغ ، وضعت سلطة الحكومة على السسودان التي لم تنفذ جنوب الخرطوم حتى زالت نهائيا في الاجزاء البعيدة حين ظهرت الجياعات المسلحة وانشرحت الزرائب والمحطات التي انشأها التجار الاوربيون وغيرهم .
- (٦) سعيد باشا : حكم مصر ابتداء من سنة ١٨٥٤ حتى ١٨٦٢ م وحاول سعيد باشا اصلاح الحالة التي اتت بها حتى كانت تعود الى ما كانت عليه قبل محمد علي وذلك بسبب ضعف الدولة العثمانية .
- (٧) مكى شببكة : (دكتور) : المرجع السابق ، من ١٦٤ .
- (٨) اسماعيل باشا : وهو ثاني اتجال ابراهيم باشا ، تولى الحكم بعد وفاة سعيد باشا من سنة ١٨٦٣ الى ١٨٧٩ م وقد اخلت سياسته من كل من سبقت ، فأتجه نحو ادخال مصر ضمن نطاق الدول الاوربية ، فكنزل الحصار الاوربية اليها ، ففترتها المدنية والنظم وخاصة بعد ان حصل على ثرمان الوراثة السياسية على مصر وجبوع لمخائنها في سنة ١٨٦٦ م .
- (٩) موسى حدى باشا : تولى الحكيدارية سنة ١٨٦٢ م ولدة ثلاث سنوات انتهت بوفاة في ٦ مارس سنة ١٨٦٥ وقد سر الخديو اسماعيل باشا من اعماله وفي هذه صارت السودان في احسن حال .

(١٠) جعفر باشا مظهر : تولى حكمةدارية السودان من ١٨٦٦ إلى ١٨٧١ م .
الموافق ١٢٨٢ - ١٢٨٧ هـ في عهد الخديو اسماعيل باشا أنعم عليه الخديو برتبة
الأواء وبالقنصلان المجيدى والثانى وسمى جعفر باشا مظهر حاكما عاما للسودان .
(١١) مكى شبكة (دكتور) السودان في قرن من من ٨٠ - ٨٢ .

(١٢) السير صمويل بيكر : — H. B. Baker ولد سير صمويل حوايت
بيكر في ٨ يونيو سنة ١٨١٩ ونشأ في مزرعة أبيه وأتم علومه في أوكسفورد
بالماتيا حيث هوى الصيد واستخدام السلاح الناري إلى درجة الاجادة ثم سافر
إلى جزيرة سيلان حيث قضى زمرة شبابه (١٨٤٥ - ١٨٥٥ م) وبدأ في عام
١٨٦١ رحلته الكشفية من القاهرة للبحث عن منابع النيل وكشف بحيرة الجرب
في ١٨٦٤ م ، ويعودته إلى لندن احتللت به الجمعية الجغرافية ومعهته ميدانيتها
الذهبية كما منحه الحكومة لقب فارس . وقام بمهته الشهبيرة في أعالي
النيل ١٨٦٩ - ١٨٧٢ م ثم ختم الإمبراطورية البريطانية كمستشار لها في قبرص ،
وتوفي في ٢٠ ديسمبر ١٨٩٣ م .

(١٣) ولد شارلس جورج جوردون في مدينة ولويتش بإنجلترا سنة ١٨٣٢ م ،
وانظم في سلك العسكرية بعد أن درس علومها في المدارس الحربية سنة ١٨٥٢ ،
واشتراك في حصار ياستنول سنة ١٨٥٥ م وفي ١٨٦٠ سافر إلى حرب الصين
وبقي هناك إلى سنة ١٨٦٥ م ، ثم عاد إلى إنجلترا وقد رافق إلى رجة الكولونيل
في الجيش ، وفي ١٨٧١ اتى عليه ولى عهد انجلترا على مروره من مصر فاحصا
إلى الهند أمام الخديو اسماعيل . وأشار بترقيته ومحبته مكان صمويل بيكر حاكما
بحرية خط الاستواء فصدرت الأوامر بتعيينه .

(١٤) اسماعيل باشا أيوب : تولى حكمةدارية السودان ١٢٨٩ هـ —
١٢٩٣ هـ ١٨٧٢ - ١٨٧٧ م « تسبب البلاد في عهد إلى مديريات وجعل كل
مدير مسئولا عن مدينته ومستقلا عن باقي الحكمةدارية وفي عهد ثم فتح سلطنة
دارفور بأفضل مساعدة الزبير باشا رحمة للحكومة .

(١٥) زاهر رياض (دكتور) : المراجع السابق من ٨٦ - ٨٧ .

(١٦) ايظون بارنج : وهو القنصل انعم لانجلترا في مصر وقد عرف بموا
بمد باسم اللورد كرومر .

(١٧) Moorehead, Alam : The White Nile PP. 183 - 185 .

(١٨) شوى الجبل (دكتور) : الوثائق التاريخية لسياسة مصر في
البحر الأحمر من ٢٣١ تظهر الوثيقة رقم (١٠) بلحق وثائق نفس الكتاب .

(١٩) زاهر رياض (دكتور) : المراجع السابق من ٨٧ .

(٢٠) رومولو جيسى Romolo Gessi وهو ايطالى الجنسية ولد فى سنة ١٨٢٢ م فى القسطنطينية لام امريكية واب ايطالى وكان تصير القامة ، تولى الزينة ، هائلا ، مليا ، هتريا بطرته فى اعمال الميكانيكا ، شغال كثيرا من الوثائق السياسية السبلة ، وكان مترجما للقوات الملكية فى كريبا ، وكان يعمل فى المدفعية الملكية ويبلغه وبين جوردون شبه كبير فكلاهما رجل حرب وكان جيسى قد التحق بخدمة الحكومة المصرية فى السودان ومكث فى منطقة بحر النزال عاما أو أكثر بعد رحيل جوردون ، وفى أثناء عوفته الى الخرطوم وبرفنته ٤٠٠ شخص شغل الرحلة لمدة ثلاثة شهور بخيلة فى منطقة السودان مات أثناءها أغلب رجاله ، اما هو فقد مات يوم وصوله مصر . وكان جيسى قد نقل السودان برأس مال قدره عشرة جنيهات فقط وخرج بها ومعه ٥٠٠ ر.٠ ألف جنيه وعشرة آلاف اوقية من الذهب عدا الاشياء الشخصية الا أن رجاله اقتسبوها عندما مات روجه عند وصوله السويس فى ٢٨ مارس سنة ١٨٨١ م الموافق ٢٦ ربيع الثانى سنة ١٢٩٩ هـ .

(٢١) جاكسون م . س : (ترجمة عزيز يوسف عبد المسيح) ، جوردون ماتا من سن ٥٥ - ٥٦ .

(٢٢) معاهدة العام تجارة الرقيق : وأهم ما جاء بها :

- ١ - منع تصدير الرقيق
- ٢ - ازال العتوية بالانجريت وتسلم الاجانب معهم الى قناصلهم من أجل محاكمتهم .
- ٣ - تزويد الرقيق المحرر بأوراق العتق .
- ٤ - استخدام الرقيق المحرر فى اعمال مناسبة .
- ٥ - اهيل الحكومة بتربية اولادهم .
- ٦ - اعطاء الطرادات البريطانية حق تفتيش سفن مصر فى البحر الأحمر وظهير عدن .

٧ - تهريم بيع الرقيق فى مدى سبعة اموام .

(٢٣) زاهر رياض (دكتور) : المرجع السابق ص ٨٨ .

(٢٤) منطقة بحر النزال : وهى من بتيريات السودان ومن أهم ممتلكها واو الذى تقع على بحر ١١١ ميلا من مشرع الزيك وهى عاصمة البلاد بعد الفتح الاخير وكذلك ديم الزبير وهى عاصمة البلاد لم المنتج الأول وبها حجرة للنحاس .

(٢٥) محمد عيسى (دكتور) : الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر ص ٢١ .

Churchill, W. : The River war P. 16. (٢٦)

Sparrow, G : Gordon Mandarin and Pasha P. 94. (٢٧)

(٢٨) ورد ذكره في بعض الوثائق على أنه « محمد الهلالي » وفي البعض الآخر ذكر أنه محمد الهلالي .

Puncan, J.B.R. : A Record of a Chievement P. 12. (٢٩)

(٣٠) مكي شبكة (دكتور) : المرجع السابق من ص ٨٢ - ٨٣ .

(٣١) سعد الدين الزبير : الزبير بلشأ رجل السودان من ١٥٤ .

(٣٢) انظر الوثيقة رقم (١) دفتر رقم (٥٧٣) حاوية مائة مئة /

مكتابات تركي من ص ١٦٨ ، ١٨٤ مكتبة رقم (٤) .

(٣٣) مكي شبكة (دكتور) : المرجع السابق من ص ٨٣ .

(٣٤) كهوك على اما او كهوك على : كما ورد ذكره في بعض الوثائق .

(٣٥) انظر الوثيقة رقم (١) .

(٣٦) المسافر الياشبورق أي الجنود غير النظاميين .

(٣٧) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من ص ٤٦ .

(٣٨) مكي شبكة (دكتور) : المرجع السابق من ص ١٦٤ .

(٣٩) انظر الوثيقة رقم (٢) دفتر رقم (٧) حاوية مائة مئة مئة /

تركي من (٢٢/٢٤) مائة مئة رقم (٣٣٠) .

(٤٠) انظر الوثيقة رقم (٢) دفتر رقم (٨) حاوية مائة مئة مئة /

شجرة من (١٣/٧٥) مائة مئة رقم ١٥٣ .

(٤١) انظر الوثيقة رقم (٤) دفتر رقم (٥٨٢) حاوية مائة مئة مئة /

تركي من (١٤) مكتبة رقم (١) .

(٤٢) حارة النحاس : تقع على مسيرة ستة أيام الى الشمال من منطقة

منجة . وعلى الحدود الجنوبية لدارفور وكان النحاس ينقل منها الى الأسواق

على صورة حلقات رفيعة المنح متعددة الزوايا بأشواح وزلما ما بين خمسة

وخمسين رجلا أو ما يزيد ، أو صورة أشكال بيضاوية الشكل غير معتلة الطرق .

وكانت الخالة وظل من النحاس مساوي ألفا وخمسة مئة قرص أي ما يوازي خمسة

عشر جنيهها إنجليزي وكان بالغ النقاء حتى أنه يفوق ذلك المستورد من أوروبا ،

وكان بالإمكان استخراج تسعة وتسعين طنطارة من النحاس من الملة تقطران من

النحاس الخام ، ولم يكن هذا العمل شلما ، فقد كان من دون اتباع التمر من امتداد

السل في هذه المناطق وكان الزبير قد أرسل هيئة من النحاس المستخرج الى

القاهرة لفحصها عندها من مديرا لبحر الغزال فوجدوا أن النحاس المستخرج منها نقي وصالح للاستغلال ، وكان بعض الأهالي يستخرجونه بالطرق البدائية ويستخدمونه بعد ذلك في عمليات المقايضة .

(٤٣) شوقي الجبل (دكتور) : تاريخ السودان وادي النيل ج ٢ ص ١٧٠ .

(٤٤) محمد الدين الزبير : المرجع السابق ص ١٥٤ — ١٥٥ .

(٤٥) Schweinfurth, G. : The heart of Africa PP. 195 — 197

(٤٦) تقع على مسيرة خمسة أيام من ديم الزبير .

(٤٧) محمد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٤٦ — ٤٧ .

(٤٨) انظر الوثيقة رقم (٥) دفتر رقم (١٢) وارد هابدين طغرانت مرس

ص (١٨/٣٦) طغرانت رقم (٢٨٠) .

(٤٩) انظر الوثيقة رقم (٦) دفتر رقم (١٨٥) وارد هابدين بحية سبية

بكاتبات ص (٤٢) بكتاية رقم (٨) .

(٥٠) لم يتم العثور على هذه الرسالة ضمن الوثائق المحفوظة بدار الوثائق

التاريخية أو في مراجع السودان .

(٥١) محمد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٢٧ — ٤٨ ، ١٥٥ .

(٥٢) جعفر باشا مظهر : (١٢٨٢ — ١٢٨٧ هـ الموافق ١٨٦٦ — ١٨٧١ م)

انضم عليه اسماعيل باشا برتبة اللواء والنيشان المجيدي الثاني وسبق جعفر باشا مظهر حاكما عاما للسودان فدخل الخرطوم في ٧ شوال ١٢٨٢ هـ الموافق ٥ مارس ١٨٦٦ م وحدث في هذه غلاء فاحتج بالخرطوم حتى هاج الناس ، وفي ١٨٦٦ م ذهب إلى سنار غازي و كورمان فاستطلع أحوالهما وعاد إلى الخرطوم وطلب رد العمائر السودانية إلى مصر وفي ١٨٦٧ م أرسله اسماعيل باشا في مهمة إلى البحر الأحمر فعاد منها في سنة ١٨٦٨ م وفي هذه كانت حملة البسلاكي المشهورة واكتشاف سير سمويل بكر لبحيرة الترت .

(٥٣) محمد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٤٨ — ٤٩ .

(٥٤) رابع غضل الله : ولد في حي سلامة باشا بالخرطوم سنة ١٨٤٦ م

منحدرًا من قبيلة الهبق ، وكان والده غضل الله يعمل في الجيش المصري ، وعلى يدى المصريين من موظفي الحكومة بالخرطوم تعلم رابع القراءة والعلوم الأولية كما حفظ القرآن ، وحين أتمه ستادته حيل في الشركات حتى وصل إلى وكيل شركة وهي الشركات التي كونها تجار الرقيق ، وقد لمع اسم رابع حقنًا باسم الزبير لأنه كان سيده المنتصر في حروبه في كل من بحر الغزال ودارفور وحين حضور

الزبير الى مصر نراه يخلص لاس رعيته سليمان في هروبه ضد السيطرة الأجنبية في السودان ، ولكن حين الفد سليمان سيفه واستكان لوعود رومولو جسي بالعفو عنه خطابه وذكره عوالده المعتقل في مصر ثم لوى زمام امره الى غرب السودان ومعه أرميائه وألف فارس .

- (٥٥) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من ص ٤٩ - ٥٢ .
- (٥٦) انظر ملحق الوثائق الوثيقة رقم (٦) .
- (٥٧) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من ص ٥٢ - ٥٣ .
- (٥٨) Jackson, H.C : the black ivory and white PP. 48 — 44.

- (٥٩) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من ص ٥٤ .
- (٦٠) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من ص ٥٤ - ٦٠ .
- (٦١) مكي شيكدة (دكتور) : المرجع السابق من ص ٨٤ .
- (٦٢) قسوى الحمل (دكتور) : المرجع السابق من ص ١٧٢ .
- (٦٣) مكي شيكدة : المرجع السابق من ص ٨٤ .

(٦٤) آدم باشا : كان من أمم غياض الجيش المصري المنظم وقد تولى له مصر ورافق إبراهيم باشا الى بلاد الشام فاشتهر بالبسالة والافتاد وذهب لتكسلا لأخيه ثورة بها وهو عربي الجنسية وأبوه محمد ذو البيت شيخ عريان دار حامد بكردلان .

- (٦٥) انظر الوثيقة رقم (٧) دفتر رقم (١٨٦٤) وارد معية سنية مكاتبات من (٣٨) مكتبة رقم (٤) .
- (٦٦) مكي شيكدة (دكتور) : المرجع السابق من ص ٨٤ .
- (٦٧) انظر الوثيقة رقم (٨) دفتر رقم (١٨٧٢) وارد معية سنية مكاتبات عربي (١٧) مكتبة رقم (٧٨) .
- (٦٨) خيرى باشا : كان يشغل وظيفة مهردار الخديو اسماعيل باشا .
- (٦٩) انظر الوثيقة رقم (٩) دفتر رقم (١٤) صادر عاتحين ظفرامات من (٢٣/٤٥) ظفرامات رقم (٣١٦) .
- (٧٠) انظر الوثيقة رقم (١٠) دفتر رقم (١٨٦١) صادر معية سنية عربي مكاتبات من (٧١) مكتبة رقم (١٧) .

(٧١) حرب الزبيقات : اذا اخترقنا حدود كردلان الجنوبية دار البحر الى دارفور بقلنا بلاد الزبيقات نجد حرب الزبيقات الذين يسلطون أكثر قبائل دارفور ثروة وأقوام مغوا ، وأوطانهم تقع في أقصى الجنوب الشرقي لدارفور من بين

البحر شرقا ، وقبائل الهبانية غربا ، والدنكا جنوبا ، وينقسم التريقات الى ثلاثة اقسام هم الماهرة والمجاد والنوابنة ، وهناك ثلاثة قبائل بهذا الاسم في شمال دارفور كلها تعمل برعى الابل ، وبعضها يعيش على حدود دار واداي ، وهذا ما يحل على الظن من ان شعبية من كل من هذه القبائل الثلاث قد هاجرت الى الجنوب وعاشت في اوطانهم متجاورة ، ثم اتحدت فكونت قبيلة التريقات التي أصبحت من أعظم وأشهر قبائل القارة .

- (٧٢) مكي شبكة (مكتور) : المرجع السابق ص ٨٤ - ٨٥ .
 (٧٣) انظر الوثيقة رقم (١١) دفتر رقم (١٨٧٥) وارد معية سنية مكافيات ص (٢) مكانية رقم (٦٤) .
 (٧٤) انظر الوثيقة رقم (١٢) دفتر رقم (١٦) صادر عابدين ظفرانات سفرة عركي ص ص (٥/١٠ ، ٦/١١ ، ٦/١٢ ، ٧/١٣ ، ٧/١٤) ظفراف رقم (٧) .
 (٧٥) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٦٢ .
 (٧٦) بنية : وهي التي اتخذها الزبير عاصمة له في بحر الغزال وعرفت فيما بعد باسم ديم الزبير ثم دسم سليمان الزبير الفصل الاول .
 Jackson, H.C. : Op. Cit., P. 51. (٧٧)

- (٧٨) سعد الدين الزبير : المرجع السابق السابق ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .
 (٧٩) شيكا : عاصمة بلاد التريقات واحد مراكز تجارة الرقيق المهمة .
 (٨٠) نعوم شقير : المرجع السابق ص ٦٦ - ٦٩ .
 (٨١) مكي شبكة (مكتور) : المرجع السابق ص ٨٥ .
 (٨٢) نعوم شقير : المرجع السابق ص ٢ ، ص ٦٩ .
 (٨٣) الزبير رحمة : (جمعة ياسين حمد محمد) : الانجوبة السعيدة في تهديد وانذار أهل المكيدة ص ٢ - ٤ .
 (٨٤) مكي شبكة (مكتور) : المرجع السابق ص ٨٦ .
 (٨٥) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٦٧ - ٦٨ .
 (٨٥) مكي شبكة (مكتور) : المرجع السابق ص ٨٦ - ٨٧ .
 (٨٦) انظر الوثيقة رقم (١٣) دفتر رقم (٢١) وارد عابدين ظفرانات سفرة عركي ص ص (٢٨/٥٥ ، ٢٨/٥٦) .
 (٨٧) القامقام : وهي تعادل رتبة المعيد في الرتب العديدة .
 (٨٨) انظر الوثيقة رقم (١٤) دفتر رقم (١٦) صادر عابدين ظفرانات سفرة عركي ص ص (١٧/٢٢ ، ١٧/٢٤) ظفراف رقم (٢٠٠) .

(٨٩) انظر الوثيقة رقم (١٥) دفتر رقم (٢١) وارد عابدين تطرفات شجرة
 عريسي من من (٢٠/٥٩ ، ٢٠/٦٠) تطرفات رقم (٢٥٨) .
 (٩٠) انظر الوثيقة رقم (١٦) دفتر رقم (١٦) صادر عابدين تطرفات شجرة
 من من (١٧/٢٤ ، ١٨/٢٥) تطرفات رقم (٢٠٧) .
 (٩١) انظر الوثيقة رقم (١٧) دفتر رقم (١٦) صادر عابدين تطرفات شجرة
 عريسي من (٢٧/٥٢) تطرفات رقم (٢٤٨) .
 (٩٢) انظر الوثيقة رقم (١٨) دفتر رقم (٢٧) وارد عابدين تطرفات شجرة
 عريسي من (١/٢) تطرفات رقم (٨) .
 (٩٣) انظر الوثيقة رقم (١٩) دفتر رقم (١٦) صادر عابدين تطرفات شجرة
 عريسي من من (٢٦/٥٣ ، ٢٧/٥٣) تطرفات رقم (٣٤٦) .
 (٩٤) انظر الوثيقة رقم (٢٠) دفتر رقم (١٦) صادر عابدين تطرفات شجرة
 عريسي من من (٤٢/٨٢ ، ٤٣/٨٢) تطرفات رقم (٥٠٦) .
 (٩٥) انظر الوثيقة رقم (٢١) دفتر رقم (٢٢) وارد عابدين تطرفات شجرة
 عريسي من من (٢٦/٥٢ ، ٢٦/٥١) تطرفات رقم (٢٧٤) .

(٩٦) عبد الله التمايشي : وهو من قبيلة التمايشة من لربع الحباراب من
 بطن يقال له أبو مسرة وجده يدعى أحمد تمايشي ، وقد كان حده هذا في هجيلجة
 من أعمال شكا لما تولى الخلافة في عهد المهدي أبر أحسابه بميل هبة غوى خريجه
 وهما الناس لزيارته . وكان عبد الله يعرف على الكرار من بلاد القري التي تقع
 بين واداي والزوج بكتر من أمراء جنين امرأة ولدت له عند سنة ١٢٦٦ هـ
 الموافق ١٨٥٠ م كفن والده بوليه المرضي وفور الاستقام ولتمسكون عنده الشفاء
 بما يطلوه من القرآن فلما تقدم به السن قام عبد الله مقامه في هذه الصناعة إلى
 أن دعاه مرب الرزقات عند تكويب الحرب بينهم وبين الزبير لقراءة الاسماء لهم
 لحملها تقبض على سلاح الزبير ورجاله فلا يطلق النار في منطقة الحرب وتعاهدوا له
 في مقابل هذا ببقرة حلوب وقد نشأ عبد الله هذا ولم تكن له رغبة في التعليم ولم
 يحفظ القرآن الا بعد جند شديد .

(٩٧) حلة المسوح : تقع بين مركز شكا ودارا ببلاد دارفور .

(٩٨) نعوم شقير : المرجع السابق ج ٢ من ٧٠ - ٧٢ .

(٩٩) Henderson, K.D.D. : The Sudan Republic P. 35.

(١٠٠) نعوم شقير : المرجع السابق ج ٢ من ٧٢ .

(١٠١) الزبير رحلة (جمعة ياسين عبد محمد) المرجع السابق من من

٤ - ٦

- (١٠٢) نعوم شقير : المرجع السابق ج ٢ ص ٧٢ .
- (١٠٣) ماديو بن علي : شيخ مشايخ قبيلة عرب الرزيقات
- (١٠٤) الزبير رحبة (جمعة ياسين محمد حميد) : المرجع السابق ص ١٠٦ - ١٠٧
- (١٠٥) عبد الرحمن زكي : اعلام الجيش والبحرية في مصر أثناء القرن التاسع عشر ج ١ ص ٩٣ .
- (١٠٦) عبد الرحمن زكي : المرجع السابق ج ١ ص ٩٣ .
- (١٠٧) نعوم شقير : المرجع السابق ج ٢ ص ٧٤ .
- (١٠٨) شوقي الجبل (مكتور) : المرجع السابق ج ٢ ص ١٧٥ - ١٧٦ .
- (١٠٩) نعوم شقير : المرجع السابق ج ٢ ص ٧٤ .
- (١١٠) انظر الوثيقة رقم (٢٢) دفتر رقم (٢٢) واردة مابين طفرات شقرة مرسى من (٢٦/٥٢) طفرات رقم (٢٧٠) وكذلك انظر الوثيقة رقم (٢٣) دفتر رقم (٢٦) صادر مابين طفرات شقرة مرسى من (٤٤/٨٨) طفرات رقم (٥٣٦) .

الفصل الثالث

الدور الذي لعبه الزبير في فتح دارفور

الدور الذي لعبه الزبير في فتح دارفور

أولاً : الأسباب التي أدت لغزو سلطنة دارفور :

اتسمت العلاقات بين مصر ودارفور(١) لفترة غير قصيرة تمتد الى ما قبل تولي محمد علي الحكم في مصر بالمطامع العدائى . وكان من أسباب ذلك هو طموح محمد علي نفسه ومن تولى من بعده الحكم في مصر - حتى قدوم الخديو اسماعيل باشا - في ضم هذه السلطنة الى الممتلكات المصرية في السودان(٢) وظلت فكرة غزو سلطنة دارفور ، واخضاعها لسلطة الحكومة المصرية هدفاً وأهلاً يراودان كل من تولى حكم مصر ، الا ان الجهود التي كانت تبذل في هذا السبيل كانت تتعثر في اغلب الأحيان لأسباب كثيرة منها سياسة الحذر التي اتبعها كل من تولى حكم دارفور من السلاطين في اقامة أى نوع من العلاقات مع حكام مصر خشية اناقة الفرصة أمام هؤلاء للتدخل في الشؤون الخاصة بالسلطنة .

وفي أواخر القرن التاسع عشر تجمعت الأسباب القوية التي جسدت فكرة غزو دارفور ، ووضعية اضراها الى مجال التنفيذ الفعلى . ففي سنة ١٨٧٤ م ساعدت عدة عوامل وعجلت بسقوط هذه السلطنة فكانت فترة حكم الخديو اسماعيل هي الفترة

التي شهدت نهاية الماضي الطويل لسلطنة دارفور ، ويمكن ايجازاً
هذه الاسباب في النقاط الآتية :

أولاً : الحاجة الى إلغاء تجارة الرقيق في السودان الغربي
(دارفور وما جاورها)

ثانياً : الخوف من أن تصبح دارفور بسرعة مركزاً لتجمع
تجار الرقيق — وهم غير المرغوب فيهم والمتفرون — مما يهدد
سلطة حكومة الخديو في السودان .

ثالثاً : قوة الزبير رحمة كحاجر الآخذة في النمو والازدياد (٣) .

رابعاً : قبائل الرمسة التي تعيش بكرديان لم تكن لتكتفي
بالحدود السياسية ، بل تهرب خارج تلك الحدود عند مطالبتها بدفع
الضرائب ، أو عند اقتراحها أعمالاً تستحق العقاب .

خامساً : كانت حكومة دارفور قد بلغت درجة كبيرة من
الضعف ، وكان النزاع على السلطة فيها قد بلغ درجة خطيرة (٤) .

وفي سنة ١٢٩١ هـ الموافق ١٨٧٤ م كانت السلطات في
القاهرة متمسكة بالرأى القائل بأن غزو دارفور سوف يضر
النهاية السريعة لتجارة الرقيق . وكان يشارك في هذا الرأى
من كان على دراسة تامة بحجم وابعاد مشكلة الرق وتجار الرقيق
في هذا الجزء من أفريقيا . وكانت الرقابة المحكمة على النيل
الابيض هي التي أغلقت هذا الممر الرئيسى في وجه تجار الرقيق .
وتحت ادارة كل من سير سويل بيكر S.S. Baker وجوردون
Gordon أمكن طرد تجار الرقيق من أعالي النيل والتجاء
عدد كبير من هؤلاء التجار الى دارفور حيث تجمعهم هناك
على الاستمرار في تجارتهم بسلطان الفور اويين حسيين بن

الفضل (هـ) . الذي كان معظم دخله يعتمد على تجارة الرقيق بعد ذلك أصبحت دارفور هي الملجأ الأمين لتجارة الرقيق في غرب السودان ، وكانت عمليات تهريب الرقيق إلى السودان ومصر مستمرة . لذلك كان القصد الرئيسي هو وقف عمليات التهريب هذه فعمد جوردون إلى إقامة بعض النقاط العسكرية على طول نهر السوياط مع اتخاذ بعض الإجراءات العسكرية ضد هؤلاء التجار . وبالرغم من ذلك فإن التجار كانوا يقومون بتهريب رقيقهم خسائل كردمان إلى النيل الأبيض أو عبر صحراء مصر ، وقد تأكد وثبت في الأذهان أن إخضاع تجارة الرقيق لن يكون ذا فاعلية ، إلا إذا تم خرو سلطنة دارفور وفتحها أمام التجارة المشروعة وبهذا العمل سوف تقوم مصر بأداء خدمة عظيمة للإنسانية . وقد كانت سلطنة دارفور لمدة طويلة تحوطها الكراهية من جانب العالم الخارجي نظرا لكونها مركزا لهذه التجارة المقتولة . وبعد اتسام فتحها والقضاء على هذه التجارة سوف تكون محطاً للتأثيرات الحضارية الوافدة والمفيدة من جميع أرجاء العالم الخارجي .

وفي سنة ١٢٩١ هـ الموافق ١٨٧٤ م أصبح جزء من دارفور مكانا يجتمع فيه أغلب تجار الرقيق الذين استاموا من الإجراءات التي اتخذها ضدهم الخديو اسماعيل باشا . وكان الخوف من أن يقوم هؤلاء التجار والمؤيدون لسلطان دارفور بمحاولة الثورة ضد الحكومة إذا دعت الضرورة إلى ذلك . ولم يكن هناك شك في أن سياسة حكومة الخرطوم في القضاء على تجارة الرقيق سوف تؤثر على إيرادات سلطان دارفور حسين بن الفضل وبالتالي على التحالف القائم بينه وبين تجار الرقيق . لذلك كان هذا الغزو ضروريا للاعتبارات السياسية ، وأيضا لمواجهة قوة الربير التي استنفذت في إقليم بحر الغزال ، وخصوصا بعد فشل البلاي في حبلته التي انتهت بمصرعه في سنة ١٨٦٩ م الموافق ١٢٨٦ هـ

والتي أصبح للزبير بعدها مكانة وسلطة واسعة بين أتباعه وتجار الرقيق في بحر الغزال . فكان اسقاط الزبير وضم مملكة دارفور الى مصر هما عين ما تريده حكومة الخديو في القاهرة .

وبرغم ان ضم دارفور لم يكن من بين اهداف حملة البلالي بل كان الهدف كما سبق من هذه الحملة هو اسقاط الزبير ، والقضاء على ما لتجار الرقيق من نفوذ في بحر الغزال . ورغم ذلك كان السلطان حسين على علم بهذه المغامرة التي سوف تقدم عليها الحكومة . فاستعد للموقف وأخذ حذره للدفاع عن نفسه وبلاده اذا ما حاول البلالي غزوها . وقد وصلت الى القاهرة أنباء هزيمة البلالي مما جعل الادارة في مصر تنور . ومع ذلك لم يتخذ جعفر باشا مظهر حاكم السودان من جانبيه أية إجراءات ضد الزبير . وفي سنة ١٨٧١ م عين اسماعيل باشا أيوب حاكما عاما للسودان وظهر ان هناك استعدادات تتخذ لارسال حملة ضد الزبير . وقد خاف الزبير انتقام الخديو منه لذا فقد عمل على تهدئة سلطات الخرطوم بكل وسيلة ، واعتذر عن أماله السابقة ، وتوسل بكل تواضع طالبا العفو والسماح لحادثة البلالي ، ووعد في مقابل ذلك بهاجية حدود دارفور ولما رأى اسماعيل باشا أيوب منه ذلك تخلى عن استعداداته العسكرية ، وكتب الى القاهرة في افضلية حضور الزبير اليها للتشاور ، وكانت الادارة في كل من القاهرة والخرطوم تنتظر تطور الأحداث في بحر الغزال قبل القيام بأي عمل مخادع ضد الزبير (٦) .

وقد ظهر أن الحكومة في القاهرة كانت تخطط سياستها في السودان لهدفين :

أولا : غزو سلطنة دارفور وضمها الى الممتلكات المصرية في السودان ، وبذا يمكنها القضاء على أهم مراكز التجارة غير الشرعية (تجارة الرقيق) .

ثانيا : القضاء على الزبهر رحمة وما له من نفوذ وسيطرة في منطقة بحر الغزال ، وبذلك يمكنها ان تحكمها دون اننى ازواج من اى جانب .

استطلاع احوال دارفور الداخلية :

محتى هذا الوقت لم يكن يعرف عن دارفور سوى القليل من المعلومات الخامضة المستقاة من اصحاب الثوافل التجارية وغير ذلك من المصادر المختلفة . لذا فقد رأت الحكومة المصرية انه لا بد من العمل على استكشاف احوالها الداخلية بكل الطرق المتيسرة تمهيدا لغزوها . فطلبت من جعفر باشا مظهر اثناء حكمه دارفور على السودان بحث مسألة مدى صمودية او سهولة الطريق المؤدية الى دارفور مع بحث احوال هذه السلطنة ذاتها . فاطلع جعفر باشا مظهر على رحلة التونسي باللغة الفرنسية التى ارسلت للقاهرة لترجمتها . ولكن القاهرة اجابت بانها مترجمة ، والمعلومات التى وردت بها قديمة وغير موثوق بها . لذلك ارسلت بعثة برئاسة القائمقام محمد نادى باشا الى دارفور . فى التقرير الذى قدمه من هذه الرحلة - ويثع فى اثنتى عشرة صفحة - وصفا لما شاهده من ابتداء قيامه من جهة ابو حراز حتى وصوله الى القاشير مركز حكومة دارفور ، وما جرى اثناء اقامته بظك الجهات من محادثات ونحوه وما سمعه من الاخبار والروايات كما هو مشروح تفصيلا بالاصـسل . كذلك كيفية معاملته هو ومن معه اثناء اقامتهم لدى السلطان ، وتضمن التقرير ايضا وصفا للطرق والدروب وحالتها ، والبلدان التى مر بها ، والمسافات التى قطعها بساعات السير . واشار نادى باشا فى تقريره ايضا لظاهرة تجمع مياه الأمطار فى اشجار التبلدى المحفورة الوسط (V) .

وعن قوة وزير السلطان العسكرية ، وعن جيش دارفور ومدى بدائيته واسلحته التي لا تخرج عن مجرد سيوف ورمح وجانب ضئيل من الأسلحة الخارية . كما تكلم من الاحتياطات المشددة التي اتخذت معه وعدم السماح له بحرية الانتقال أو التجول . ونظام التشريفات السلطانية ، كما أشار إلى استفسارات السلطان عن مصر وعن نواياها تجاه دارفور فأجابه بأنها طيبة . وقد قدر نادى باشا أن حملة من ألفى رجل يمكن فتح دارفور . ويستنتج من التقرير بصفة مله بان غزو دارفور ممكن لعدم فرض السلطان لسلطته على جميع بقاع دارفور وكذلك لضعف جيشه (٨) . وقد اعتبرت المعلومات التي وردت بتقرير نادى باشا يمكن الأخذ بصحتها الى حد بعيد . الا انها لم تكن الصورة المنشودة التي تريدها حكومة القاهرة عن أحوال دارفور .

ثانيا : أسباب النزاع الذي نشأ بين الزبير والسلطان إبراهيم :

١ - الدوافع السياسية والعسكرية :

كان هناك ما يشبه الاتفاق بين الزبير رحمة ومشايع عرب الرزيقات استمر منذ مارس ١٨٦٠ م الموافق سنة ١٢٧٧ م وذلك من أجل فتح طريق للقوافل خلال أراضي الرزيقات من بحر الغزال إلى شكا ، وكان فتح هذا الطريق من الاهمية بمكان بالنسبة للزبير باعتباره التاجر الأول في بحر الغزال ، وخاصة بعد إغلاق طريق النيل الأبيض أمام التجارة غير المشروعة (الرقيق) بعد المحاولات التي قام بها جوردون خلال فترة إدارته للسودان في الأقاليم الاستوائية . ومع ذلك فعندما نشبت الحرب بين الزبير والسلطان تكه به سنة ١٢٨٦ هـ الموافق سنة ١٨٧٢ م (٩) نقض مشايخ عرب الرزيقات عهدهم مع الزبير غلبوا ونهبوا وأغتصبوا حراس الطرق حتى مدينة شكا . وبعد انتهاء هذه الحرب في

سنة ١٨٧٣ م الموافق سنة ١٢٩٠ هـ حاول الزبير إعادة فتح الطريق الى شكا ، ولكن محاولاته باءت بالفشل ، حينئذ استغاث الزبير بسلطان دارفور (١٠) - الذي كان قد بسط نفوذه حديثا في بلاد الرزيقات في سنة ١٨٧٣ م الموافقة سنة ١٢٩٠ هـ - من تصرفات عرب الرزيقات وطلب مساعدته ، ولكن استغاثته التي عبر عنها في صورة رسائل للسلطان لم تلق اى صدى لديه . قام الزبير في الأشهر التي تلت ذلك بهاجمة بلاد الرزيقات ، وسقطت مدينة شكا في يده وانهزم عرب الرزيقات ، وفي ساعات الحرب استدار الزبير للسلطان ابراهيم يطلب مساعدته واكنه لم ينجده بأى شيء وتبع ذلك قصة نوار الشيخين منزلى وعليان ورفض السلطان تسليمهما للزبير (١١) . وقد استاء السلطان من فقد مدينة شكا اهم مركز تجارى ، واعتبر كل اتليم الرزيقات جزءا من الاراضى التي تحت سيطرته ولذلك طلب السلطان من الزبير سرعة اخلاء شكا .

وفي نوفمبر سنة ١٨٧٣ م الموافق رمضان سنة ١٢٩٠ هـ كان واضحا ان السلطان يريد الحرب وان الزبير قرر ان يستميل لتأييده حكومة الخديو ، وظهر ان السلطان ابراهيم كان لديه ما يكفيه من السلاح والبارود ، وان الزبير على علم بأن دارفور تستطيع ان تحشد جيشا ضخما في ميدان القتال ، وقرر الزبير في نفس الوقت ان يكون تدخل سلطة حكومة السودان مؤكدا في حالة ما اذا نشبت الحرب بينه وبين السلطان لانه بذلك سوف يضمن الا تسدد الحكومة له طعنة من الخلف ، كما ان فرصة انتصاره على السلطان سوف تكون اكثر تأكيدا . كل هذه المعاني كانت تدور في ذهن الزبير منذ ارادت الحكومة اصبسائية دارفور الى ممتلكاتها في السودان ، وفي نفس الوقت كانت القاهرة والخرطوم حريصتين على الا تدع الزبير ينفرد بشمار انتصارات جديدة في

دارفور . لذلك حاول الزبير أن يضمن التوصية الحسنة والتأييد من جانب حاكم عام السنسودان . وفى نوفمبر سنة ١٨٧٣ م الموافق رمضان سنة ١٢٩٠ هـ أرسل الزبير خطاباً الى اسماعيل باشا أيوب يحمل أخبار انتصاره على عرب الرزيقات واحتلاله لمدينة شكا . وقد قدم بالنيابة ممن اشتركوا معه فى فتح هذه البلاد هدية للحكومة الخديوية ، وطلب ارسال مدير يتولى بالنيابة من الحكومة المصرية حكم هذه الاجزاء ، أملاً فى أن يتوجه هو لتجارته ويستعيد مكانته كتاجر وفى نفس الوقت ابلغ السلطان ابراهيم بأن قواته لن تظلى مدينة شكا حتى يعلن السلطان خضوعه لحكومة الخديو فى القاهرة . ولكن السلطان استغاث بعوره بالقاهرة ، وحاول أن يمنع بشقى الطرق أى تحالف بين جيش الزبير وقوات الحكومة . منها أنه أرسل الكثير من الهدايا النفيسة الى القاهرة وأخذ يتوسل لدى الخديو ليعمل على وقف هذه الحرب التى بدأت أو أوشكت دون أدنى سبب يذكر من وجهة نظره ، ومع ذلك ذهبت هذه التوسلات هباء دون أى اعتبار لما قدمه . وكانت حكومة القاهرة قد سال لهايها وطمعت فى غزو دارفور . وكان الوقت لأن يكون هذا الغزو فى يدها ، ولكن اذا سمح الزبير - الذى ذاعت شهرته - لنفسه أن يخصص غمار هذه الحرب بمفرده ، فإن هذا يعنى عدم استجابته للاهتمامات المصرية التى كانت تهدف الى الاشتراك فى هذه الحرب . وكان يبدو أن هناك ترحيباً بخطة الزبير التى تهدف الى اشراك الحكومة فى هذه الحرب ، وأن اسماعيل باشا أيوب قد نصصح الحكومة بقبول المروض التى قدمها الزبير . وأنه أوصى باستناد إدارة كل من شكا وبحر الغزال اليه فى مقابل جزية سنوية يدعمها للحكومة . وفى نوفمبر سنة ١٨٧٣ م الموافق رمضان سنة ١٢٩٠ هـ رقى الزبير الى رتبة البيك ، واستند اليه حكم إقليم شكا وبحر الغزال ، وقد تحددت الجزية بما يوازى ١٥٠٠٠ جنيه سنوياً يدفعها

الحكومة . وعندما اقتربت الأمور من نهايتها تمكن الزبير من أن يعتمد على تأييد حكومة الخديو في القاهرة مصمما على الاستيلاء على دارفور (١٢) .

ويمكننا إيجاز أوجه الخلاف بين الزبير والسلطان ، التي كانت سببا في اندلاع الحرب بين الاثنين في النقاط التالية :

أولا : رفض السلطان مد يد المساعدة للزبير أثناء حربه مع عرب الرزيقات وتعاون السلطان معهم ضد الزبير ، وكذلك رفضه تسليم عشائهم للزبير .

ثانيا : شعور السلطان إبراهيم بأن احتلال الزبير لملاذ شكا التي اعتبرها جزءا من بلاده فيه مساس بسيادته على أراضيها .

ثالثا : رفض الاستجابة للنداءات التي وجهها له الزبير بالكف عن التعاون مع عرب الرزيقات ، فكان هذا بمثابة تحقير من السلطان لهذه النداءات التي بعث له بها الزبير في صورة خطابات .

وقد قيل أن الزبير أراد بهذه الحيلة في المراسلات أن يضع سلطان دارفور أمام الأمر الواقع ، وأن يتقل عليه بالمطالب فلا يستطيع له طلبية أو تنفيذا . حيث يجد الزبير سببا في قتال عرب الرزيقات وغزو دارفور (١٣) .

ولم يكن صحيحا أن يضع الزبير السلطان في دائرة مشكلة لا يستطيع الخروج منها أو أنه تعمد ذلك ، بل كان القصد الرئيسي من وراء رسائله للسلطان وخاصة الأولى منها هو توجيه النصيح والإرشاد له والتذرع بالصبر والأناة في مهم حقيقة الموقف حتى لا يقع فريسة للفتن التي كان يبعثها له زعماء عرب الرزيقات ، ويدخل في حرب لا يعلم نتائجها مع الزبير نفسه والحكومة الخديوية . ولكن عندما لم يستجب السلطان لهذه القصصائع

والارشادات والتوجيهات بدأ أسلوب هذه المراسلات يأخذ أسلوباً آخر وشكلاً آخر من جانب الزبير .

٢ - الأسباب الاقتصادية :

يضاف الى الدوافع السياسية والعسكرية التي تولد عنها النزاع بين الزبير والسلطان والتي أدت الى قيام الحرب بينهما ، دوافع اقتصادية شاركت في نشأة هذا النزاع ، ذلك أن الفوراويين كانوا يعتمدون على حوض بحر الغزال كمجال حيوى لهم لاصطياد الرقيق وجمع العاج . ووجدوا ان في سيطرة الزبير على هذا الجزء الذى يعتبرونه من مناطق نفوذهم حرماناً لهم من مصادر تجارتهم الرئيسية . فكان لا مناص من وقوع الحرب بينهم وبين الزبير بسبب ذلك . وقد أوجدت سيطرة الزبير على هذه المناطق (بحر الغزال وشكا) مجالاً حيوياً خارجاً عن سلطان الحكومة فى الجانب الغربى للسودان . ولم تلبث أن فتحت ابوابها لهجرة المغامرين من تجار الأقاليم التى تسيطر عليها إدارة السودان حيث اشتدت موجة التنكيل بالأهالى على يد الموظفين من المصريين والأجانب وعمالهم تنفيذا لمعاهدة منع تجارة الرقيق تنفيذا صارماً دون مراعاة لمصلحة الأهالى الذين كانوا يعتمدون اعتماداً كلياً بحكم العادات الموروثة على خدمة الرقيق . وقد وجد التجار المهاجرون فى المناطق التى سيطر عليها الزبير متنفساً لكريبتهم ولو ترك الأمر للزبير ليعمل وفق طريقته الخاصة ، ولم تضع الحكومة فى وجهه العراقيل ولم تقدر حكومة جوردون بابه لاستطاع الزبير منع هذه التجارة المقوتة فى فترة قصيرة فى الوقت الذى يعمل فيه على تغيير الاتجاهات المحلية والتوسع الاقتصادى على المستوى الذى ينتقل منه الرقيق الى مركز ييسره الحرية فى العمل كما يشاء وبالأجر الذى يرتضيه لنفسه مادام المال متوافراً لمواجهة ذلك التطور (١٤) .

قيام الحرب بين الزبير والسلطان ومشاركة الحكومة فيها :

فى اواخر سنة ١٨٧٣ م الموافق سنة ١٢٩٠ هـ تصدت القوات المصرية فى السودان لقافلة من الرقيق كانت قادمة من دارفور مغضب لهذا السلطان ابراهيم ووجد الفرصة سائحة امامه للانتقام من الزبير ، فهاجم بقواته اطراف البلاد الواقعة تحت حكم الزبير واستطاع ان يدمر ما كان فيها من مخازن للتجارة والفلال . كان هذا ما ينظره الزبير منذ امد طويل لذا فقد سسارع باستئذان اسماعيل باشا ابوب فى بدء الهجوم على سلطنة دارفور فلم يتردد فى الاذن له بذلك (١٥) .

وكان هذا يغار من مجد الزبير وبسلطته (اسماعيل باشا ابوب) فاراد ان يشارك معه فى الفتح ، وعقدما طلب الزبير منه المدد سمع اليه ما لم يزد على ٢٨٠ حنديا وثلاثة مدافع (١٦) . وقد ذكر عبد الرحمن رضى ان الحكومة المصرية امدت الزبير بخمسة آلاف بندقية ومائة الف خرطوشة (١٧) . وهو ما لم تؤكد به بقية المصادر . ولكن الحكمدار خشى ان يترك للزبير بمفرده غرر الاستيلاء على هذه البلاد وحده ، فوجهت الحكومة حملة اخرى تحت قيادة الحكمدار مؤلفة من ٢٢٠٠ مقاتل من الجنود السودانية والمصرية والتركية والمغاربة والمتطوعين ، واربعة مدافع جبلية وبعض الاسلحة الاخرى . ووكل اليها امر الزحف الى دارفور من الشرق بينما وكل للزبير امر الزحف على دارفور من الجنوب على ان تلتقى الحملتان فى الفاشر عاصمة الاقليم (١٨) .

استعد السلطان ابراهيم للحرب ضد الزبير وسمح لرجاله باصطياد الرقيق من بحر الغزال الذى كان ضمن الممتلكات المصرية (١٩) . وفى اوائل سنة ١٢٩٠ هـ الموافق سنة ١٨٧٣ م

توغل كل من الزبير والنور بيك عنقرة الى ان بلغا حدود دارفور .
فى هذا الوقت كان عرب الرزيقات قد تصدوا بالاعتداء على قافلة
تجارية تمر بالطريق ما بين دارفور وبحر الغزال فقتلوا رجالها
ونساءها ونهبوا متاعها ، فطلب الزبير من السلطان تعويضاً عما
لحق بهذه القافلة من اضرار فرفض طلبه هذا(٢٠) .

وفى ٢٤ ذى الحجة سنة ١٢٩٠ هـ الموافق ١٥ يناير سنة
١٨٧٤ م أرسل السلطان وزيريه احمد شطه وسعد النور ومعهما
جمله مقاديم من امرائه على رأس قوة مكونة من ١٠ آلاف رجل
وقرابة ثلاثة مدافع لحاربة الزبير ، والاستيلاء على شكا واسترداد
بلاد عرب الرزيقات . وقد امتدى هؤلاء على عساكر الحكومة
ونشبت بينهم معركة لمدة ساعة ونصف حتى قتل فيها احمد شطه
وجمله من امرائهم ومقاديم جيوشهم وعدد كبير من عساكرهم وفر
الباقون ، وقد قتل من عساكر الحكومة وعساكر الزبير ما لا يزيد
على المائتى نفر ، واخيراً انتصر الزبير عليهم واستولى على ثلاثة
مدافع وبعض الأسلحة . اما البيرق والدرع والخوذة والسيف
الخاصة بالوزير المقتول . فقد أرسلها مع امداد بتفاصيل ما حدث
للحكمدار وطلب منه ارسال امدادية من العساكر والذخيرة وقد
قام الحكمدار بارسال الامدادات التى طلبها الزبير ، ولكنها لم
تصله الا بعد انتهاء المعركة بيومين(٢١) . وقد دار قتال عنيف بين
الطرفين فى معركتين متواليتين كان النصر فى الثانية من نصيب
الزبير وكان مصير جيش دارفور الهزيمة الكاملة بعد ان سقط قائد
الجيش فى هذه المعركة(٢٢) .

ويذكر سعد الدين على لسان الزبير نفسه فيقول : « فجرت
بينى وبينهما واقعتان كانت العاقبة لى فى كليهما ، وفى الثانية قتل
احمد شطه وسعد النور وابيد جيشهما . عندئذ فتح امامى الطريق

الى دارا فتقدمت اليها واحتلتها وعينت بتحصينها تحصينا قويا
منيعا « (٢٢) .

وبعد هذه الواقعة قام الربير برسالة اسراه من الفوراويين
الى الخرطوم ، وطلب سرعة ارسال الامدادات اليه . وقد اعتبر
الفوراويين اسرى حرب ومعتدين وذلك منذ اصبحت شكا وبحر
الغزال من الاقاليم التابعة للحكم المصري (٢٤) .

وصدر في هذا الخصوص ارادة سنية الى حكامدار السودان
بتاريخ ٢٤ ذى الحجة سنة ١٢٩٠ هـ الموافق ١٥ فبراير سنة
١٨٧٤ م تشير الى انه نتيجة الامتداء الذي قام به الفوراويين
لمن جهات دارفور وجميع محلاتها صارت تعلق الحكومة الخديوية
لذلك وجب اتخاذ الاجراءات اللازمة للاستيلاء عليها . واعدت
مركبتان لهذا الغرض لدخولها من جهتي كردفان وبحر الغزال ،
وتشكيل محبريات في الجهات التي يتم الاستيلاء عليها أولا بأول
وتعيين المديرين اللازمين لها مع تبليغ شكر الجناب العالي للربير
والانعام عليه بالرتبة الثانية (٢٥) .

وكتب الربير بعد انتصاره في هذه المعركة خطبا الى
السلطان ابراهيم بتاريخ غرة محرم سنة ١٢٩١ هـ الموافق ١٨
فبراير سنة ١٨٧٤ م يفكره فيه بما يأتي :

١ - ما قام به عرب الرزيقات من الاعمال العدوانية ضد
الحكومة الخديوية وموقفه السلي من كل هذا .

٢ - ما قام به الربير نفسه من جهود في سبيل فتح بلاد
البريقات واحتلالها منعا لتعدييات هؤلاء العربان على التجارة
والتجار .

٣ - ما أرسله إليه من رسائل وأهملته الرد عليها وخاصة التي طلب فيها الزبير النجدة والمساعدة ضد الرزيقات .

٤ - ما كان من حسن العلاقة والجوار بين آباءه سلاطين دارنورو الدولة المصرية وضرورة استمرار هذه العلاقة الطيبة .

وفي نهاية خطابه لم ينس الزبير أن يدعو للتسليم وأن يروى له تفاصيل المعركة التي دارت بين جيشه وأكابر قواده في ٢٥ ذي القعدة سنة ١٢٩٠ هـ الموافق ١٥ يناير سنة ١٨٧٤ م زيادة في التشفي فيه وإظهاراً لقوته (٢٦) .

وفي الوقت نفسه أرسل الزبير خطاباً آخر لعلماء دارغور بتاريخ شرة محرم سنة ١٢٩١ هـ الموافق ١٨ فبراير سنة ١٨٧٤ م حرصاً منه على أن يبادر هؤلاء العلماء باقتناع السلطان بالعدول عما يدور في نفسه من ضرورة استمرار الحرب بينه وبين الزبير والجنوح إلى السلم حققنا لدماء المسلمين ، ومنعاً لضياح أموالهم . وقد رأى الزبير أن تأثير هؤلاء العلماء قد يكون أكثر وقعاً في نفس السلطان منه هو شخصياً على أساس أن هؤلاء يمثلون الدين ورأيهم في ذلك هو رأي الدين . وقد شرح لهم الزبير في خطابه الهدف الذي جاء به إلى بلاد الرزيقات ، وأعاد عليهم ما كتبه إلى السلطان حيناً منه في رفع الحرب ، وحقنا لدماء المسلمين ثم ختمه بقوله : « غالأمل من حضراتكم يا علماء الاسلام أن نفيدونا عما دأب سلطانكم إلى محاربتنا وهلاك مساكنا المسلمين منا ومنه . فإن كان له وجه شرعى في ذلك ونحن المخالفين للشرعية فنحن نشكركم على ما أجهاد ونطلب منه المغفرة وإن كان هو المحالف فكفى بالله شبيداً بيننا وبينه ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم » (٢٧) .

وسدوا أن الحكومة الخديوية كانت تخشى تدخل موظفي الدول الأجنبية في هذا الموضوع نتيجة الاجراءات التي تتخذها للاستيلاء

على دارفور ، لذلك نراها ترسل الى حكامدار السودان ثلغرافين بتاريخ ٢٢ ذى الحجة سنة ١٢٩٠ هـ الموافق ١٥ فبراير ١٨٧٤ م تعلمه بما يجب التصريح به لموظفي الدول الاجنبية والسسياس الاجانب من تدخل الحكومة الخديوية في دارفور بأن مسبب ذلك هو حرص الحكومة على منح تجارة الرقيق في هذا الاقليم ولو بالحرب ورد عدوان هؤلاء الامورايين على حدود الممتلكات المصرية في السودان (٢٨) .

الاتصالات بين القاهرة والخرطوم :

بلغ مدير كردفان بعد ذلك ان السلطان اعتراه قلق عظيم من حركات الزبير واستمر في جمع الجيوش الكثيرة لمقاومته ، وانه عازم على تولى قيادتها ضد الزبير بك كما انه قام بسد الطريق ما بينه وبين كردفان ، ونتيجة لذلك أصبح احتمال وقوع الحرب بين السلطان والزبير امرا لا مفر منه ، فابلى مدير كردفان حكامدار السودان بهذه الاخبار ، ورأى الأخير أن يبعث بنجندات للزبير على سبيل الاحتياط . وعندما بدأت الوقائع بين عساكر الزبير وعساكر السلطان ابلى الحكامدار الحكومة الخديوية في القاهرة بذلك (٢٩) .

في ٢٤ ذى الحجة سنة ١٢٩٠ هـ الموافق ١٥ فبراير سنة ١٨٧٤ م بعث برسالتين الى المعية السنية تشرح فيهما الحالة شرحا وافيا بناء على ما ابلغه به مدير كردفان ، وأوضح الحكامدار في برقيته ايضا انه امر بتجهيز ثلاثة بلوكات من العساكر . ومائة عسكري خيالة باشموزق ومدفع لارسالهم الى الزبير . كما انه كتب الى مدير كردفان ليبعث للزبير بمائة خيال ومدفع ، وبومسون هذه الامدادية للزبير بك بصير جملة الموجود بطرفه من القوات

اورطة بيادة مستكبة، وأربعمئة خيال ، وأربعة مدافع ، هذا بخلاف الموجود من جماعته وعساكره وعساكر التجار الموجودين معه . كما أنه أشار بأنه أمر الزبير بأن يكتفى بالمحافظة على مديريته بحر الفزال فقط (٣٠) .

وفي الخامس والعشرين من نفس الشهر وردت للحكمدارية برقية توضح ضرورة نجدة الزبير بك باللازم من العساكر والمدافع والفخيرة والتنبية عليه بالدخول في حدود دارفور وسوق العساكر في المحلات التي يوجد بها مياه ، وعمل اللازم نحو فتح الطريق ما بين بحر الفزال وكردفان إذا كان مسدودا (٣١) .

وفي ٢٦ ذى الحجة سنة ١٢٩٠ هـ الموافق ١٧ فبراير سنة ١٨٧٤ م بعث الحكمدار للبعية بطغرافين يطلب فيهما الامدادات اللازمة لنجدة الزبير ولاعداد الحملة المزمع ارسالها لفتح دارفور ، وما يلزم لهذه الحملة من عسكر وأسلحة وذخائر ومهمات ومؤن وأموال ووسائل نقل من خيول وجمال ، كما شرح صعوبة الطرق وقلة المياه بها (٣٢) . وفي تلغرافات يحمل نفس التاريخ طلب الحكمدار من القاهرة الموافقة على قيامه بنفسه الى كردفان للاشراف على اعداد الحملة المزمع ارسالها لغزو دارفور من جهة الشرق ، وتعيين محمد سعيد وكيله عنه بالحكمدارية أثناء غيابه (٣٣) .

أبرق أيضا الحكمدار يقترح ارسال الامدادات التي طلبها لنزير مطري سواكن وكورسكو أبي حمد وذلك لصعوبة توفير ووسائل النقل اللازمة من مركز واحد (٣٤) . كما أخبر الحكمدار خيرى باشا بأن الطريق ما بين الخرطوم وكردفان مفتوح أما طريق كردفان دارفور فهو مغلق (٣٥) . وفي الثامن والعشرين من ذى

الحجة سنة ١٢٩٠ هـ الموافق ١٩ فبراير سنة ١٨٧٤ م وردت للحكمдар برقية تحمل أوامر له بعدم مبارحته الخرطوم انتظارا لما سوف يصدر له من أوامر وتعليمات بعد ذلك (٣٦) . وفى ٢٩ ذى الحجة رد الحكمدار بالموافقة على ما جاء بهذه البرقية من تعليمات ووجد طلبه من القاهرة بخصوص تعيينه على قيادة الجيش المتوجه لفتح دارفور لتسهيل وتسهيل كافة المصائب التى قد تعترض أعداد هذا الجيش (٣٧) .

وفى السادس من محرم سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٢ فبراير سنة ١٨٧٤ م أجابت القاهرة على الحكمدار فى برقية مجلة بخصوص مطالبه من العساكر والأسلحة والمؤن والأموال من أجل الأعداد لغزو دارفور ، إلا أنها رأت أن يؤجل غزو دارفور من جهة كردفان فى الوقت الحالى . وكانت الخطة التى وضعت للاستيلاء على سلطنة دارفور تقوم على أساس مهاجمتها من جهتي كردفان وبحر الغزال ولكن رأى الاكتفاء بالهجوم عليها من جهة بحر الغزال بصفة مؤقتة (٣٨) .

وقد أجاب الحكمدار على هذه البرقية فى الثامن من نفس الشهر بما يفيد استيعابه للتعليمات التى أرسلت إليه ، كما أوضح مدى المصاريف الباهظة التى ستتكلها إقامة العساكر المرسلة الى بحر الغزال ، وهو أمر ليس فى استطاع ميزانية هذه المديرية الوفاء به ، ولا حتى الزبير بك لذلك اقترح على الحكومة أن يرسل العساكر للزبير بالتدريج وكلما طلب ذلك مع أحالة مصاريهم على الحكمدارية ، وقد أوضح أنه عرض على الزبير بك تعليمات الحكومة ليبدى رايه فيها (٣٩) .

وقد وافقت الحكومة على مقترحات الحكمدار بوقف إرسال العساكر اليأشوبوزق من مصر على أن يرسل له أورطة عسكرية

مظاہیة جہادیة من السودان الشرقی فی الوقت الحاضر ، وقد طلبت الحكومة فی ردها علی برقیة الحکمدار ضرورة الاسراع فی ارسال الثبائن الذین وعد الزبیر بارسالهم الی مصر ، وذلك لتدريبهم علی الحركات العسکرية والعمل علی تشسکیل اورط عسکرية نظامية منهم واعادتهم للسودان (٤٠) .

وفی الحادی عشر من محرم سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٨ مبرابر سنة ١٨٧٤ م أرسلت ارادة سنية الی الزبیر بترقیته الی الرتبة التالية نظرا لما أبداه من همة كبيرة فی هزيمة العساكر الدارفورية ومقتل وریرهم ، وأسر جنودهم ، وجهود الزبیر ایضا فی منع تجارة الرقیق ، وضبط الأحوال بمديرية بحر الغزال (٤١) .

بعد أن اتفقت آراء القاهرة والخرطوم مع رأى الریر فی وجوب فزو دارفور ، بدأ كلا الطرفين فی التعاون من أجل انجاز تلك المهمة . وكانت البداية فی صورة النجدة التي بعث بها الحکمدار للزبیر عندما حدث أول تصادم مع جيوش دارفور . بعدها جرت اتصالات موسعة بین المسئولين فی القاهرة والخرطوم من جهة والزبیر من جهة أخرى لاستكمال هذا التعاون الذی وضحت صورته فی نصوص البرقیات التي عرضنا لها سابقا ، والتي انتهت الی ضرورة العمل الجدی لاتمام هذه المهمة علی وجه السرعة . وقد عکس هذا التعاون الاهداف الحقيقية للحكومة الخديوية من حيث رغبتها فی ضم هذه السلطنة لممتلكاتها فی امريتيا قبل أن یظهر الزبیر بهذه الغنیمة وحده دونها . وقد استمر سبل البرقیات التي تحمل انباء الاستعدادات بین القاهرة والخرطوم لمدة كبيرة .

ففی ٢١ ربيع الاول سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٨ یونیه سنة ١٨٧٤ م أبرقت القاهرة الی حکمدار السودان تستعجل فیها

أرسل الثبان الذين كان الزبير قد وعد بإرسالهم إلى مصر بما يكفي تشكيل أورطنين أو أربع لتدريبهم وإعانتهم للسودان (٤٢) .

وفي ٢٧ ربيع أول سنة ١٢٩١ هـ الموافق ١٤ يونيو سنة ١٨٧٤ م وردت برقية للمعية تفيد بأن الزبير قد أرسل إلى الحكمدارية ما صار اغتنامه من مهاربته السابقة مع خرافور من أسلحة ومذامع وخلافه مع الأشياء المتعلقة بأحد الوزراء (٤٣) .

وقد تطلبت كل هذه الاستعدادات التي كانت تجري من جانب كل من الحكومة الخديوية في مصر ومثلها في الخرطوم مصاريف باهظة . كما أن الزبير لم يكن لديه من الأموال ما يستطيع الاستمرار في الصرف على جيشه الخاص ، ودفع مرتبات العساكر والضباط المرسلين إليه في صورة نجدات من الحكمدارية . لذلك أرسل إلى الحكمدار يطالبه بدفع مبلغ ثلاثة آلاف كية نقدية قيل أنه أي الزبير قد دفعها للضباط لصرفها في استحقاقات العساكر جماعة البلالى والعساكر الذين كانوا معه قبل حدوث الواقعة ، فلم يلبث الحكمدار أن أبلغ القاهرة بتفاصيل هذا الموضوع في برقية بعث بها في ٤ من ربيع الثاني سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢١ يونيو سنة ١٨٧٤ م (٤٤) .

وفي الثامن والعشرين من جمادى الأولى سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٤ يوليو سنة ١٨٧٤ م صدر أمر كريم إلى الحكمدار يحمل الموافقة على صرف المبلغ المذكور للزبير (٤٥) . ولا يخفى أن السبب الذي اضطر الحكومة الخديوية للموافقة على طلب الزبير هو خوفها من أن يتراجع عن عزمه في غزو دارفور ، حينئذ سوف تجد الحكومة نفسها وقد ألقى عليها عبء فتح دارفور وحدها وهو أمر لم يكن لتوافق عليها . كما أنها كانت تهدف إلى ما هو أبعد من ذلك وهو

الاستفادة قدر الامكان ولحد أقصى من حماسية وجهود الزبير وجيشه في انهاء هذا الفتح .

وبينما كانت الأمور تسير على هذا النحو ، كان الزبير ماضيا في اتخاذ الاستعدادات العسكرية فقد أجرى تشكيل ثلاثة أوردى (٤٦) بأثسبوزق وعين عليها كل من طه أقا محمد الملك الشايقي ، ومالى محمد أقا قولنق أغاسى ، ويوسف أقا أرناؤط وذلك بمرتب شهري ألفى قرش ومرتب بربر الفين وخمسمائة قرش . وفى السابع عشر من ربيع الثانى صدر أمر كريم الى حكمةدارية السبودان بالموافقة على ما أجراه الزبير من تعيينات للأشخاص المذكورين (٤٧) . وقد تطلب تشكيل هذه الأورديات الثلاثة الكثير من النفقات المتمثلة فى الأموال والمهمات وخلافه لهذا أرسل الزبير رسولا بالنيابة منه الى الخرطوم بطلب صرف جانب من هذه المهمات وطلب الأموال اللازمة لدفع مرتبات الجنود لكي يستطيع أن يستمر فى استعداداته العسكرية التى بدأها . لرفع الحكةدار طلب الزبير هذا للمعية لأخذ الموافقة عليه وصرف مبلغ الألف كيسة التى طلبها الزبير (٤٨) .

وفى غرة جمادى الأولى سنة ١٢٩١ هـ الموافق ١٦ يونية سنة ١٨٧٤ م اتخذ الزبير لنفسه مركزا لجميع المسافر لجهة تسمى الكلكة (٤٩) . فى حين كان الدارغوريون فى الجانب الآخر متهيئين للقتال فى أية لحظة (٥٠) .

وفى ٣ جمادى الأولى سنة ١٢٩١ هـ الموافق ١٨ يونيه سنة ١٨٧٤ م أبرق الحكةدار الى خيرى باشا بما يفيد بأنه قد كتب للزبير بضرورة قيامه بتنظيم المديرية وربط الأموال على أهاليها وتقوية مركزه ، والمحافظة على حدود مديريته بحر الغزال حتى

يتم ارسال العساكر والاسلحة اللازمة للدخول في دارفور كما هو
عازم على ذلك (٥١) . وقد جاء رد الحكومة على برقية الحكمدار
في ٥ جمادى الاولى الموافق ٢٠ يونيو من نفس السنة بما يتيد
معموية ارسال العساكر والاسلحة المطلوبة على وجه السرعة
في الوقت الحالي لامتبارات بعد المسافة بين مصر والسودان
واشارت على الحكمدار بأن يحاول نجدة الزبير بتدبير اورطة من
الخرطوم لحين ارسال بدل منها من مصر حتى لا يتوقف سسير
الامور (٥٢) .

وفي برقية تحمل تاريخ ٦ من جمادى الاولى الموافق ٢١ يونية
ابلى الحكمدار خبرى ناشأ عدم اتصال خط التلغراف مع منجر
ك ورفضه ارسال اورطة من طرفه ، وهرمه أى الحكمدار على
السفر الى كردفان لجمع ما يمكن جمعه من العساكر الشايقية
والجهادية لنجدة الزبير وتذليل الصعاب التي تقف حائلا دون
ذلك (٥٣) . وفي السابع من نفس الشهر الموافق ٢٢ يونيه أبرقت
الحكومة للحكمدار بأرادة سنية تعليه بموافقتها على ما عرضه من
ضرورة قيامه الى كردفان لجمع العساكر وتوكيل نائب
عنه بالخرطوم في مدة غيابيه . وتم تعريفه أيضا بأن الحكومة قد
ارسلت له أربعة بلوكات من العساكر الجهادية من سواكن وذلك
خلاف ما اتفق عليه مسبقا (٥٤) . وأما من جهة الزبير فانه حدثت
بينه وبين الدارفوريين معركة بتاريخ ٤ من جمادى الاولى سنة
١٢٩١ هـ الموافق ١٩ يونيه سنة ١٨٧٤ م هاجمه فيها السلطان
ابونا وإلى جهات دارفور الصميدية (٥٥) . على رأس جيش قوامه
اثنا عشر ألف رجل ، فتصدى لهم الزبير على رأس قوة قوامها
الخمسة وستمئة نفر ، فهزمهم وقتل قائدهم السلطان ابونا وأسر
ابنه ، وابلغ الحكمدار نسا بعد بذلك ، الذي أرق للعاهرة في
المأشر من نفس الشهر يبلغها بما حدث (٥٦) .

وفى الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٩ يوليو سنة ١٨٧٤ م أرقى الحكمدار للقاهرة وهو فى كردفان يظنها بأن الزبير لما وجد السلطان قد استصحب جميع عساكره توجه أيضاً هو بجميع عساكره ، وأنه صيانة لشرف الحكومة أرسل ما استطاع جمعه من العساكر والأسلحة لنجدة الزبير . ويتوى التوجه على رأس قوة أخرى بنفسه ليدعم موقف الزبير ويأمل أن يكون نتج دارفور ميسسرا (٥٧) . وأجابت الجمعية فى الخامس من رجب سنة ١٢٩١ الموافق ١٨ أغسطس سنة ١٨٧٤ م بالموافقة على ما اتخذ الحكمدار من تدابير وإجراءات أزاء ما بيته سلطان دارفور من نية العدوان ، وتبلغه أمل الحكومة فى أن يعجل بأمر الحاق هذه المنطقة بالحكمدارية (٥٨) .

وفى غرة رجب من نفس العام الموافق ١٤ أغسطس سنة ١٨٧٤ م أبلغ الحكمدار الجمعية بأنه قد قام فعلا من كردفان على رأس الحملة التى أعدها ، والتى تكونت من أورطة جهادية مسلحة ببنادق حديثة ، وأوردى بالثبوزق مكون من أربعمائة نفر خيالة وهجائية ، وثلاثة مدافع وذلك خلاف ما سوف يلحق به من عساكر الشايقية ، وغيرهم بطريق كردفان ثم شنقة ومنها إلى الفاشر ، وأن الزبير قد أبلغه بأنه قد ترك مركزه فى الككلة الى محل يقال له النمر على مسيرة يوم واحد من بلدة داره (٥٩) .

وفى الحادى عشر من رجب من نفس السنة أبرقت القاهرة للحكمدار لتقليغ شكرها للزبير وللعساكر ولرؤسائهم على ما بذلوه من جهد فى حفظ شرف الحكومة ، وانزال الهزيمة بالعساكر الدارفورية بعد مقتل قائدهم السلطان أبونا (٦٠) .

وأرسل خيرى باشا برقية الى سعادة ناظر الحقانية والى سعادة ناظر الخارجية تحمل تاريخ ١٢ رجب سنة ١٢٩١ هـ الموافق

٢٥ أغسطس سنة ١٨٧٤ م ألغى فيها ما حدث من جانب سلطان دارفور من تعد على قوات الحكومة الخديوية ، وتمسدى تلك القوات لهم وانزال الهزيمة بهم . كذلك استتسارت البرقية لهدف حكومة القاهرة من فزو دارفور وهو القضاء على تجارة الرقيق فيها لأنها اى دارفور تمثل مركزا خطيرا لانتشار هذه التجارة . وقد تم احاطة ناظرى الحقائق والخارجية بهذه المعلومات الرسمية لكي يستطيعا الادلاء بأية استتسارات أو تصريحات حول موقف حكومة الخديو من غزوه دارفور اذا ما طلبت ذلك اى جهة أجنبية (٦١) .

شكوى سلطان دارفور للخديو من حركات الزبير والحكماء :

قبل أن تتطور الأمور الى أخطر من هذا ، رأى السلطان أن يعرض ما بينه وبين الزبير من نزاع على الخديو فى القاهرة لعله يجد مخرجا أو حلا عنده لذلك . فبعث له برسالة فى الرابع من رجب سنة ١٢٩١ هـ الموافق ١٧ أغسطس سنة ١٨٧٤ م يشرح له فيها تعديت الزبير على حدود مملكته كما ادعى ذلك فى خطابه ، وتأيد الحكماء لهذه التعديت ويذكر الخديو بالعلاقات الطيبة التى كانت قائمة بين سلطنة دارفور ومصر أيام أبيه ، ويطلب منه التدخل للحد من هذه التعديت بمصلحته الشخصية ، أو التدخل للوساطة بينه وبين الزبير (٦٢) .

وبالطبع فإن الخديو لم يعط لهذه الرسالة أية أهمية ، لأن جميع تحركات الزبير والحكماء كانت بتوجيه من الخديو شخصيا ، كما أن سلطان دارفور كان هو البادى بالعدوان وليس الزبير .

ولم يكن أمام السلطان إبراهيم بعد أن مثل معصاه لدى الخديو اسماعيل لانقاذه سوى أن يجد لنفسه مخرجا آخر من

يتوجهوا منها الى الحجاز ومن هناك الى الاسكانة بقصد التخلص من محاربة الحكومة الخديوية ، وبناء على ما ذكر من معلومات تم عرض الموضوع على جناب الخديو للنظر ، واصدار الامر لمراقبة الأشخاص المذكورين او القبض عليهم عند حضورهم لمدينة اسيوط مع مراعاة مراقبة موانئ الاسكندرية والسويس حتى لا يستطيعوا الهروب من البلاد (٦٤) .

وفي الخامس والعشرين من رمضان سنة ١٢٩١ هـ الموافق سنة من نوفمبر سنة ١٨٧٤ م اجابت القاهرة بمراسة سنية على برقية الحكمدار بانه قد تم القبض على الرسل التابعين لسلطان دارفور بجهة واحات اسيوط ، وضبط جميع ما معهم من مكاتبات وغيرها وانه وجد من بينهم شخص مخصوص يحمل مكتبة للخديو . وقد نوهت البرقية للحكمدار الى ضرورة الاسراع بالاستعداد للاستيلاء على الفاشر سواء يضم قواته مع قوة الزبير ، والدخول في معركة مع الامير قبل الدخول الى الفاشر ، والقاء القبض عليه وارسال اقاربه الى كردفان ، والعمل على ادخال البلاد المجاورة لدارفور تحت طاعة الحكومة ، والاقامة بالفاشر بعد الاستيلاء عليها مع المقدار الكافي من العساكر على ان يرسل الباقي منهم الى الزبير ، وابلاغه بقوم حسن بك على رأس قوة للاقامة في ام شنقة للمحافظة عليها وان يجعل الطسرق مفتوحة بينه وبين الفاشر وكردفان ، وتبلغ سلام الجناب العالي الى الزبير وكافة الضباط والعساكر (٦٥) .

وفي السادس عشر من شوال سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٧٤ م ارسلته القاهرة للمرة الثانية برقية لغرض مهم قبلي تعيد عليه ما سبق ذكره من ضرورة حفظ الصرر وبقية الاشياء التي وجدت مع رسل السلطان وارسلها مع مندوب

وأعلامهم متى قتل السلطان ، ودخول بلاده في حيز الحكومة المصرية وتخلييرهم بين الرجوع الى بلادهم احرارا أو المثل بين يدى الجناح العالى الخديو اذ رغبوا في ذلك وهم احرار ايضا ، وفى الحالة الاولى يحرر مكاتبه بذلك لحكماء السودان (٦٦) .

وفى ١٥ ذى القعدة سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٧٤ م اجابت القاهرة على برقية الحكماء المؤرخة فى ٢١ شوال من نفس السنة بانه تم احضار الرسل المذكورين للقاهرة واکرامهم ونائبهم على انفسهم واموالهم وأولادهم وانهم مقيمون بالمسافر خانة ، وانه قد تنبه عليهم بأن النقود المثل عنها لى لسر تجار القاتر وأخوته لهم الحق فى التصرف فيها فى أسباب التجارة أو حفظها بدون أى معاوضة (٦٧) .

وعلى فرض نجاح سفارة السلطان فى الوصول الى الاسنانية والاتصال بالباب العالى — وهذا لم يحدث — فانها من المؤكد كانت سوف تعود كما ذهبت بدون أية نتيجة . وذلك لأن فرمان الصادر فى ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ م كان قد ذكر سلطنة دارفور ضمن الاقاليم السودانية التى صارت تبعيتها لى على مدى الحياة، ولكن سلطنة دارفور ظلت مستقلة حتى تولى الخديو اسماعيل الحكم فى مصر . ولم تكن سلطنة دارفور تدين بأية تبعية للسلطان العثمانى الى أن تم غزوها بواسطة جيش الزبير بالاشتراك مع جيش الدولة المصرية ، فانهزمت وخضعت لحكومة الخديو ، وانطبعت عليها ممارسة . فوق السيادة التى كان مالها النهائى فى حكومة القسطنطينية بحكم تبعية الحكومة ذاتها للسلطنة العثمانية (٦٨) .

وقد ترتب على مثل بحثة السلطان هذه نتائج وعوامل كثيرة جعلت الامل فى عدم قيام حرب بينه من جهة والدولة المصرية

والزبير من جهة اخرى يكاد يكون سرايا . ومن ثم شرع يستعد للموقف ويأخذ حذره حتى يتمكن من صد هذا الغزو المتوقع .

موقعة الثسرتاي احمد نمر :

لم يكد جيش الزبير يصل الى دارة (٦٩) . ويتحصن بقلعتها حتى نشط احمد نمر زعيم البرقة (٧٠) ، فجمع شتات جيش الوزير احمد ثسطه وحاصر الزبير وجيشه في قلعة دارة ، واخذ يشاغلهم كسبا للوقت حتى تصله الامدادات التي كان يبعدها له السلطان ابراهيم بقصد القضاء على الزبير والثار لما نالته قواته من قتل على يديه . ولكن الزبير لم يحرك ساكنا تجاه هذا الحصار بل صبر على احمد نمر هذا حتى علم بمقدم النجسدة التي كان ينتظرها ، عندها ارسل لهم احد قواده هو رابع بفرقة من الجيش فنشبت بينهما معركة قصيرة ، لم يلبث ان قتل فيها احمد نمر وانهزمت القوة التي معه ، وغنم الزبير في ذلك الوقت غنائم كثيرة من الخيول والدروع والخوذ والماشية وخلافه (٧١) .

وكان الزبير قد بعث في ٣ رجب سنة ١٢٩١ هـ الموافق ١٦ أغسطس سنة ١٨٧٤ م برسالة الى السلطان ابراهيم يدعو فيه مرة اخرى للتسليم وملخص ما جاء فيها :

أولا : ذكره بما كان من تعديت عرب الرزيقات عليه وعلى المسلمين من التجار بدون وجه حق وموقفه المؤيد لهم :

ثانيا : أخبره باستيلائه على دارة واصراره بل تمسكه على عدم الانسحاب منها مهما كانت الظروف والنتائج .

ثالثا : نصحه بالنزول عن ملكه والاذعان لاوامر الحكومة الخديوية في مقابل إعطائه الأمان في أمواله وأهله حتى يمكن تلافي وقوع الحرب بينه وبين الدولة المصرية .

رابعاً : ذكره بضرورة الكف عن القيام بالتحركات العسكرية
ضده والجنوح الى السلم (٧٢) .

كان هذا الخطاب هو الاخير الذي وجهه الزبير الى السلطان،
وبعده لم يجب السلطان على هذا الخطاب ، ومن ثم بدأت الامور
تسير الى اسوأ في غير صالح السلطان .

موقعة الأمير حسب الله :

استشاط السلطان ابراهيم قنصبا من مكاتبات الزبير له وطلبه
منه التسليم او الحرب . فلم ير السلطان مفرأ من أن يجهز له
جيشاً آخر يستطيع انزال الهزيمة الساحقة به . ومن ثم أسرع
باعداد جيش ينوف عدده على المائة ألف مقاتل من بينهم عدد كبير
من الفرسان المدرعين والاشاة المسلحين بالبنادق . عقد السلطان
لواء هذا الجيش لعمه الأمير حسب الله . سار هذا الجيش العرمرم
قاصداً داره فدخلها في ٢٥ أغسطس سنة ١٨٧٤ م ، وشرع في
احكام الحصار حولها من جهاتها الأربع ، ثم انفذ الأمير حسب الله
رسلاً الى الزبير مع رسالة يقول له فيها : « لقد دخلت بلادنا
وقتلنا وزيرنا احمد شططه ومن بعده احمد نمر فخرج الآن من
بلادنا ، ونتمهد لك بأن نشيعك بالسلامة والامان . . » وقد اجاب
الزبير امضاء الوعد بأن يبلغوا الأمير حسب الله بأنه اى الزبير
قد دخل بلادهم بقصد اخضاعها لحكومة جناب الخديو ولا ينوى
الخروج منها الا بقدر من الله ، فان كانوا قد جاموا للحرب فليتقدموا
لها والا فليعلم أن يعودوا من حيث أتوا (٧٣) .

وكان الزبير قد بعث من قبل برسالة الى الأمير حسب الله
بتاريخ ١٢ جمادى الاولى سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٧ يونيو سنة
١٨٧٤ م بملخص ما جاء فيها :

أولاً : عرض على الأمير حسب الله تولى سلطنة دارفور بدلاً من السلطان إبراهيم لما بلغه عنه من الخلق الحسن والدرجاة الكاملة والرأفة والشفقة على أحوال المسلمين .

ثانياً : شرح له تفصيلات معاركه السابقة مع كل من أحمد شطه وأحمد نمر وكيف أنه هزمهم وكنفهم بأعز الأمتعة ودينهم مع بقية الوزراء والمقاديم والملوك بما يليق بمكانتهم (٧٤) .

وقد كان السميت النام هو الإجابة على رسالة الزبير فلم يجب الأمير حسب الله عليها تهماً كما فعل السلطان إبراهيم من قبل في الرسائل التي تلقاها من الزبير .

المسركة الأولى :

بدأت هذه المعركة بعد عودة رسل الأمير حسب الله إلى معسكرهم وإبلاغه بإجابة الزبير على رسالته . ولقد تصادف أن وقعت إبصار الرسل الذين حملوا الرسالة إلى الزبير على بعض جنود النيام نيام الدين يضمهم جيش الزبير ، وقد اجتمعوا على جثة آدمي يقتسمونها فيما بينهم يأخذ بعضهم الرأس والقديين والبعض الآخر اليدين والصدر ، ثم يشرعون في شئ هذه الأجزاء على النار وعند عودة الرسل المذكورين إلى معسكرهم لم ينسوا أن يرووا لأخوانهم ما شاهدوه من وحشية جنود الزبير وقسوتهم ، ولعل هذا قد ملامهم بالرعب وخوفهم من قتال الزبير . غير أنه على أية حال لم يكن هناك مقر من الحرب وحدثت تصادم بين القوتين ، فلم تلبث قوات الأعداء أن أقاموا معسكرهم على مسافة غير بعيدة من رامي بنادق واسلحة جيش الزبير . ثم بدأوا في مناوشاتهم وكان مع الزبير زهاء ١٢٠٠٠ مقاتل مسلحين بالبنادق الرامتون الألمانية ، فأخذت قوات الزبير تصلى الأعداء نيراناً حامية

كل يوم من قبل الشروق الى ما بعد منتصف الليل ، وصبر جنود دارفور على هذه النيران لمدة سبعة أيام طوال . استطاع الزبير خلال تلك المدة أن يهلك منهم عددا كبيرا الا أن هذا الحصار استمر مع ذلك واستمرت معه المناوشات ، ومضت الأيام طويلة على هذا الحال حتى أوتسكت ذخيرة الزبير على الزناد وفرغت مؤنه ، ومضى على رجاله يومان بلا طعام (٧٥) .

المعركة الثانية :

بينما كان الزبير يترك في الخلاص من هذا الحصار بالهجوم على جيش الأمير حسب الله وفد عليه واحد من قادة جيش دارفور اسمه الملك أحمد ليفتدي ابنته التي كان الزبير قد أسرها في موقعة أحمد شطه عارضا عليه في مقابل ذلك . ١. أوقيات من الذهب وكان الزبير قد وضع أسراه في قبة جامع داره ، ومن فوق هذه المئذنة كان يستطلع ما يدور في معسكر الأمير حسب الله ، فإذا به يرى حركة وجلبة غير عادية ، فأسرع بالهبوط ودعا الملك أحمد ومرضى عليه أن يذهب نياتيه بأنباء ما يحدث في معسكرهم في مقابل أن يسلم له ابنته دون مقابل من الذهب ، واقسم له على القرآن بذلك فقبل أن يذهب ويأتيه محبقة الأنباء ، فلما بلغ معسكرهم أخبر قومه بأن الزبير يطلب منه ٢. أوقية من الذهب فداه لابنته ، ولما لم يكن معه سوى ١. أوقيات فقط ، فقد حاد ليأخذ العشر الباقية وعندئذ أعطوه ماله واستحثوه على المبادرة باحضار ابنته سريعا لأنهم ينوون الهجوم على الأسوار من جميع الجهات في اليوم التالي ، فعاد الملك أحمد ومعه الذهب والأخبار . وكان هذا في مساء يوم الخميس ٣١ من أغسطس سنة ١٨٧٤ م وهو اليوم الذي بدأت فيه هذه المعركة . كان الفورأويون في تلك الليلة قد شربوا الخمر واكلوا كثيرا وثابوا مبكرين استعدادا

للهجوم في اليوم التالي . انقهر الزبير هذه الفرصة الثمينة وعول على مفاجاتهم وهم نيام ، فخرج اليهم في ثمانية آلاف رجل على هيئة مربع ، وسار في جنح الليل حتى لم يعد يفصله عن معسكرهم سوى ألف متر تقريبا ، عندئذ أمر رجاله بإطلاق نيران أسلحتهم على الأعداء ، فصسبوا عليهم وابلا من الرصاص المنهر ، عندئذ هب هؤلاء من نومهم مذعورين وقد أخذتهم المفاجأة وبدأوا في إطلاق رصاصهم على جثود الزبير ولكن بعد نوات الأوان ، فقد كان معسكرهم قد تحول إلى ما يشبه جمرة من النار . وفي أثناء هذه المعركة أصابت الزبير طلقة طائشة في يده اليمنى فجرح جرحا بليغا ، ولكنه لم يعأ به بل مضى بين رجاله يصدر لهم الأوامر ويشدد من عزائمهم . فلما أصبح الصباح كان معسكر الأعداء قد تمزق شرا ممزق . وكان رجال جيش الأمير قد ولوا الأدبار خلفين وراءهم الأرض وقد غطتها جثث قتلاهم ومن بينهم أربعون رجلا من أبناء السلطان ، فشرع الزبير بعد ذلك في جمع الغنائم هو ورجاله فكان من بيئها نحو ألف درع و ٢٧٠٠ خيمة وثمانية مدامع قديمة نقش على بعضها اسم سعيد باشا إلى جانب الكثير من الأسلحة والفخائر الحربية والمؤن التي تكتفي المدينة لمدة أربعة شهور . عندما فرغ الزبير من الاستيلاء على كل هذا عاد بجيشه إلى المدينة وتحصن بقلعتها من جديد وهكذا انتهت المعركة الثانية بهزيمة منكرة لجيش الأمير حسب الله الذي عاود الهجوم للمرة الثالثة على أسوار قلعة داره من جديد (٧٦) .

المعركة الثالثة :

وقد بدأت هذه المعركة في الثامن من سبتمبر سنة ١٨٧٤ م عندما تمكن الأمير حسب الله من جمع ثلثات جيشه المنهزم ومعاودة الهجوم على أسوار المدينة من جديد ، ودار قتال

عنيف بين جيشيه وجيش الزبير استمر لمدة أربع ساعات متوالية حتى كثر القتلى في جيشيه وهاقت به الهزيمة الكاملة . وقد قام الزبير على رأس جيشيه بتتبع ومطاردة الفارين لمسافة طويلة عاد بعدها للتحصين بالقلعة من جديد استعدادا لأي هجوم آخر من جهة دارفور (٧٧) .

وطبقا لما ورد بالوثائق فقد بلغت خسائر جيش الأمير حسب الله في هذه الممارة الثلاث حوالي ستة آلاف رجل وذلك بخلاف الجرحى . بينما بلغت خسائر جيش الزبير من عساكره وعساكر الحكومة حوالي أربعمائة رجل . وقد أبلغ الزبير تفصيلات ما حدث في هذه الموقعة بمعاركها الثلاث إلى اسماعيل باشا أيوب الذي كان وقتذاك على رأس حملة التمسرق التي كانت قد وصلت في تقديدها لأم شنقة في رسالتين وصلت أحدهما للحكمдар في الثامن عشر من شعبان سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٩ ديسمبر سنة ١٨٧٤ م . وقد قام الحكمдар بأبلغ القاهرة بتفصيلات ما حدث في هذه الموقعة في برقية بعث بها في ٧ رمضان ١٢٩١ هـ الموافق ١٨ أكتوبر سنة ١٨٧٤ م ، وكان قبل ذلك قد أبلغ القاهرة بأن الزبير محاصر بقلعته في دارا بواسطة جيش الأمير حسب الله الذي حضر إليه بداره بتاريخ ١١ رجب سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٤ أغسطس سنة ١٨٧٤ م وغير متيسر الاتصال به (٧٨) .

ونظرة على هذه الموقعة ترينا أنها واحدة من الوقائع الرئيسية التي شملت عملية فتح دارفور التي كانت لها أثرها البالغ في كسر شوكة جيوش سلطان دارفور والتعجيل باتمام عملية الفتح .

عوامل انتصار جيش الزبير وهزيمة جيش الأمير حسب الله :

من خلال الأسطر التي تناولت تفاصيل المعارك الثلاث التي دارت رحاها بين الجيشين نستطيع أن نستشف عوامل انتصار جيش الزبير وعوامل هزيمة جيش الأمير حسب الله وتتلخص في الآتي :

أولا : برغم ضخامة جيش الأمير حسب الله في العدد الذي وصل حسب ما ورد في المراجع إلى مائة ألف مقاتل أو ما يزيد ، واحتوائه على عدد كبير من الفرسان المدرعين والمثاباة المسلحين بالبنادق ، وقلة عدد جيش الزبير الذي بلغ اثني عشر ألف مقاتل بالنسبة لجيش الأمير . فإن الأمير حسب الله لم يستغل تلك الميزة التي توافرت في جيشه في العدد والتسلح في وضع خطة محكمة ترمي إلى فرض حصار محكم حول قلعة داره التي كان يعيش الزبير ويتحصن بها ، ويرسل له من بناوئه ويستنفذ ذخيرته ورجاله ومؤننه ، فيضطره عندئذ للخروج إليه من قلعته . ومن ثم يمكنه الحاق الهزيمة به في سهولة ويسر ، ولكن الأمير لم يفعل ذلك بل أن حصاره حول القلعة لم يطل أمده بعدها تحرك لاقامة معسكر لجيشه في مكان ليس بعيد من أسوار القلعة ولا مرأى أسلحة جيش الزبير وهذا يدل على عدم الملم الأمير حسب الله بأبسط القواعد العسكرية إذ أنه كان هدفا سهلا أمام رجال الزبير هو وجيشه .

ثانيا : كان لاقامة جيش الأمير لمعسكره في مكان ليس بعيد عن مرأى أسلحة رجال الزبير فرصة مكنت رجال الزبير من أن يمحطروهم بين الحين والحين بوابل من رصاص بنادقهم ، هذا إلى جانب الدوريات المسلحة التي كانت تخرج ليلا من القلعة لتتصيد

من نجده من رجال الأمير حسب الله لنقلته أو لتحمله أسيرا ، كل هذا أدى إلى قتل عدد ليس بالقليل من رجال جيش الأمير وبالتالي ساهم في خفض الروح المعنوية القتالية لرجاله .

ثالثا : كان لعامل المفاجأة أثره الكبير في هزيمة جيش الأمير في المعركة الثانية إذ كان للهجوم الذي شنّه عليهم رجال الزبير بغتة ليلا وهم نيام ومصرع الكثير منهم أثره في تشتيت جيشه ، وقد ساعد على نجاح الزبير في هذا الهجوم ما قام به رجسائل جيش الأمير قبل ليلة الهجوم من تناول الكثير من ألوان الطعام واحتساء العديد من أنواع الحمور التي لعبت برؤوسهم فباتوا لميلتهم لا يعون شيئا .

رابعا : كان لعامل الخيانة في المعركة الثانية الفضل الأول في الهزيمة التي منى بها جيش دارمور في هذه الموقعة . إذ لم يكن الملك أحمد الذي حضر لمعسكر الزبير ليفتدى ابنته إلا واحداً من ضمام النفوس الخائنين لوطنهم ، فقد فعل ما أملاه عليه الزبير حرمسسا على حياة ابنته . مفضلا خيانة وطنه وجيشه في سبيل هدف شخصي . ومن المرجح أن جيش الأمير حسب الله كان يضم الكثير من أمثال هذا الرجل . ومن ناحية أخرى كانت لثمة تقم عن بعد النظر من جانب الزبير الذي استطاع في الوقت المناسب أن يستغل هذه الشغرة في سبيل الحصول على ما يريد من معلومات عن جيش الأمير حسب الله أنقازا لنفسه ومن معه من الهزيمة .

خامسا : كان للهزيمة التي لحقت بجيش الأمير عقب المعركة الثانية وتشتت جيشه ، وتركه لمعظم ما كان لديه من الإمدادات من أسلحة وفخار ومؤن وخرامه وقيام الزبير بالاستيلاء عليها أثره الفعال في استعادة جيش الزبير لقوته بعدما قاربت مؤنه ونخبرته على التنازل .

سادسا : اذا نظرنا الى نوعية الفئات التى كان يتكون منها جيش الأمير لوجدنا أنهم لم يخرجوا عن كونهم مجموعة مختلفة تنتمى الى قبائل متعددة لا تربطها أية رابطة ولا هدف سوى الحرب من أجل كسب الغنائم والأموال . لذلك وجدنا منهم الخائن وكان الملك أحمد خير مثل على ذلك . يضاف الى ذلك أن الروح القتالية المطلوبة فى جيش ضخم كهذا لم تكن متوافرة بالقدر الذى توافرت به فى جيش الزبير . إذ كان لحسن قيادة الزبير لهم وتوجيههم التوجيه السليم ، وسخائه عليهم ، وتشجيعه لهم من العوامل التى ساعدت الزبير على الصمود بجيشه هذا أمام سلسلة الجيوش التى بعث بها سلطان دارفور الواحد تلو الآخر رغم قلة مؤنه ونخبرته .

سابعا : كان للعقلية العسكرية الواعية التى توافرت لدى الزبير الأثر الحسن فى تقويمه وتقديره للموقف واستغلال الإمكانات المتاحة له على ثلثها فى أحراز نصر باهر على جيش الأمير فقد صمم هو ورجاله حماية طبيعية داخل أسوار قلعة داره فسيصد هجمات جيوش دارفور المتتابعة كما أن قلعة داره كانت تشرف بحكم تصميمها على أرض المعركة ، فكان من السهل استطلاع ما يدور داخل معسكر الأعداء بسهولة من داخلها كما حدث فى معركة الثانية مع الأمير حسب الله واستطاع أن يرى من فوق منقبة جامع داره الهرج والجلبة التى كانت تسود معسكرهم .

ثامنا : كان للصلابة وقوة الشكينة وعامل الصبر وغير ذلك من الصفات التى أظهرها رجال الزبير أمام هجمات جيش الأمير الأثر الواضح فى أحرازهم النصر تلو الآخر . يضاف الى ذلك ما أشيع عنهم من أنهم من أكلة لحوم البشر ، فقد ساعد ذلك على بث الرعب والخوف فى قلوب رجال الأمير حتى قبل مواجهتهم فى ميدان الحرب .

قياسام السلطان إبراهيم بنفسه الى دارا :

وقع نيا هزيمة جيش الأمير حسب الله على يد الزبير -
وقوع الصاعقة على السلطان إبراهيم جسست له الزبير في
مخيلته على انه الشخصية الاسطورية التي لا تقهر ، فرأى
في هذه المرة أن يقوم بنفسه للوقوف على مدى قوة هذا الرجل ،
وتأديبه بعد أن لقيت جيوشه المتتابعة الهزيمة المرة تلو الأخرى
على يده ، ومن ثم أخذ يستدر قومه للحرب ويحضهم على
الذود عن حياض وطنهم وبلادهم حتى استطاع أن يجمع في
وقت قصير جيشا جرارا بلغ تعداده نحو المائة والخمسين
الفا من بينهم ثلاثون ألف فارس ، كما اصطحب معه ثمانية مدافع .
وقد خرج على الخروج بنفسه لقتال الزبير « الطاغية الجلابي »
كما نعته من قبل . ولكن لم يصبح هناك مجال للسخرية من
الزبير ، فهو اليوم مسيف الخديو المسلول الذي شهده
ليقوض به دعائم هذه السلطنة التي أخذت جواتبها تقهاوى
كلوراق الشجر في مطلع الخريف . وكان جيش السلطان
لكثافته يثير حوله إذ ما تحرك سحابة كثيفة من الغبار تمنع
الرجل من أن يرى رفيقه وهو على مبعدة خمس خطوات منه ،
ولم ينس السلطان أن يخلفه على الفائر قبل رحيله ابنه الأكبر
محمد الفضل . ثم سار السلطان إبراهيم قاصدا داره
فبلغها في ضحى السادس عشر من أكتوبر سنة ١٨٧٤ م .
محاصرها من جميع الجهات وهضى يستعد لهاجمة قلعتها في
اليوم التالي . وفي الصباح بدأ الهجوم فألقى السلطان
بقواته كلها في المعركة قاصدا اقتحام المدينة في هجمة واحدة .
ولكن رجال الزبير ردوه على أعقابهم بعد أن أمطروا قواته بوابل
من الرصاص المنهمر . واستمرت هذه المعركة الى ما بعد
الغروب ساعة . وفي اليوم التالي حاول السلطان الهجوم

على الأسوار مرة أخرى قبل طلوع الشمس ، ولكن هذا الهجوم أصابته الفشل كسابته بعد عدة ساعات من مدايته . كل هذا لم يوهن شيئا من عزيمة السلطان ، فعاود هجومه للمرة الثالثة بعد صلاة الظهر في عزم واستقبال هذه المرة ، وكانت قواته قد استراحت قليلا ، واستترت بعض نشاطها فثبتت لرمصاص أسلحة رجال الزبير وهو يحصدها حصدا ، وغطت جثث القتلى وجه الأرض الى أن أتى الليل فوضسع حدا لهذه المجزرة الدامية ، وبدأ السلطان وقواته يرتدون مخلقين تحت أسوار المدينة عددا كبيرا من قتلاهم ، وكان من بينهم بعض أبناء السلطان وأخوته وأعماله .

وفي مساء نفس اليوم أرسل السلطان إبراهيم كتابا للزبير مملوءا بالشتم والسباب والتهديد والوعيد له ، وختمه بقسم غليظ بأنه سوف يعاود الهجوم على القلعة في الصباح ، وسوف يقتحم تحصيناته عنوة ، ويؤدي صلاة الجمعة في مسجد داره . وفي الساعة الخامسة من صباح اليوم التالي بدأ في تنفيذ قسمه بأن أطلق على أسوار قلعة داره أكثر من خمسة وأربعين قذيفة من مدافعه فلم يجبه عليها رجال الزبير ، بل شرع الزبير ورجاله في الاستعداد لهجوم لاذع الذي كان يتهددونهم من جانب السلطان .

وعندما بدأ الحجر يرسل خيوطه الأولى أخذ الزبير يتطلع نحو معسكر السلطان فأدهشه أن يراه خاليا تماما من جيوش السلطان . وشك أن في الأمر خدعة فخرج في نفر من رجاله ليستطلع الأمر ، فوجد أن السلطان وجيشه قد انسحب في جنح الظلام ، وأن الخبسة والأربعين قذيفة التي تلقاها منذ ساعات لم تكن أكثر من وسيلة لستر وتغطية عملية الانسحاب حتى لا يظن إليه فيخرج لمطارسته وتشتيت جيشه . وقد علم الزبير فيما بعد أن سبب انسحاب السلطان هو أن

رجاله بعدما نزل بهم من خسائر فادحة قد أبوا أن يعودوا لمهاجمة الأسسوار مرة أخرى ، فهجروا السلطان . عندئذ لم يجد السلطان بدا من أن يتبعهم ليجمع شملهم وليسير بهم لجبل مرة (٧٩) . للاحتباء به . وجمع الزبير ما خلفه السلطان في ممسكته وشرع في الاستعداد للحاق بجيش السلطان ومهاجمته حيث يكون (٨٠) .

في هذه الأثناء وصل إلى علم السلطان نبأ سقوط أم شنقة التي تقع على مسيرة ستة أيام من عاصمته الناشـر في يد اسماعيل باشا أيوب ، فأصبح السلطان بذلك محاصرا فحاة فقرر هو الآخر بعد أن جمع قوائمه في جبل مرة أن يتجهز بسرعة نحو الناشـر . على أن هذا المتجهز الذي قام به السلطان جعل الطريق أمام الزبير ملتوحا لأن يتقدم بجيشه بسرعة نحو عاصمة دارفور (٨١) .

في هذا الوقت أضرع السلطان إبراهيم بعد الهزيمة التي نزلت به وبجيشه على يد الزبير في المحاولات الثلاث التي قام بها لاحتحام قلعة داره المتبعة ، وانسحابه دون أن يظفر بأية نتيجة تغير من الموقف شيئا ، أن الآمال التي عقدتها عند خروجه بهذا الجيش لكسر شوكة الزبير وطرده من سلطنة دارفور قد باتت أشبه بالسراب ، وقد حل بجيشه نتيجة هذه الهزائم المتوالية اليأس والخوف محل الحماسة والقوة التي خرج بها للقاء عدوه الزبير . ولكن رغم ذلك ظل تعلق السلطان إبراهيم بالنصر على عدوه الذي لا يعرف المستحيل متجسدا أمامه حتى النهاية .

دور حملة الشرق بقيادة الحكمدار :

تحرك اسماعيل باشا أيوب إلى دارفور على رأس الحملة التي وكل إليه أمر قيادتها لتزور هذه السلطنة من جهة الشرق ،

والتي تكونت من أورطة جهادية مسلحة بالبنادق ، وأوردى باشبوزق مكون من أربعمائة نفر خيالة وهجاة ، وثلاثة مدافع ، ومائتين من العساكر الباشوزق الشايقية . قام من الأبيض بهذا الجيش رأسا إلى دارفور عبر صحراء العتمور حيث مر في طريقه على منطقة المياه القليلة حيث تخزن المياه في فروع الأشجار التبدلي المحفورة الوسط . ولو كان السلطان إبراهيم قد تنبه لقدوم هذا الجيش ، وأرسل من أخفى تلك الأشجار مما بها من المياه لاضطرت الحملة إلى الرجوع أو أدى ذلك إلى موت الكثيرين منهم عطشا (٨٢) .

وقد رافق حملة التيسرق التي قادها اسماعيل باشا أيوب بعض من الضباط الأمريكيين لأغراض تتعلق بمصالح الحملة وسلامتها (٨٣) . ولا يعرف على وجه التحديد كم عددهم أو أسلحتهم والراجع أنهم من الأجانب الذين وفدوا لأغراض السياحة أو التجارة في تلك الامتاع البعيدة ثم تمينوا مع الحملة لإنجاز بعض المهام الخاصة .

ولم يأت الرابع والعشرون من رجب سنة ١٢٩١ هـ الموافق ستة سبتمبر سنة ١٨٧٤ م حتى أبرق الحكمدار للحكومة الخديوية في القاهرة بأنه قد وصل في تقدمه إلى محل يقال له دارفور العمار بعد صحراء العتمور ما بين كردفان ودارفور ، وأنه ليس بينه وبين الوصل لأم شنقة (٨٤) سوى يومين فقط ، بينما المسافة بينه وبين عاصمة السلطان ستة أيام مشي الهجاة ، وأن الزبير قد وصل إلى دارا وتحكم فيها وأن الجيش الذي أرسله السلطان حوله بمسافة يوم واحد ، كما أنه أشار إلى طلبه للحكمدارية بإرسال أورطة ونصف بقيادة من أجل عدم إخلاء المحلات التي تم الاستيلاء عليها من العساكر خوفا من محاولة استعادتها والسيطرة عليها من جانب العدو (٨٥) .

الاستيلاء على أم شنقة :

وصل إلى علم السلطان إبراهيم نبأ وصول حملة الشسرقي بقيادة الحكمدار لحدود دارفور ، فأرسل من نوره اثنين من فادته الذين كانوا يحاربون ضد الزبير على رأس جيش قوامه ما بين الخمسة والستة آلاف رجل مع الشيخ أحمد المليج شيخ عربان حمرا (٨٦١) للتصدي لهذه الحملة ، وقبل أن يلتقي هذا الجيش بالحملة صادفهم جماعة قليلة العدد من العساكر الخديوية التابعة للحملة ، والذين كان قد أرسلهم الحكمدار لجلب بعض الغلال اللازمة لتعويضات العساكر من العربان الذين دخلوا تحت طاعة الحكومة الخديوية ، فاشتبكوا معهم في معركة دامت أربع ساعات سقط خلالها حسب ما ورد في الوثائق ثمانية وعشرون قتيلًا من جيش النور عدا المحروحين والمفقودين .

وعندما بلغت أنباء هذا الاشتباك اسماعيل باشا أبواب الذي كان في هذا الوقت قد وصل إلى نوجة ، ويحاول الوصول إلى أم شنقة أسرع بين معه من العساكر واستطاع اللحاق بهذا الجيش الفوراً واشتباك معه بالمدافع فلم يستطع هذا الجيش الثبات أمام رجال الحكمدار ، ومن ثم ولى رجاله جميعاً الانبهار ، فأخذ الحكمدار يطاردهم حتى استطاع انزال الهزيمة بهم وإن يدخل أم شنقة . وقد أمن الحكمدار جميع الأهالي في هذه البلدة على حياتهم بعد أن نزل معظمهم طوعاً تحت طاعة الحكومة . وقد أخبر كل من الحكمدار ووكيل الحكمدارية بالخرطوم هذه الأنباء إلى القاهرة في ٢٢ و ٢٦ شعبان سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٤ و ١٨ أكتوبر سنة ١٨٧٤ م (٨٧) .

وفي السابع من رمضان سنة ١٢٩١ هـ الموافق ١٧ أكتوبر سنة ١٨٧٤ م أحاط الحكمدار الشاهرة علماً وهو بأم شنقة بأن

الزبير وجيشه قد عادوا الى القطعة سالمين بعد انتصارهم على جيش الأمير حسب الله . وأن جواسيس الحكمدار قد نقلوا اليه انباء قيام السلطان ابراهيم بنفسه الى دارا على رأس جيش كبير بعد أن أعينه الهراثم التي حلت بجيوشه التي أرسلها تباعا ضد الزبير . أشار الحكمدار أيضا الى برقيته أن في أمكانه دخول العاصمة الفاشر بسهولة وذلك نظرا لقلّة العساكر التي تركها السلطان بها ، ولكنه عاد لقرر بعد أن تراسل مع الزبير رحمة بأنه قد قام منذ يومين على رأس قوة قوامها ثلاثة آلاف رجل من الجهادية والباشبوزق وخمسة مدافع وهو ما أمكنه جمعه أثناء إقامته بأم شنقة وذلك للانضمام الى قوة الزبير البالغ عددها سبعة آلاف رجل وخمسة مدافع ، والتي هي على مسافة ستة أيام بمشي العساكر للقضاء على قوة دارغور الأخيرة التي تحت قيادة السلطان ابراهيم والدخول مما بعد ذلك الى الفاشر عاصمة دارغور وقد جلبان القاهرة على سلامة وسائل الاتصال بينه وبين كل من كردبان والزبير (٨٨) .

أبلغ الحكمدار القاهرة في برقية تحمل تاريخ الثامن من رمضان الموافق ٢١ أكتوبر سنة ١٨٧٤م بأنه نظرا لأهمية مركز أم شنقة ومخافة مسيئان الأهالي المحيطين بالمركز وقيامهم بالثورة والضرورة استحضار القائل 'للزينة' التي رتبها بها من الأهالي . فقد ترك بهذا المركز مرسوار شايقية بأربعمائة نفر ودمفع واحد للفرض السالف الذكر (٨٩) .

كما أبلغ القاهرة في برقية لاحقة بأنه قد بلغ بلدة تسمى القونين وأن أهالي تلك البلدة كانوا يحضرون أفواجا للدخول في طاعة الحكومة وذلك نظرا لما شاهدوه من قوة عساكر واسلحة الحكومة الخديوية . كما أشار الى أن جيش الزبير ، الذي يبعد عنه بمسافة ثلاثة أيام فقط ، في حالة طيبة . برغم أن قوات

السلطان ما تزال على مسافة يوم واحد منه ، ونوه بعزمه على التوجه للزبير والاجتماع معه لدخول العاصمة الفاشر (٩٠) .

اتهام اسماعيل باشا أيوب بتعمد الإبطاء في التقدم نحو الفاشر :

اتهم اسماعيل باشا أيوب بتعمد الإبطاء في مسيره نحو الفاشر لتجنب القتال ضد جيوش دارغور ، وأنه عندما وصل الى فوجه كتب الى الزبير وهو اذ ذاك في دارا بصدد هجمات الأمير حسب الله والسلطان ابراهيم ، يخبره أنه في طريقه اليه بالنجدة طالباً منه أن يتشدد ويقاوم حتى يصل . حينئذ بعث اليه الزبير يسأله عن سر هذا الإبطاء في التقدم والعدو يحدق به بجيوش لا حصر لها ، وأنه ما دام يحمل له النجدة عليه بالاسراع في السير حتى لا يصل بعد فوات الاوان نرد عليه اسماعيل باشا أيوب مثلاً : « أننى لم أترك بالتقدم الى دارا ولم يكن هذا من بين ما كلفتك به حكومة الخديو السنية ، ماذا استطعت أن ترفع الحصار وأن تنجو بجيشك الى هنا غافلاً والا فهدر امرك بما تراء صواباً » . وقد بقى اسماعيل باشا أيوب في فوجه على ما ذكر الزبير (٩١) .

وبمناقشة ما اتهم به الحكمدار يتضح لنا ما يأتى :

أولاً : بالنسبة لاتهام الحكمدار بتعمد الإبطاء في التقدم لنجدة الزبير ، فقد طلل بعض الكتاب ذلك بأن اسماعيل باشا أيوب قد حاول في تقدمه نحو الفاشر أن يكسب الى جانبه صداقة سكان وزعماء هذه الاقاليم بالطرق السلمية ، لذلك فقد قام بتحرير ما لا يقل عن ١٦٠٠ من الرقيق ، كما زود ما لا يقل عن سبعمائة بوثائق تحريرهم من الرق (٩٢) .

ويستدل على صدق ما ذكر من البرقية التي بعث بها اسماعيل باشا أيوب إلى المعية بتاريخ ٧ رمضان سنة ١٢٩١ هـ يعلمها بأن جواسيسه قد نقلوا إليه آباء وجود عدد من نجار الرقيق ومعهم أعداد كبيرة من رقيقهم بجهة تسمى كامبة ، وأنه لما بلغ هؤلاء التجار قدوم العساكر الخديوية اختفوا بتلك الجهة ، إلا أنه تمكن من ضبط نحو ألف وستمائة من نساء وأطفال ، وأن أغلبهم من أهالي دارفور وبلاد بحر الغزال ، وقد أعترف التجار بأنهم كانوا متوجهين بهم لبيعهم ، وأن سلطان دارفور نفسه له حصة في المكسب الذي ينتج بعد بيعهم . وقد صار أخلاء سبيل التسافر منهم على المشى ونزويده بأوراق تثبت عتقه وتحريره ، وصرف جانب من التعميمات لهم ليستطيعوا أن يتوجهوا إلى بلادهم ، وقد قام الحكمدار بتعيين عدد من الأطباء لعلاجهم ، والسهر على راحتهم وكل من شفى منهم يخلى سبيله (٩٣) .

والحق أن الحكمدار لم يتجهل في المسير إلى الفاشر ، ورغم اتهامه بأنه قد بقر ببلدة فوجه مده بينما كان الزبير يحارب في دارا ، فإن من الخطأ الاعتقاد بأن اسماعيل باشا أيوب لم تكن لديه الرغبة الكثيرة في فتح سلطنة دارفور .

ثانياً : عندما كان الزبير يحارب في دارا في سبتمبر سنة ١٨٧٤ م لم يكن اسماعيل باشا أيوب في بلدة فوجه كما ذكر ، بل كان يحاول الوصول إلى بلدة أم شقة والتخفيف عن الزبير . وكانت خطته تعتمد على أن ينضم بقواته إلى الزبير ، وعندئذ يمكن لكلا الجيشان التقدم نحو الفاشر . وقد كان لاحتلال اسماعيل باشا أيوب لبلدة أم شقة ، في أواخر معركة الزبير مع السلطان إبراهيم بدارا في أكتوبر سنة ١٨٧٤ م أثره البالغ في تخفيف عبء الهجوم على الزبير في الجنوب رغم كثافته . وكانت قوات الحكمدار

قد سبق لها الدخول في معركة مع جيش موراوي آخر أرسله السلطان وانتهى أمره بالهزيمة .

وفي ذلك للحين سرت الاسامات بأن الفرقة الاولى بقيادة الزبير قد اندحرت وأن قائدها قد قتل ، وهذا ما جعل اسماعيل باشا أيوب يتي بأم شمه ويحصنها ويتريث حتى تصله الأخبار الأكيدة عن مصير الزبير وفرقته . وقد تحقق لدى اسماعيل باشا أيوب كذب هذه الاشساعة حينما اتصل به الزبير مخبرا اباه بمقتل السلطان ابراهيم وتقدمه نحو الفاشر (٩٤) . وقد استنطاع الحكماء بفتحهم أم شنتة ان يكتب نصرا بها ينطوى على شيء من الذكاء والخفيعة ، بعدها أصبحت وسائل الاتصال بينه وبين الزبير سهلة ميسورة .

قائلًا : يبدو ان الحكماء عندما انقطعت عنه أخبار الزبير اتجه بجيشه الى دارفور لاستجلاء الحالة هناك ، والنبل على ذلك انه عندما أراد الزبير ان يصل به لاعلامه بدخوله الفاشر على لسان الرسول الذي بعث به اليه ، لقيه هذا الرسول وهو في طريقه الى دارا غلبا ابلغه بهذه الأخبار انشأ اذ ذاك عنها ووجه الجيش الذي تحت قيادته الى الفاشر فدخلها في ١١ نوفمبر سنة ١٨٧٤ م (٩٥) .

هوقعة منواشي : (١٤ رمضان سنة ١٢٩١١ هـ - أكتوبر سنة ١٨٧٤ م) :

وفي الثالث والعشرين من أكتوبر سنة ١٨٧٤ م بدأت حملة الزبير لاحتلال دارفور تقترب من نهايتها ، وفي هذا اليوم خرج من قلعة دارا على رأس جيش قوامه سبعة آلاف رجل ، بعد ان تحطبت على أسوارها أمواج المهاجرين الذين ساقهم السلطان ابراهيم لطرده منها ، وقد خرج جيش الزبير ليقتفى أثر جيش

السلطان ابراهيم وليكتب في سجل معاركه معه معركة اخرى .
وفي يوم ١٢ رمضان سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٤ أكتوبر سنة
١٨٧٤ م أدركه عند بلدة منواشي (٩٦) ، ومع السلطان من الجنود
حوالي ثلاثين ألفا ، وفي معسكره ثمانية مدافع ، وقد قسم جنده
الى مينة وميسرة وقلب ، وأقام هو ومدافعه ومن بقي من أبطال
جيشه واقربه في موضع القلب من كل هذا ، واستعد للمعركة
النافلة .

وقد أشرقت شمس يوم الخامس والعشرين من أكتوبر سنة
١٨٧٤ م لتشهد السلطان ابراهيم وهو يبدأ هجومه على جيش
الزبير باطلاق إحدى عشرة قذيفة من مدافعه على مواقع جيش
الزبير لم يعبا لها ، ومضى الزبير على رأس جيشه قاصدا موقع
القلب من قوات السلطان ، فلم يلبث أن تخلى السلطان عن مدافعه
وأمر ميمته وميسرته بالهجوم على جيش الزبير . وبدأت المعركة
وحى وطيس القتال . ولم يكده يمضى وقت قليل على بدء المعركة
حتى تحاذلت مينة وميسرة قوات السلطان وهضمت متقهقرة الى
الوراء ، متدنّذ هاجم السلطان ومن معه في القلب من أبطال
جيشه وصعدا يده قوات الزبير ، عتراجعت مقدمة قوات الزبير
الى الوراء قليلا لتعيد تنظيم صفوفها . ولم تلبث أن عاودت الهجوم
على جيش السلطان ، فاشتد القتال مرة اخرى ، واستخدمت
السيوف والحراب بحال المقاتلين والمدافع . وقد أعترف الزبير نفسه
بشجاعة السلطان واستبسال جيشه في القتال ، فقد شامد
الزبير من مكانه الذي يشرف على أرض المعركة السلطان
وهو يحول ويصول وسط المعركة ، وهو يقاتل في عزم واستبسال
ويعمل جاهدا لكي يغسل من مزته ما أصابها من ذل وهوان ،
حتى حرقتيلا هو ومن معه من الفرسان ومنهم الكثير من أولاده
وأشراف دولته فكان هذا ايذانا بانتهاء المعركة التي انجلت من

نصر مبین لجیش الزبیر ، لم یتردد الزبیر فی الاحتواء بجنته ، فکفنها بالاقمشة الفاخرة ودفعها فی جامع منواشی فی احتفال عظیم أجلا لأقامه کسلطان واهراراً بمسلکه کمارس ، ثم دفن بعد ذلك القتلى من اولاد واکابر دولة السلطان ، وعفا عن جمیع الأسرى وسمح لهم بالذهاب الى حیث یشاعون ، وقد غنم الزبیر فی هذه المعركة ثمانية مائة وسبعة وعشرين جملاً محملاً بالذخيرة والعتاد الحربی . وقد بقى الزبیر وجیشه فی منواشی مدة أربعة ايام أخرى انطلق بعدها لدخول العاصمة الفاشر (٩٧) .

وبینما الزبیر یترك دارا فی الثالث والعشرين من اکتوبر سنة ١٨٧٤ م لتعقب السلطان کان الحکمدار یتقدم علی رأس حیثی قوامه ثلاثة آلاف رجل لکی یلحق بقوات الزبیر ، وقد وصلت الأخبار الیه وهو یقترب من دارا بأن الزبیر مشتبک فی معركة مع حیثی الفور الرئیسى منذ بلدة منواشی ، وان السلطان قد قتل . حیثئذ انطلق الحکمدار بجیشه خلف الزبیر للحاق به (٩٧) .

ابرق الحکمدار فی ٢٢ رمضان سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢ نوفمبر ١٨٧٤ م الى القاهرة یعلمها بتفاصيل هذه المعركة ومقتل السلطان ، ویبلغها أنه وبرقته بالقرب من دارا وأنه متوجه بتواته الى الفاشر ، ویهنئ الاعتاب الخدیویة علی هذا النصر العظیم ، وقد ابلغها ایضاً بما استسولى علیه الزبیر من اسلحة وذخائر وخلافه (٩٩) .

کان لهزيمة سلطان دارفور ومقتله اثره فی أن یقلو الطريق أمام الزبیر لدخول العاصمة الفاشر ، ولیبرهن مرة أخرى أمام التاريخ فتحه لدارفور بنفسه قبل أن تصل الیه حملة الشرق التي تأخرت فی الوصول الیه . وقد اثبتت هذه المعركة بأنها لا یدع مجالاً للشك مدى شاملة الدور الذى لیسهم به الزبیر وجیشه فی فتح

دارفور ، وقضائه على جيوشها وقتل سلطانها ، بعد أن تحمل جيشه العبء الأكبر من القتال ضد جيوش السلطان الكفيفة المتوالية ، منذ بدأت الحرب وبدون مساعدة فعالة من جانب الحملة التي يقودها الحكمدار . وكانت المعركة من الناحية التاريخية هي الخاتمة لسلسلة المعارك الدامية التي وقعت بين جيوش السلطان والزبير . كما أنها أعلنت في وضوح نهاية هذه السلطنة بعد مقتل آخر سلاطينها إبراهيم على يد الزبير رحمة .

دخول العاصمة الفاشسر (١٠٠) :

في الثالث والعشرين من رمضان سنة ١٢٩١ هـ الموافق الثالث من نوفمبر سنة ١٨٧٤ م دخل الزبير على رأس جيشه مدينة الفاشسر منتصرا . وهناك وجد أن عائلة السلطان وباقى أهله الذين كان قد خلفهم فيها قبل خروجه منها قد فروا ، فلم يبق في المدينة غير التجار وبعض العلماء ، فامن الجميع على أموالهم واحسن معاملتهم فلما بلغ ذلك الأهالي انتشر خبر عدله ووفائه بالعهود ، فأخذ الناس يندون عليه مقدمين مروض الولاء والطاعة والامثال ، وما هي الا أيام حتى دان له الجميع بالطاعة والولاء سواء من الأعاجم أو العربان أو الحضر أو البدو . وفي أوائل شهر شوال سنة ١٢٩١ هـ الموافق الحادي عشر من نوفمبر سنة ١٨٧٤ م دخل الحكمدار الفاشسر على رأس حملته ، فرحب به الزبير وأكرم لقياء وأطلق له مائة قتيعة مدفع تحية وترحيبا بقدومه ، فهناه الحكمدار بالنصر ولم ينس أن يشكر له ولأهله وحسن خدمته (١٠١) .

ولقد كان سقوط العاصمة الفاشسر الخطوة التي قادت سكان المناطق المجاورة لها على التسليم بسلام للفاتحين . حيثئذ أطلق الحكمدار حرية الرقيق وأعطاهم وثائق تثبت تحريرهم من الرق .

وكانت الخطوات قد اتخذت لارسال الرقيق المحرر والذين لا يرغبون في البقاء بدارفور ، الى بلادهم . كانت نية الحكومة الجديدة تنجيه الى وضع جميع شعب دارفور موضع المساواة مع المصريين . هذه السياسة كان فيها شيء من الحكمة والتفعل مما حدا بالناس وشجعهم على التسليم بسلام الى حكم الفاتحين .

الموازنة بين دور جيش الزبير ودور حملة الشرق في فتح دارفور :
من خلال تفاصيل الاحداث السابقة المتعلقة بغزو دارفور نستطيع ان نقف على حقيقة الدور الذي أسهم به كل من جيش الزبير من ناحية وحملة الشرق بقيادة الحكمدار من ناحية أخرى في النقاط التالية :

اولا : دور جيش الزبير :

(١) كان له النصيب الأكبر في فتح دارفور ، فقد خاض أكثر من معركة ضد جيوش دارفور المتتابعة وانتصر عليها برغم تفوقها في العدد والمدة .

(ب) كان وراء الانتصارات التي حققها جيش الزبير شخصية الزبير القيادية بما تنطوي عليها من صفات جليلة متمثلة في المهارة الفائقة في التخطيط وارادة قوية في التنفيذ وقناة لا تلين في مجابهة الصعاب ، وايمان عميق في النصر ، وأخيرا إخلاص للحكومة الخديوية في تأدية المهام الموكولة اليه بأمانة .

ثانيا : حملة الشرق بقيادة الحكمدار :

(١) لم يكن لجيش الشرق الدور الذي سساهم به جيش الزبير في الفتح ، بل ان دوره لم يخرج عن مهمة المساندة الهامشية لجيش الزبير التي تمثلت في التصدي للجماعات المسلحة الصغيرة.

التي أرسلها السلطان لمركلة تقدم الحملة التي يقودها الحكمدار ،
فكان دوره يعتبر جزءا مكملًا لعملية الغنم ، ولكن إذا تيسر بنظيره
في الجنوب لظهر هذا الفارق بوضوح .

(ب) لم يوضع جيش الشرق موضع الاختبار الكافي من حيث
القوة فلم يدخل إلا في معارك محدودة مع جيش العدو وعذره في
ذلك أن دارفور كانت توجه معظم اهتمامها لجبهة الجنوب ، ومن
ثم كانت الاختبارات التي تعرض لها جيش الزبير أكثر مما تعرض
لها جيش الشرق . وقد كان وراء قيام الحكمدار بتنفيذ المهام التي
كلف بها ، بكل اهتمام وأخلاص في غزو دارفور ، ما تتمتع به
هذه السلطنة من ثروة وشهرة عظيمة كانتا تثيران طموح
الخدو . في نفس الوقت كانت تمثل باستقلالها تهديدا للسلطنة
الخدوية في السودان من حيث أن موقعها الجغرافي يجعلها تسيطر
على طرق القوافل المتجهة إلى بحر الغزال . كما أن هذا الموقع
جعلها مأوى لتجار الرقيق ورفيقهم بعيدا عن أعين الحكومة ، التي
كانت تحارب هذه التجارة في ذلك الوقت . ولقد كان لتحصن
الزبير العبء الأكبر في هذا الفتح أثره السيء في نفسية الحكمدار
الذي كان يرغب في أن ينسب إليه هذا الفتح العظيم ولكنه ثم
يستطع ذلك (١٠٢) .

فنائم الحروب :

أما عن غنائم الحرب ، فبالإضافة إلى ما استولى عليه الزبير
عقب انتصاره على السلطان إبراهيم في معركة منواشي ومعاركه
السابقة مع الأمير حسب الله وأحمد نمر من أسلحة وفخائر وغير
ذلك ، فقد ذكرت الوثائق أن الأمير محمد القنصل ابن السلطان
إبراهيم لما بلغه مقتل والده ، فر من الفاشر وحمل معه ما أمكنه
من الأموال والأشياء الخفيفة الثمينة من الذهب والفضة وغيرها ،

أما المثقلة منها مثل الأمتعة وخلافه ، فقد تركها في محاسنها ثم
يثبت الأهالي أن استولوا عليها وبعد دخول الزبير العاصمة
الفاشر لم يجد شيئا من الغنائم التي كان يأمل الاستيلاء عليها
باسم الحكومة ، وبالبحت تبين كما ذكر أن الأهالي قد استولوا
على الجزء الأكبر منها ، فصار ضبط كل من لديه شيء من متعلقات
السلطان ومصادرتها لحساب الحكومة . وقد أرسل الزبير جميع
ما صار اغتنامه من المعارك السابقة وما تم ضبطه من متعلقات
السلطان لدى أهالي الفاشر إلى الخرطوم التي قامت بإرساله
بالتالي إلى القاهرة مع برقية تحمل هذا المعنى بتاريخ ٢١ ذي
القعدة سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٣٠ ديسمبر سنة ١٨٧٤ م (١٠٣) .

خمسة الأُمير حسب الله :

لم تكد تمضي أيام قلائل على دخول الزبير والحكماء الفاشر ،
وهذوء الحالة نسبياً بها ، حتى تفجر هذا الهدوء عن عصيان قام
به الأمير حسب الله مع عدد من أبناء السلطان الراحل وأقاربه
الجبل مرة (١٠٤) . وكان الحكماء قد أبلغ القاهرة في ٢٧ شوال
سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٨ ديسمبر سنة ١٨٧٤ م يبلغها خبره
الفاشر وتأمينه لأهاليها ، ودخولها في طاعة الحكومة ، وإطلاق
حرية الرقيق منهم ، كما أبلغها بأنه لما تحقق أن تبقى من عائلة
السلطان الذين كانوا ضمن جيشه من حقيقة مصرعه اجتمعوا
وولوا عليهم الأمير حسب الله سلطاناً يجهات غرب دارفور (١٠٥) .

لهذا الغرض جرى إرسال فرقة بقيادة الزبير قوامها اثنا
عشر ألف مقاتل منهم أربع مائة من المساكر النظامية ومائتان من
العربان لمطاردة الأمير حسب الله . وأنه تعقب المتمردين حتى
أجبرهم على اللجوء لجبل مرة وأنه جرى إمداده بنجدة أخرى (١٠٦)
وقد أرسل الحكماء رسالة إلى الأمير حسب الله يعهده فيها بالعفو

عنه وعن اتباعه وأن يعيد اليهم ممتلكاتهم إذا ما استسلموا بدون
مقاومة (١٠٧) .

فلما رأى الأمير حسب الله قوة جيش الزبير وأنه لا قدرة له
على مقاومته سلم له بلا قتال ، فالتقى الزبير القبض عليه ومن
معه من أبقاء السلطان ابراهيم وغسيرهم من أبقاء السلاطين
السابقين ، ونحو ألف ومائتين من الأعيان والكبراء كان من بينهم
أخت السلطان ابراهيم الميرم عرفة (١٠٨) . وجاء بهم جميعا إلى
الفاشر وكان من جملة هؤلاء الأسرى أيضا زوجات السلطان
الراحل (١٠٩) ، موصلها الزبير بعد غيبة عنها دامت تسعة
وقسمين يوما (١١٠) . وقد أبرق الحكمدار للقاهرة بما حدث في
١٧ ذي الحجة سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٦ يناير سنة ١٨٧٥ ،
يقترح تعيين الزبير مديرا لعموم دارفور وحسن بك حلمي تومندانا
على العساكر الجهادية (١١١) .

طلب الأمير حسب الله من الزبير بعد استسلامه أن يستعمل
تموده لدى المسؤولين في القاهرة ليتولى حكم دارفور تحت أمرة
الحكومة الخديوية في مقابل أن يدفع مائة ألف جنيه سنويا كجزية
للدولة ، فلقى هذا الرأي من الزبير كل موافقة وترحيب ، ووجد
فيه خير سبيل لراحة البلاد والحكومة من هذه المسؤولية المكلفة ،
فتعهد له بذلك كل من في سبيل تحقيق رغبته هذه غير أنه عددا
تقدم بهذا الاقتراح إلى اسماعيل باشا أيوب مؤيدا أياء رفضه
'الآخر رفضا باتا وأبى حتى أن يستمع إلى حجج الزبير التي حاول
أن يسوقها لاقتناعه بالموافقة على هذا المشروع ، وقد طال
الجدال بين الاثنين حول هذا الاقتراح حتى استحال إلى نزاع
سلفر (١١٢) .

**أسباب رفض الحكمدار لاقتراح الزبير بتعيين الأمير حسب الله
سلطاناً على دارفور :**

أولاً : لم يكن لدى الحكمدار الضمانات الكافية للزام الأمير
حسب الله بتنفيذ هذا الاقتراح وخاصة ما يتعلق منه بدفع الحزبة
و ضمان استمرار طاعته للحكومة المصرية .

ثانياً : روح العداء والكراهية التي يكنها زعماء وسلاطين دار
فور للزبير والحكومة ، واحتمال عدم استمرارهم في إخلاصهم وولائهم
المقنع تجاه الحكومة وقسامهم بالثورة عليها يوماً ما للانتقام لما
أسببهم على يدها من أضرار غزو بلادهم يضاف إلى ذلك ما قد
يترتب على أعمالهم هذه المتوقع قيامهم بها من ضياع للجهود والأموال
التي بذلت في الفتح .

ثالثاً : كان من أهداف الفتح القضاء على السلاطين الانفصاليين
لدارفور كسلطنة ، وضمها كجزء منهم للسودان ، وكذلك القضاء
على تجارة الرقيق فيها ، فكان معنى الموافقة على هذا الاقتراح
هو مودة للأوضاع التي كانت عليها قبل الفتح .

رابعاً : انعدام الثقة والتفاهم بين الزبير والحكمدار مما أدى
ماتتالي إلى عدم الأخذ بهذا الاقتراح وفشله قبل أن يتم مرضه
على الخديو في القاهرة .

ولم يلبث الحكمدار في ٢٠ من ذي الحجة سنة ١٢٩١ هـ
الموافق ٢٦ يناير سنة ١٨٧٥ م أن قام بإرسال الأمير حسب الله
(٧٠ — ٧٨ عاماً) وعائلته وأتباعه البالغ عددهم حسب ما ورد
بالوثائق ما بين ٩٦ و ٤٨ من ذكور وإناث في حراسة قوة تحت
قيادة حسن بك حلمي إلى أم شنغة ، كي يتوجهوا منها إلى كردفان
ومنها إلى الخرطوم في حراسة الأوربيين الباشبوزقي ، فبلغوها
في التاسع والعشرين من محرم سنة ١٢٩١ هـ الموافق سبعة

مارس سنة ١٨٧٥ م ، وكان الحكمدار قد بعث في الثالث من محرم سنة ١٢٩٢ هـ الموافق ٦ فبراير سنة ١٨٧٥ م بأولاد السلطان الذين تم القبض عليهم بعد نزارهم وهم محمد الفضل ، وعبد الرحمن جامع وعبد الرحمن شاطوط شقيق السلطان ومعهما حائلاتهم واتباعهم البالغ عددهم ٢٢٣ نفرا في حراسة قوية إلى الخرطوم (١١٣) .

وكان الخديو قد قام من قبل بدعوة كل من الأمير حسب الله والأمير محمد الفضل لزيارة القاهرة ، ولما وصلا إليها في مارس سنة ١٩٧٥ م أمد لاستقبالهما قصر خاص (١١٤) إلا أن الحكومة بعد ذلك قامت بإسكانهم في الحى المعروف بسوق السلاح ، وأجرت لهم المرتبات فعاشوا في راحة وسلام وكان من بينهم الأمير عبد الحميد ابن السلطان إبراهيم وتسعة عشر آخرون من أبناء السلطان (١١٥) .

وعندما وصل الزبير بالأسرى إلى القاهرة أمره الحكمدار بالرجوع إلى دارا والاقامة بها هو وعساكره إلى حين أن يصدر إليه أمرا آخر بالعودة إلى بحر الغزال (١١٦) .

ومنذ تلك اللحظة وضحت السياسة التي كان يريد الحكمدار اتباعها مع الزبير وهي في مضمونها إبعاده شيئا فشيئا عن أمور الحكم والسياسة الخاصة بدارفور ووضعها في بوتقة صغيرة ، تمهيدا لاسناد العمل المناسب له أو إقصائه عن بلاد السودان كلية .

ثورة الأمير بوش :

لم يرضى على حالة العصيان التي أعلنها الأمير حسب الله ومن معه مدة طويلة ، حتى ظهر بجبل مرة فائر آخر من الأسيرة الحاكمة هو الأمير بوش شقيق الأمير حسب الله لذلك أرسل الحكمدار إلى

الزبير ، وهو اذ ذاك في دارا ولم يمض عليه بها اكثر من شهر واحد ، كتابا يأمره فيه بالخروج لاختاد ثورة هذا الأمير ، واعادة الأمن والسلام الى ربوع البلاد ، فامتلأ الزبير للأمر الصادر له وخرج بجيشه قاصدا جبل مرة ، فقام بحاصرته وبعد معارك استمرت لمدة خمسة عشر يوما منصلة ، هرب الأمير بوش من جبل مرة ، فقام الزبير بتعقبه حتى ادركه قرب بلدة ككبكية (١١٧) . فدارت بين الاثنين معركة انتهت بمصرع الأمير بوش وفرار جيشه ، وفي الثالث من أغسطس سنة ١٨٧٥ م بعد أن تم للزبير النصر على الأمير بوش. اتبست امام باصرته أرض جديدة لم يجد مانعا من غزوها وضمها الى ممتلكات الجباب العالي الخديو بالسودان (١١٨) .

الزبير يتوغل بجيشه لجهة الغرب (برتو - واداي) :

امريت القاهرة في برقيتها المؤرخة في ١٥ ذى القعدة سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٧٤ م للحكماء عن رغبتها في اتخاذ كافة الاجراءات اللازمة للاستيلاء على برتو نظرا لموقعها الاستراتيجي الذي يمثل مفتاح الغرب السوداني ، وذلك بتقوية الفرقة التي مع الزبير بتلك الجهات . وكان الهدف من ذلك هو العمل على ابعاد الزبير عن مسرح الاحداث السياسية في السودان ، وكذلك التخلص من جنود البحارة الدناطة الموجودين في بحر الغزال . ولكن القاهرة رغم ما جاء بالبرقية من تعليمات خاصة بفتح برتو فانها لم تقيد الحكماء برغبتها هذه ، بل تركت له حرية العمل بما يراه صائبا . وكان رد الحكماء على القاهرة ان الوقت غير مناسب لهذا العمل ، لعدم استكمال ضبط دارفور ، وقلّة المسافر الموجود معهم مع الزبير خارج دارفور منذ عام او اكثر وسوء حالتهم الصحية والمعيشية ، وعدم حصولهم على مرتباتهم منذ مدة ، وأن فتح برتو تشتيت وتشعيب للجهود المبذولة في ضبط دارفور (١١٩) .

ولم يكف الحكمدار بهذا السيل من المقترحات بل أبرق على ٢٦ ذى القعدة سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٥ يناير سنة ١٨٧٥ م للقاهرة شارحا وجهة نظره في اقتراح الخديو بفتح برقو عارضا رايه بأن الزبير ربما لا يقبل أن يواجه جبهه مرة أخرى نحو فتح حديد ، لأنه كان يقاتل هو ورجاله ما يقارب السنة والنصف في بحر الغزال وشكا ودارفور ، وأنه سسرف من ماله الخاص الكثير في سبيل تجهيز وأماشة ما يزيد على الستة آلاف رجل من خاصته وعبيده وأقاربه وأتباعه ولم يكف الحكومة بأية مصروفات ، بل كان ذلك من إيرادات مشاريعه الخاصة في بحر الغزال وبهذه الجهود تم له فتح دارفور . وهو ينتظر في مقابل كل هذا أن تبقى الحكومة على مديرية بحر الغزال في عهده كما كانت لأنها مقر مشاريعه ومناجيره ، وكذلك شسكا ودارفور اللتان فتحهما بهالهما وسماء رجاله . ولهذا لا ينتظر منه أن يقوم بحملة جديدة نحو بلاد برقو دون أن ينال جنوده شيئا من الراحة ، ودون أن يجنى هو ثمرات ما أفتتح على يديه . وبهذا المنطق وتلك الحجج تحطس مشروع فتح بلاد برقو على يد اسماعيل باشا أيوب (١٢٠) .

وبينما القاهرة والحكمدار تتبادلان البرقيات في مسألة فتح برقو ، كان الزبير متجها بفرقته إلى غرب الفاتر — التي هي حدود برقو — لتعقب ما بقي من عائلة السلطان . وبعد أن تم له ذلك اتجه بجيشه متوغلا نحو الغرب مجتازا في طريقه دارتاما (١٢١) ، المساليت (٢٢) ، تد ، سولا ، فأخضعها جميعا باسم الحكومة إلى أن بلغ في فتوجه توجه برقو الواقعة على حدود مملكة دارفور الغربية والتي يفصل بينها وبين دارا اقليم وأداى . ولكن لم يكد الزبير يتم جهوده بشأن إخضاع وأداى وسلطانها ،

حتى أمره الحكمدار بالرجوع عنها في الحال . فقتل عائدا للناشمر
مناشرا على ذلك الفتاح الذي أفلت من يده . وهناك أخبره الحكمدار
بأن جناب الخديو أمر برجوعه من هذه البلاد مع مكافاته على
ذلك (١٢٣) .

ترقية الزبير والحكمدار :

كان وكيل الحكمدارية على اتصال مستمر بالقاهرة لتبليغها
أولا بأول بأخبار ما يجرى بدارفور ، وكان آخر ما أبلغ به القاهرة
من معلومات هو الانتصارات التي أحرزها كل من جيش الزبير
والحيلة التي بقيادة الحكمدار ومقتل السلطان إبراهيم في ٢٢
رمضان سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٣ نوفمبر سنة ١٨٧٤ م على يد
الزبير . فلم يلبث أن أبرقت القاهرة للخرطوم في ٢٥ رمضان سنة
١٢٩١ هـ الموافق ٦ نوفمبر سنة ١٨٧٤ م بالتهنئة في هذا العمل
المجيد . وأجاب الحكمدار بشكر جناب الخديو على تهنئته هذه بعد
أن قام بتبليغ تهنئة الخديو لكافة الضباط والعساكر في احتفال
عسكري مهيب أطلقت فيه المدافع ابتهاجا بهذه المناسبة (١٢٤) .

وطالب ناظر الجهادية في الثامن والعشرين من شوال سنة
١٢٩١ هـ الموافق ٩ ديسمبر سنة ١٨٧٤ م من الخديو التصديق
على ترقية الضباط الذين أظهروا شجاعة ، ويظلوا جهودا مخلصه
أثناء هذه الحرب إلى رتب أعلى كتوصية الحكمدار له في غاية
رجب سنة ١٢٩١ هـ الموافق ١٠ سبتمبر سنة ١٨٧٤ م (١٢٥) .

وفي التاسع والعشرين من شوال سنة ١٢٩١ هـ الموافق
١٠ ديسمبر سنة ١٨٧٤ م أرسلت أرادة سنية إلى الحكمدار تهنئة
عليها على هذا النصر العظيم للمرة الثانية ، وأنعم الخديو عليه

برتبة الفريق ، والنيشان المجيدى العالى من الطبقة الاولى ، وعلى الزبير برتبة اللواء والنيشان المجيدى من الطبقة الثانية ، وتنبهه الى ضرورة توجيه الاهتمام الكافى لتنظيم امور هذه المديرية الجديدة ، والعمل على راحة اهاليها وطلب ما يلزم لها من العساكر والموظفين (١٢٦) .

وفى ذى الحجة سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٩ يناير ١٨٧٥ م صدرت من المسية اوامر كريمة بهذه الرتب والنياشين الى كل من الزبير والحكمدار ، وتحمل اليهما القناء والشكر على ما بذلاه من جهود مخلصة فى هذه الحرب ، وفى خدمة الحكومة وتحثهم على بذل المزيد من السعى والاجتهاد مقابل الوعد بهزيد من المكافآت والانعامات من جانيها (١٢٧) .

مكان الزبير فى الادارة الجديدة :

لم يكن هدف الزبير الحقيقى من وراء قيامه بنتج بحر الغزال وببلاد شكا ودارفور أن يتولى هو امرضا ، بل كان يؤمن وهو الذى اجتمع حوله جيش كبير ، أن من مسئوليته العمل على استقرار الأوضاع المضطربة فى تلك المناطق بالتمسك نهائيا على الخارجين والمفسدين لهذا الاستقرار . ومن ثم بدأ يعمل ويخطط سياسته التى اصابها النجاح الى حد كبير . ويؤكد ذلك أنه بعد أن أتم فتح بحر الغزال عرض على الحكومة أن ترسل من طرفها من يتولى حكم هذه البلاد حتى يستطيع هو أن ينصرف الى تجارته ، ولكن الحكومة لم تقبل هذا العرض واقترت توليته على بحر الغزال مقابل جرية يدفعها للحكومة . ولم تكن فى اقدامها على هذه الخطوة مضطرة أو مجبرة ، ولكنها رأت أن من صالحها عمل ذلك . وبعد أن تم فتح دارفور ومشاركة الحكومة له فى هذا الفتح نجد أن

سياسة الحكومة قد تغيرت عن سياستها تجاهه عندما اقرت توليته على بحر الغزال . نهي بعد ان تم فتح دارفور لم تقبل بأي صورة من الصور ان يفرد الزبير بشمار نجاحه هذا ، ولكنها لم تصرح له بذلك في بادئ الامر ، بل لعبت السياسة دورها في ملاينته ومهادنته ، حتى تم لها ما ارادت بفضل ذلك بالقضاء على جميع الاضطرابات والثورات التي تولدت بعد الفتح من جانب اقارب السلطان ابراهيم . حينذاك بدأت سلسلة من الاتصالات السرية بين الحكومة والحكماء لتحديد مكان الزبير في الادارة الجديدة .

وفي هذا السبيل تبوألت التفرعات الشيعية العربية والتركية بين الحكماء والقاهرة ، فبعد سفر الزبير متعقبا الامير حسب الله المائر اقترح الحكماء ان يعين شخص آخر غير الزبير مديرا عاما على المديرية الاربع لدارفور برتبة لواء ثم ذكر الاسباب التي بسببها لا يقر صلاحية الزبير لثل هذا المنصب . مضاهيا اليها ان اشراعه على سير الامور في بحر الغزال وشكا يمنعانه من ذلك ، وقد خلج الحكماء من تلقاء نفسه على الزبير لقب « مأمور ادارة دارفور » تطليبا له حيث ان قوائمه كانت تزيد على الستة آلاف رجل وكلها مزودة بالاسلحة النارية ونصفها من عبيده الخصوصيين . وقد علم الزبير انه سوف يعين فعلا على دارفور وشكا وبحر الغزال بارادة سنية سسوف ترد من المحروسة . ويظهر من تفرعات الحكماء الشيعية للقاهرة ان ما دعاه الى انتهاج هذه السياسة هو قوة الزبير التي بدونها لم يكن يستطيع السيطرة على دارفور ولا القضاء على الثورات والتمردات التي ظهرت بعد الفتح . لذلك رأى مجارته وتطبيب خاطره الى حين . واقترح الحكماء ايضا ان ترد الارادة السنية بفصل ادارة دارفور عن بحر الغزال وشكا ويعين مدير عام برتبة لواء عليها ، اما بترقية حسن بك حلي الموجود بالفاشسر آنذاك او من تراه الحكومة .

صالحا لهذا المنصب ، وبذلك تحال شكا وبحر الغزال الى مهدة الزبير مؤقتا كما كانت من قبل ، وكان الحكمدار يرى أن ذلك هو الطريق الوحيد لادارة دارفور ادارة رشيدة ، في حين أن الأهالي هناك كما يقول الحكمدار يذمرون من حكم الزبير وادارته ، وأن كل تلك الاقاليم الشاسعة فوق قدرته الإدارية .

وبعد خمسة أيام من تاريخ ارسال هذه الدقية رأى الحكمدار أنه بعد ذهاب الزبير الى شكا وبحر الغزال ، لن تكني القوة النظامية الباقية لحفظ الأمن ، وأنه لذلك يرى ضرورة الإبقاء على الزبير حينما من الزمن بدارفور يشرف فيها على الادارة ويبقى معه حسن حلمى بك كقائد للعساكر الجهادية حتى يتكامل ورود العساكر والموظفين من مصر . وفي هذه الحالة تستطيع القوة المصرية العمل على حفظ النظام والدخاع من دارفور بما فيه الكفاية . وعندئذ فى الامكان ارجاع الزبير الى مقر وظيفته الاولى فى مديرية بحر الغزال وشكا . ولكن الحكمدار تردد مرة اخرى فى خطته وابقى للقاهرة مقترحها تاسيس مديرية عامة لغرب السودان ، تشتمل دارفور وبحر الغزال وشكا وأن يعين الزبير بها مديرا لبحر الغزال وشكا ، وحسن حلمى بك مديرا لدارفور ، وحسن حلمى بك قائدا للعساكر الجهادية ، على أن يكون على رأس هؤلاء جميعا خالد باشا بعنوان مدير عموم غرب السودان ، الذى كان يشغل فى ذلك الوقت قائمقام الحكمدارية بالخرطوم . وترك الحكمدار أمر الانعسار على هؤلاء بالرتب والنياشين لارادة ولى النعم وفلك حفا لهم على زيادة نشاطهم فى خدمة الحكومة . وكانت هناك وجهتان للنظر فى هذه المسألة :

الاولى : أن يعهد الى الزبير بحكم دارفور وبحر الغزال وشكا وتمتخ برقو ، ويعين بهذا مديرا على كل الجهات الغربية ،

ولكى يظل هذا الجزء منفصلاً عن حكمدارية السودان مثل شرق السودان ، والا تتحمل الحكومة أية مصروفات لها .

الثانية : هي أن يبقى الزبير في الوقت الحالي بدارفور الى ان يتم اخضاع كل الجهات فيها وترد للمديرية القوة العسكرية الكافية . واثناء ذلك نحتاج دارفور الى مصروفات تبلغ بين سبعة وثمانية آلاف كيسة تنقلها الحكومة وبعدها تتحرك فرقتان احدهما من دارفور والثانية من بحر الغزال وتتجهان نحو فتح برقو (١٢٨) .

وفي التاسع من ذي الحجة سنة ١٢٩١ هـ الموافق ١٧ يناير سنة ١٨٧٥ م أبرق الحكمدار للقاهرة يطلب الابقاء على الزبير وجماعته بدارفور بصفة مؤقتة بحيث يمين عليها رسمياً بمعاون مدير عموم ، لكي يسهل بعد ذلك نزع بحر الغزال من ادارته دون جهة شك ، ولكي يقوم باستكمال ما بدأه من اخضاع بقية اهالي دارفور لطاعة الحكومة . وقد صار الاهالي يخشون بطش الزبير وبأس جماعته ورأى الحكمدار صرف النظر مؤقتاً عن تعيين خالد باشا حتى لا يحدث انشقاق في الادارة والاكتفاء بالابقاء على حسن بك حلمي بوظيفة قومندان للمساكر النظامية ثم يعين حاكماً على دارفور عند قيام الزبير بفتح جهة برقو (١٢٩) .

وفي نفس التاريخ ابلغ الحكمدار القاهرة بأنه عند مسندور الامر بنزع جهة بحر الغزال من ادارة الزبير ، واحالة دارفور عليه يصير السماح له يأخذ اربعمائة قنطار مسن ميل تملقه والموجودة ببشسارعه في بحر الغزال ، وكذلك بقية ما له من الاشياء مثل الاسلحة والذخائر وخلافه ، على ان يكون ذلك من جملة مكائاته من جناب ولي النعم الخديو (١٣٠) .

أبقى الحكمدار الى الخديو يعدل في اقتراحه للمرة الثانية مشيراً بأن تضاف كردفان الى الجهات الغربية على أن تتبع كلها خالد باشا ، وتعيين الزبير مديراً على دارفور ، وحسن بك طمى تومنداقا على العساكر النظامية ، وحسن بك رفعت مديراً على كردفان (١٣١) .

وقد صدرت ارادة سنية الى حكمدار السودان في السادس من محرم سنة ١٢٩٢ هـ الموافق ١٣ فبراير سنة ١٨٧٥ م تعليمه بانه سوف تصدر الاوامر اللازمة بتميين الزبير باشا مديراً عاماً على دارفور ، وتخبره بصفة قاطعة بعدم مفادرة الفائز الى الخرطوم الا بعد صدور التعليمات بذلك اليه (١٣٢) .

وفي التاسع عشر من محرم من نفس السنة الموافق ٢٦ فبراير سنة ١٨٧٥ م صدر أمر كريم الى حكمدار السودان بالفاشر ، وفيه توضح القاهرة النقاط والاسباب التي تركز عليها لمنع تعيين الزبير باشا في منصب مدير دارفور وهي كالآتي :

(١) خوف الحكومة من ان يطمع الزبير في الاستقلال بها تحت يده من البلاد التي سوف يعين عليها .

(ب) ترى الحكومة أن عمله في التجارة بالاضافة الى وظيفته التي سوف يعين بها تمنعه من أن يمارس مهام هذه الوظيفة ، كما أنها ترى أنه لا يجوز الجمع بين التجارة والادارة . وأنها مستعدة لاستلام مشاريعه ومناجره بأثمان مناسبة كما فعلت مع بعض التجار الأوروبيين من قبل إذا أراد ان يعين بهذه الوظيفة .

(ج) كان جنود البحارة ينفرون من اتباعهم نظام خاص ومعنى استمرارهم في خدمة الحكومة مما يقتضى ضرورة خضوعهم لنظمها وتناول مرتبات كبقية الجنود الآخرين وهذا ما يصعب تحقيقه .

والظاهر أن الجنود الجهادية بعد أن تكامل منهم عدد وغير
بدارغور ، رأى الحكمدار أنه ليس هناك حاجة لتعيين الزبير في
المنصب الذي سبق أن اقترحه كما أنه رأى من خلال تفكيره (أي
الزبير) عدم كفايته لإدارة هذه الأراضي ، وأنه يصعب عليه التعاون
مع مرموسيه من أصحاب الرتب النظامية في الجهادية والموظفين
المدنيين الآخرين الذين يحضرون من مصر ، كما أنه لا يريد أن
يتخلّى عن جنوده البحارة . ويرى الحكمدار فوق كل هذا أن الزبير
نفسه راغب عن إدارة دارغور ، وأنه يكفي ببحر الغزال . ولهذا
أعلن تعيين حسن بك حلمى مديراً على الفاشسر بعد ترقّيه لرتبة
اللواء ، ومديريتين أخريين بصفة مؤقتة . أما دارا التى تقع قبلى
دارغور فقد حولت إدارتها مؤقتاً على الزبير . وقد أراد الحكمدار
إبعاد الزبير عن إدارة دارغور ، ونفى نفس الوقت عمل على الإبقاء
عليه بدارا كى يستعين به على أخمد الفتن التى قد تنشب بدارغور
وذلك لعدم استطاعة الحامية المصرية القيام بذلك نظراً لقلة
عددها . والحل الأخير الذى ارتآه الحكمدار لمشكلة الزبير هو أنه
عندما يعود إلى بحر الغزال يوكل إليه في الحال مهمة فتح برتو ،
ويعين مديراً على ما يفتتحه من أراض بترك الجهة ، ثم يتم نزع
جهة بحر الغزال من إدارته وبذلك تتخصص الحكومة من إدارته
لدارغور ، ومن مشاريعه ومناجيره وجنوده البحارة في بحر الغزال .
ولم يمانع الزبير في ترك إدارة دارغور ، ولا في امتلاك الحكومة
لمشارعه ومناجيره في بحر الغزال ، ولكنه طلب أن تبقى له الحكومة
على ستمائة قنطار من سن الفيل الموجود لديه في بحر الغزال ،
كما تعهد أن يورد للحكومة السن والشبان الصالحين للجنودية بما
قيمه خمسة آلاف كيس باعتبار قنطار السن بخمسة ومئتين
حنيهاً ومكافأة الحنّدى خمسمائة قرش ، وما يزيد على ذلك ترسل
له الحكومة ما يقابله من البارود واللوازم الحربية الأخرى . ولم
يمانع أيضاً في تحويل رجاله من البحارة الذين يصحبونه إلى

مسافر حكومية بمرتبات ثابتة ، وقد صدق ظن الحكمدار بعد ذلك من ان امالى دارفور لابد انهم قد يعاودون المعصيان مرة اخرى ، وان وجود الزبير بدارفور ضرورى لكسر شوكتهم ، وبعد أداء الزبير لمهامه يستطيع الحكمدار ان يقوم بتنفيذ الحلقة الأخيرة من سلسلة اجراءاته تجاه الزبير ، فقام الزبير بتسليم مديرية دارا بعد هدوء الأحوال نسبيا بدارفور ، متعينا للرحيل لشكا وبحر الغزال حيث اصبح لا حاجة له ولا لوجوده بدارفور (١٣٢) .

الزبير يعترف بالسفر للقاهرة :

لم يكن الخلاف بين الحكمدار والزبير في مسألة الضرائب ، وتنصيب الأمير حسب الله على دارفور ، وتحديد مكانه في الإدارة الجديدة ، الا اسبابا اختلقها الحكمدار ليدفع بالزبير لطلب اللجوء للقاهرة لعرض حقيقة الأمور هناك على الخديو لانصافه . ولم تكن البرقيات التي تبودلت بين القاهرة والحكمدار مسسوى نوع ، من المناورات والخدع السياسية التي استهدفت استئصال شامة الزبير كليا من السودان .

وقد شعر الزبير منذ اليوم الاول الذي اجتمع فيه مع الحكمدار بالفأثر ان هناك بعض الانقباض والنفور منه ، ولعل ذلك كان مرجعه الى شعور الحكمدار بأن فخر فتح دارفور يعود للزبير . ثم توالى على الزبير بعد ذلك الوعود الكثيرة التى سرعان ما كانت تنبخر الواحد تلو الآخر ، ثم اجراءات استسمايل باشا ايوب من حيث ادارة دارفور وفتح برتو ، وعلم الزبير برغبة الحكومة في تسريح جنوده البحارة ، واستلام مزارعه الموجودة في بحر الغزال . كل ذلك جعل الزبير يظن ان الحكمدار اراد حرمانه من مزار انتصاراته من لقاء نفسه ، وان الخديو لا يتفق معه في تلك

السياسة . وإن من الأوفق الذهاب الى القاهرة ، وعرض الأمر على الاعتبار العلية ، وما كان يدري أن تلغرافات الشفرة المتبادلة بين الحكومة والحكماء هي التي تلى هذه السياسة . وإن الحكماء هو الذي يقترح والخديو يوافق بعد أن يفتنع بصحة الاقتراح . وما كان يدرك الزبير بحكم تربيته وبذاته أن هناك باطنا من الأمر وظاهرا . وإن السياسة هي حيل وساورات ، وما كان له أن يدرك أيضا طريقة الدسائس التركية ، فكان يأخذ الأقوال التي يبديها له الحكماء على ظاهرها ، ولم يشعر أن هناك تخوفا من جهته للقيام بعصيان أو تمرد . وهو بطبيعته البسيطة وسليته العربية الواضحة ما كان مخادعا في ولائه للحكومة الخديوية ، وظل ثابتا على إخلاصه منذ قطع عهدا على نفسه بالولاء لهذه الحكومة عنما تغلب على قوات البلال ودفع عن نفسه تهمة التمرد والثورة ، غير أن عنصر الحكم التركي حين ذاك ما كان يصمدق أن رجلا عصاميا كالزبير عمل لنفسه مجدا في مجاهل أفريقيا والتف حوله عدد من الاتباع وفتح بقواته وموارده الخاصة بلاد دارفور ، أن يكون خلوا من المطامع . وما كانوا يحكم أفكارهم وتقاليدهم التركية أن يطعنوا الى مثل هذا الرجل ، فقد تعنى أقواله الظاهرة معنى عكسيا لما يبطنه في ضميره لذلك كان موقف الحكماء معه يتسم منذ البداية بالحذر والاحتراس (١٣٤) .

وجد الزبير أن من الأصوب السفر الى مصر لمقابلة الخديو شخصيا وعرض حقيقة الموقف عليه ، والنظر معه ومع رجال حكومته في أمر تنظيم البلاد التي تم فتحها على يده ، والبلاد التي يمكن إلحاقها بحكومة الخديو في المستقبل ، لحاءه في غرة رجب سنة ١٢٩٢ هـ الموافق ١ أغسطس سنة ١٨٧٥ م تلغراف من القاهرة بالموافقة على حضوره إليها (١٣٥) . فأجاب الزبير على هذه البرقية بتقديم الشكر للجانب العالي الخديو وسرويه لذلك

وأبلاغه بقيامه بالاستعداد للسير وذلك في برقية بعث بها في ١٩
رجب سنة ١٢٩٢ هـ الموافق ١٩ أغسطس سنة ١٨٧٥ م (١٣٦) .

نفذ الحكمدار سياسة إخلاء دارفور بأكلها من نفوذ الزبير ،
وقدم الزبير قبل قيامه عريضة للخديو يشكو فيها من استعجال
الحكمدار لجنوده من البحارة بالرجوع إلى بحر الغزال وفصل
مديرية دارا عنه ، وهو يرى أن اختلاط سكان المديريتين دارا
وبحر الغزال يجعل انفصالهما اداريا أمرا مكاد من الصعب
تحقيقه ، فجاءه الرد من القاهرة بأن أوامر الحكمدار لابد من
تنفيذها في الوقت الحاضر ، وأنه بعد حضوره لمصر سينظر معه
في تشكيل حكمارية يكون هو على رأسها تشمل بحر الغزال
وربما جزءا من دارفور . وقد خشي الحكمدار أن يقسم الزبير
بمحاولة للسيطرة على دارا ، فبعث بجنود كثيرة اليها حتى إذا
بدت أية حركة من الزبير انعض عليه جنود الجهادية . ورأى
الحكمدار أن البارود الذي طلبه الزبير من بحر الغزال مبالغ في
كميته . وهكذا لآخر لحظة كان الحكمدار يشك في ولاء وأخلاص
الزبير .

تحرك الزبير من شكا قاصدا كردفان ومعه رؤساء البارفور
بعد أن ثلثت القاهرة والخرطوم من التأخير . وبدأ الحكمدار يضع
العراقيل في طريقه ، فبعد أن اتفق مع الزبير على توريد أقمشة
وأشياء أخرى بلغ ثمنها نحو السبعة آلاف جنيه يصرمها من خزنة
الحكمارية بالخرطوم . أرسل تلغرافا لمصر بسحب اتفاقه هذا
لأن أهالي دارا كما يقول الحكمدار قدموا عرائض بأن هذه الأقمشة
وغيرها التي وردها الزبير كانت ملكهم واغتصبها منهم الزبير
لنفسه ، ولذا ينصح بمماطلة الزبير في الدفع بحجة عدم وجود
النقدية ، وفعلا أخبر قائمقام الحكمارية مسرعا بذلك الأمر وقد
عوجى الزبير بأمر الحجز على السن وهو في الأبيض (١٣٧) .

بعث الزبير شكوى الى الجنب العالى الخديو فى ٢٩ ذى
الحجة سنة ١٢٩٢ هـ الموافق ٦ فبراير ١٨٧٦ م يخبره بها بمطه
مدير كردغان ، فجاءه رد القاهرة تبلغه بتكديرها للمدير المذكور
على ما بدر منه من سوء تصرف ، والتصريح له بأخذ السن
الخاص به . وكانت القاهرة قد ارسلت الى مدير كردغان تلومه
على عمله هذا وتبلغه بأن الزبير باشا ليس تاجرا وانما هو من
كبار موظفى الحكومة كما ان السن المذكور يرسم حضوره الى
مصر (١٢٨) .

وتد موجه الزبير للمرة الثانية عندما وصل الخرطوم وطلب
صرف قية ما ورده للميرى من أقمشة وخلافه أنه لم يستجب
لطلبه قائم بالحكمارية حسب تعليمات الحكمدار . ولكن بعد
التلغرافات العديدة التى تبودلت صرف له نصف المبلغ . وفى بربر
طلب مبلغا آخر وبعد أن تبودلت التلغرافات مع القاهرة صرف له
جانب منها . فقام من بربر مخترقا صحراء العتور الى كرسكو
ومنها الى مصر . والدليل الثابت على تخوف الحكومة من الزبير
هو أن الحكمدار صدرت له الأوامر بأن يبقى بدارفور حتى يغادر
الزبير الخرطوم ، ويُنْتَظَر بالخرطوم حتى يثيقن من وصول الزبير
الى كرسكو ، وتحت ستار التفتيش على الشمال يسافر الى مصر
حسب ما طلب منذ مدة (١٣٩) .

وصل الزبير الى القاهرة فى الخامس من يونية سنة
١٨٧٥ م (١٤٠) وتشرف بمقابلة جناب الخديو بقصر الجيزة ،
مترحب به وببالغ من اكرامه ، وانرد له احد قصوره بالعباسية ،

مئزل به هو وأسسرتة وأتباعه ضيوماً على الخديو . ولم يكد يستريح من عناء السفر حتى تقدم الى قهرمان الخديو بكتاب طلى العبارة رقيق الحاشية يرجو فيه أن ترفع الى السيدة الكبرى المصرية مديته المتواضعة التى احضسرها معه لتعزيز مصر من السودان ، وهى عبارة من :

« ألف جندى سودانى مدججين بالعدة والسلاح ، مائة مئقل من الذهب ، مائة جواد عربى ، مائة وخمسين قنطار من نيل ، أربعة أسود ، أربعة نمور كاسرة ، ست عشرة ببغاء من ذوات الالوان الزاهية ، فسر الخديو من هذه الهدية سروراً بالغاً ، ونهى الى الزبير امتنانه من مديته فى كتاب أرسله اليه قهرمانه خيرى باشا . وبقي الزبير فى قصر العباسية حتى اغسطس سنة ١٨٧٥ م . فدماه الخديو اليه بقصر الجيزة وأصدر له ايراً بالذهب للسفر قريباً الى السودان ، فشكره الزبير على ذلك ودما له وشرع يستعد للسفر . ومضت أشهر ثم دعاه الخديو اليه ثانية وقال له : يا زبير قد استصويت بقاءك فى القاهرة حتى انظر فى امرك فأجابه امرك يامولاي فاتصرف الزبير والاسى بحز فى نفسه وقد أدرك فى امواق سريرته ما كان يتوقعه وما جئل فى نفوس أتباعه (١٤١) .

والمجيب أن بعض رجاله وأعوانه قد حاولوا قتل سفره أثناءه من الرحيل غير أن اخلاصه وولاءه لحكومته وشرفه قضى عليه بالمحاطة على وعده بالسفر الى مصر (١٤٢) .

وهنا الخطأ الذي وقع فيه الزبير وهو تقريره الذهاب للقاهرة لكي يضع حدا للامور المتنازع عليها بينه وبين الحكمدار . وكان الخديو اسماعيل انكى من ان يعيد الزبير باشا الى السودان وهو الرجل الذي حكم مديرية في حجم فرنسا ، وغزا علاوة على ذلك أكثر من ١٤٠.٠٠٠ ميل مربع من أجل مصر . لذلك نراه يقضى بقية حياته كضيف شرف لدى الخديو (١٤٣) .

كان الصراع بين الزبير والحكمدار رمزا للصراع بين العقليّة السودانيّة الاسلاميّة والعقليّة المصريّة التركيّة ، فالزبير يريد تخفيف الضريبة والاكتفاء بالزكاة التي يفرضها الشرع ، والحكمدار يريد أن يعصر البقرة التي كانت حلوبا ثم جف ثديها . ولو بقى الزبير في السودان لافطره هذا الاختلاف الى الثورة في وجه الحكومة . ولكنه أبعد عن مسرح الأحداث في الوقت المناسب قبل أن يستعمل أمره ويصبح زعيما قوميا (١٤٤) .

هوامش الفصل الثالث

(١) سلطنة دارفور : تمتد من بحر المتوسط في الصحراء الكبرى شمالا إلى بحر الغزال جنوبا ، ومن النيل الأبيض شرقا إلى نرجة بلرقا غربا . ويشتمل جبل مرة الذي يبلغ عرضه مسيرة شهر اليومي ، وهو سهل محدد من غربها الذي تقع السهول في شماله فقط . والفرع شعب مسلم يراعى يحتل جبل مرة والسهول التي تقع حوله ، ويوجد ضمن شعب النور شعبه خاصة من أبنائه تسمى التجارة وهي التي منها سلاطين دارفور . ويوجد بدارفور قبائل منها الداجو ، والبيغو ، والبرغو . وهناك أيضا قبائل القرعان ، والبشرايات ، والرخاوة وهي جماعات رحوية أصلها من جنوب ليبيا وتكاد . ومناخ هذه البلاد في جبلته ملائم . وصناعة السكان هناك تقتصر على تربية الخنثىة والابل والأغنام ، والزراعة حيث توجد الأرض وهم يعتمدون على مياه الأمطار . وأهم محاصيلهم البقول والخضر ، ويقتل التجار على دارفور للتجار فيما نقله أرضها من الخشب والصمغ العربي والقوم الذي يستخدم في الطباعة كما يستخرج بعض المعادن منها على سبيل المثال الحديد والنحاس .

Shikry, M.F. : The Khedive Ismail and slavery in (٢)
the Sudan 1863 — 1879. P. 211.

Budge, E.A. Gullis : The Egyptian Sudan (٣)
Vol : 2, P. 23.

Shikry, M.F. : Op. Cit., P 222. (٤)

(٥) السلطان حسين بن الفضل (١٨٢٩ م — ١٨٧٤ م) : كان معاصرا لمعبد باشا والخير اسماعيل فبطلها الهدايا والكنائس . وكان كريبا محبا لرعيته . وفي سنة ١٨٥٦ م كان يصره وألف جيشا يزيد على ١٠٠٠٠ مقاتل مسلح بالأسلحة النارية فكان هو أول من استعمل الأسلحة في جيش دارفور . وكان اعتماد السلاطين قبله على الحواب والسيوف والدرق والخشب والسكاكين .

Shukry, M.F. : Op. Cit., PP. 222 — 224.

(٦)

(٧) شجرة التيلدي : تسمى شجرة الياباب وهي من أشجار منطقة المشكش المشيرة الشوكية بوسط كردفان وتكثر بدار حمر ، وكل أسرة في تلك النواحي تملك عدداً من هذه الأشجار في نطاق عدة أميال ، وهي ضخمة جداً ذات أقصان قصيرة منتشرة بعضها أجوف بطبيعته حيث قام الأجداد منذ أمد بقطع الأخشاب من داخل جذوعها لكي يستعملوا خزانة كبيرة يستوعب الواحد منها ألف جالون من مياه الأمطار . ويستفاد من ثمرها الذي يقبه التليون الجاف باستخدامه كدواء ، ويترك لعالمها لكي يستعمل في تعريض المنازل . ويتجمع الأعمى حولها ليستمتعوا بظلالها الوارفة من شدة الحرارة .

(٨) شوقي الجبل (دكتور) : تفرخ سودان وادي النيل ج ٢ ص ١٧٧ .

(٩) لم تذكر المراجع تاريخ بدء وانتهاء هذه الحرب باليوم والشهر إنما ذكرت السنة فقط .

(١٠) السلطان إبراهيم : هو أحد السلاطين الفور وكانت مدة حكمه سنة وسبعة شهور وأربعة عشر يوماً . ولما مرض والده السلطان حسين وحطم بدنته أجله أراد أن يطمس على الملك من بعده ، وبضمينه لأنه إبراهيم لأنه كان أحب أبنائه إليه بالرغم من أنه لم يكن أكبرهم . فانتدب اثنين من أمثاله هما الأمين بخيت والأمين خير حرب وحلقهما على المصحف بأن يوليا ابنه إبراهيم بعد ولعته فلما تولى السلطان أخيراً خبر موته وأرسلوا للأمير إبراهيم فأجلساه على كرسي السلسلة وباعه الوزير أحمد شطة وأرسلوا إلى الوزراء واحداً بعد الآخر فحلقوا له الأمين على الطاعة . وقد اشتهر السلطان إبراهيم بالكرم والشجاعة كآبيه وبلى ناقة النكبة في دارفور إلى أن قتل في بلدة منوالشي في ١٤ رمضان سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢ أكتوبر سنة ١٨٧٥ م في واقعة شهيرة شديدة بهنه وبين الوزير . وكان في مقله زوال لسلطنة دارفور ودخولها في حوزة الحكومة .

(١١) انظر تماسيل هذا الموضوع بالفصل الثاني .

Shukry, M.F. : Op. Cit., PP. 224 — 227.

(١٢)

(١٣) عبد الرحمن زكي : أعلام الحش والتجربة في حمر في القرن التاسع عشر ج ١ ص ٩٣ .

(١٤) الشاطر بصيلي : معالم تاريخ سودان وادي النيل من القرن العاشر إلى التاسع عشر الميلادى ص ١٥٨

(١٥) سعد الدين الزبير : الزبير باشا رجل السودان ص ٧٥ .

(١٦) عبد الرحمن زكي : المرجع السابق ج ١ ص ٩٣ .

- (١٧) محمود البكاشى : السودان المصري الإنجليزي من ص ٢١٦ - ٢١٧ .
- (١٨) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من ص ٧٥ - ٧٦ .
- (١٩) Shukry, M.F. : Op. Cit., P. 227.
- (٢٠) إبراهيم فوزى : السودان بين يدي هوردون وكاتنر من ١٢٧ .
- (٢١) انظر الوثيقة رقم (٢٤) دفتر رقم (١٨٧٥) وارد مكاتبات محبة سنوية من (٧١) مكتبة رقم (١٠) .
- (٢٢) Shukry, M.F. : Op. Cit., PP. 227 - 228.
- (٢٣) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من ص ٧٦ .
- (٢٤) Shukry, M.F. : Op. Cit., P. 228.
- (٢٥) انظر الوثيقة رقم (٢٥) دفتر رقم (١٧) مسافر عابدين لقراءات سفرة تركى من ص (١٢/٢٢ ، ١٢/٢٤ ، ١٢/٢٥) تلغراف رقم (١٢٨) .
- (٢٦) الزبير رحمة : (جمعة ياسين عبد محمد) : الأجوبة السديدة لى انذار وتهديد اهل المكدة من ص ١٠ - ١٢ .
- (٢٧) الزبير رحمة : (جمعة ياسين عبد محمد) : نفس المرجع من ص ١٢ - ١٥ .
- (٢٨) انظر الوثيقة رقم (٢٦) دفتر رقم (١٧) مسافر عابدين لقراءات سفرة تركى من ص (١٣/٢٥ ، ١٣/٢٦) تلغراف رقم (١٢٩) وكذلك انظر الوثيقة رقم (٢٧) دفتر رقم (١٧) مسافر عابدين لقراءات سفرة تركى من (١٤/٢٧) تلغراف رقم (١٤٢) .
- (٢٩) مكي شبكة (دكتور) : السودان عبر القرون من ١٧٥ .
- (٣٠) انظر الوثيقة رقم (٢٨) دفتر رقم (١٨٧٥) وارد محبة سنوية مكاتبات من (٧١) مكتبة رقم (١١) وكذلك انظر الوثيقة رقم (٢٦) دفتر رقم (٢٣) وارد عابدين تلغرافات سفرة مرسى من (٨/٧) تلغراف رقم (٣٥) .
- (٣١) انظر الوثيقة رقم (٣٠) دفتر رقم (١٧) مسافر عابدين لقراءات سفرة مرسى من (١٥) تلغراف رقم (٥٥) .
- (٣٢) انظر الوثيقة رقم (٣١) دفتر رقم (٢٢) وارد عابدين لقراءات سفرة مرسى من ص (٦/١١ ، ٦/١٢) تلغراف رقم (٦٥) وكذلك انظر الوثيقة رقم (٣٢) دفتر رقم (٢٣) وارد عابدين لقراءات سفرة مرسى من ص (٦/١٢ ، ٦/١٤) تلغراف رقم (٦٦) .
- (٣٣) انظر الوثيقة رقم (٣٢) دفتر رقم (٢٢) وارد عابدين لقراءات سفرة مرسى من ص (٧/١٢ ، ٨/١٤) تلغراف رقم ٦٧ .

- (٣٤) انظر الوثيقة رقم (٣٤) دفتر رقم (٢٢) وارد مابينين تلفراتات شفرة
عربي من (٨/١٤ ، ٨/١٥) تلفرات رقم ٦٨ .
- (٣٥) انظر الوثيقة رقم (٣٥) دفتر رقم (٢٢) وارد مابينين تلفراتات شفرة
عربي من (٨/١٥) تلفرات رقم (٦٩) .
- (٣٦) انظر الوثيقة رقم (٣٦) دفتر رقم (١٧) صادر تلفراتات شفرة عربي
من (١٩/٣٢) تلفرات رقم (١٧١) .
- (٣٧) انظر الوثيقة رقم (٣٧) دفتر رقم (٢٣) وارد مابينين تلفراتات شفرة
عربي من (١٨) تلفرات رقم (٩٥) .
- (٣٨) انظر الوثيقة رقم (٣٨) دفتر رقم (١٧) صادر مابينين تلفراتات شفرة
تركي من (١٩/٣٧ ، ١٩/٣٨ ، ٢٠/٣٩ ، ٢٠/٤٠ ، ٢١/٤١) تلفرات رقم
(٢٠١) .
- (٣٩) انظر الوثيقة رقم (٣٩) دفتر رقم (٢٣) وارد مابينين تلفراتات شفرة
تركي من (١٦/٢١ ، ١٦٦٢٢ ، ١٧/٢٣) تلفرات رقم (١٧٥) .
- (٤٠) انظر الوثيقة رقم (٤٠) دفتر رقم (١٧) صادر مابينين تلفراتات شفرة
تركي من (٢٢/٤٤ ، ٢٢/٤٣) تلفرات رقم (٢٩) .
- (٤١) انظر الوثيقة رقم (٤١) دفتر رقم (١٩٤٨) اوامر عربي من (٥٥/٥٣)
امر رقم (٩٧) .
- (٤٢) انظر الوثيقة رقم (٤٢) دفتر رقم (١٨) صادر مابينين تلفراتات شفرة
عربي من (٣/٤٧) تلفرات رقم (٩٧) .
- (٤٣) انظر الوثيقة رقم (٤٣) دفتر رقم (١٨٧٥) وارد مجلة سنية عربي
من (١١٠) مكتبة رقم (٣٨) .
- (٤٤) انظر الوثيقة رقم (٤٤) دفتر رقم (١٨٧٥) عيد الالامادات الواردة الى
المعية من الحيريات واللباطات والمسيرة من (٩٠) اعادة رقم (٢٩) .
- (٤٥) انظر الوثيقة رقم (٤٥) دفتر رقم (١٩٤٨) صادر المعية عربي من
(٧٣) مكتبة رقم (٢٧) .
- (٤٦) الأوردى - عيلة عن سوية شبه نظامية كان يكونها ملوك الشايبة
للخدمة مع الحكومة المصرية .
- (٤٧) انظر الوثيقة رقم (٤٦) دفتر رقم (١٩٤٨) اوامر عربي من (٧٣) امر
رقم (٢٥) .
- (٤٨) انظر الوثيقة رقم (٤٧) دفتر رقم (٢٤) وارد مابينين تلفراتات شفرة
عربي من (٢٦٥١) تلفرات رقم (٣٧٤) .

- (٤٩) الكتلة : تقع على مسيرة خمسة أيام من دارفور وتعتبر موكداً للإدارة على هذا النتح .
- (٥٠) أنظر الوثيقة رقم (٤٨) دفتر رقم (٢٤) وارد حابدين ظفرانات شفرة عيسى من من (٤٠/٧٩ ، ٤٠/٨٠) ظفران رقم (٥٤٥) .
- (٥١) أنظر الوثيقة رقم (٤٦) دفتر رقم (٢٤) وارد حابدين ظفرانات شفرة عيسى من من (٤٢/٨٤ ، ٤٢/٨٣) ظفران رقم (٥٧١) .
- (٥٢) أنظر الوثيقة رقم (٥٠) دفتر رقم (١٨) صادر حابدين ظفرانات شفرة عيسى من من (٢٦/٥٢ ، ٢٧/٥٣) ظفران رقم (٢٥٧) .
- (٥٣) أنظر الوثيقة رقم (٥١) دفتر رقم (٢٤) وارد حابدين ظفرانات شفرة عيسى من من (٤٥/٨٩ ، ٤٥/٩٠) ظفران رقم (٦٠٨) .
- (٥٤) أنظر الوثيقة رقم (٥٢) دفتر رقم (١٨) صادر حابدين ظفرانات شفرة عيسى من من (٢٨/٥٦ ، ٢٨/٥٧) ظفران رقم (٢٧١) .
- (٥٥) كما وردت منس الوثيقة رقم (٥٤) ولا يعلم منها على تنس جهة بسيطة يدارور أو على نسبية نخطها التي في مسر أو على النصات الجنوبية لدارفور .
- (٥٦) أنظر الوثيقة رقم (٥٣) دفتر رقم (١٨٧٥) وارد محبة سنية عيسى مكاتات من (١١٩) مكاتية رقم (٣) حور .
- (٥٧) أنظر الوثيقة رقم (٥٤) دفتر رقم (٢٥) وارد حابدين ظفرانات شفرة تركي من من (٢٨/٥٦ ، ٢٩/٥٧) ظفران رقم (٤٤٥) .
- (٥٨) أنظر الوثيقة رقم (٥٦) دفتر رقم (١٩) صادر حابدين ظفرانات شفرة تركي من (١٢/٢٣) ظفران رقم (١٥٠) .
- (٥٩) أنظر الوثيقة رقم (٥٦) دفتر رقم (٢٥) وارد حابدين ظفرانات شفرة عيسى من من (٣٦/٧٢ ، ٣٧/٧٣) ظفران رقم (٥٦٨) .
- (٦٠) أنظر الوثيقة رقم (٥٧) دفتر رقم (١٩) صادر حابدين ظفرانات شفرة عيسى من (٢٠/٣٩) ظفران رقم (٢٥٤) .
- (٦١) أنظر الوثيقة رقم (٥٨) دفتر رقم (١٩) صادر حابدين ظفرانات شفرة عيسى من (٢٠/٤٠) ظفران رقم (٢٥٧) .
- (٦٢) أنظر الوثيقة رقم (٥٩) موسيه رقم (٣) ملف رقم (٥) مسلسل الوثيقة (بدون) .
- (٦٣) مكي شبكة (دكتور) : السودان في قرن من سنة ١٨١٩ — ١٩١٩ من ٩٠ .

- (٦٤) انظر الوثيقة رقم (٦٠) دفتر رقم (٢٨) وارد مابين تفرغات عيسى
شجرة من من (٣/٦ ، ٤/٧) تفرات رقم (٢٦) .
- (٦٥) انظر الوثيقة رقم (٦١) دفتر رقم (٢٠) صادر مابين تفرغات
شجرة عيسى من من (٤٧/٦٤ ، ٤٨/٦٥ ، ٤٩/٦٦) تفرات رقم (٥٦٧) وكذلك انظر
الوثيقة رقم (٦٢) حوسيه رقم (٣) ملك رقم (١) وثيقة رقم (٧) .
- (٦٦) انظر الوثيقة رقم (٦٣) دفتر رقم (٢١) صادر مابين تفرغات من
(٦/٥) تفرات رقم (٧٦) وكذلك انظر الوثيقة رقم (٦٤) دفتر دفتر رقم (٢٨)
وارد مابين تفرغات شجرة عيسى من من (٣٠/٦٠ ، ٣١/٦١) تفرات رقم (٢٩٢)
وكذلك الوثيقة رقم (٦٥) دفتر رقم (٢٨) وارد مابين تفرغات شجرة عيسى من من
(٣٥/٦٩ ، ٣٥/٧٠) تفرات رقم (٤٥٢) .
- (٦٧) انظر الوثيقة رقم (٦٦) دفتر رقم (٢١) صادر مابين تفرغات شجرة
عيسى من من (١٦/٢١ ، ١٦/٢٢) تفرات رقم (٢٣٧) .
- (٦٨) محمد مؤلف شعري (مكتور) : بحر والسودان تاريخ وحدة وادي
النيل السياسية في القرن التاسع عشر ١٨٢٠ - ١٨٦٦ م من ١٢٦ .
- (٦٩) دارا : وهي ثمانية المدن من حيث الاهمية بعد القاهرة وبها استحكام
منح جري بها حاكم عديدة بين الزبير والسلطان
(٧٠) البرقد : وهي احدى القبائل بدارفور في ذلك العهد . مركزهم جبل
مسكر بين جبل حريزة وجبل مرة قبل ان يندمج الى الان صلبا يبدوله سرا .
ومتهم لمسيحة تعرف بباب ورق شعيت ونسيه لفتها .
- (٧١) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من من ٧٧ - ٧٨ .
- (٧٢) الزبير رحمة : (جنة ياسين حد محمد) : المرجع السابق من من
١٩ - ٢٢ .
- (٧٣) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من من ٧٨ .
- (٧٤) الزبير رحمة : (جنة ياسين حد محمد) : المرجع السابق من من
١٧ - ١٨ .
- (٧٥) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من من (٧٨ - ٧٩) .
- (٧٦) سعد الدين الزبير : نفس المرجع من من (٧٩ - ٨٠) .
- (٧٧) سعد الدين الزبير نفس المرجع من من ٨١ .
- (٧٨) انظر الوثيقة رقم (٦٧) دفتر رقم (٢٨) وارد مابين تفرغات شجرة
عيسى من (٤) تفرات رقم (٢٥) .

(٧٩) جبل مرة : يقع وسط دارفور وهو جبل مرتفع حصين طوله من الشمال إلى الجنوب نحو مائة ميل وعرضه من الشرق إلى الغرب ستون ميلاً وارتفاع أعلى قممه لك وخمسة مائة قدم من سطح الأرض المجاورة له ، ونحو ستة آلاف قدم من سطح البحر ، وهو وافر الخصوبة وبه ينابيع كثيرة والكثير من أشجار الفاكهة والحبوب وغيرها من حاصلات المنطقة مما ليس في غيره من أعمال دارفور، ومن أشهر قممه جبل طارا ، الذي كان مركز سلاطين دارفور قبل انتقالهم إلى مدينة الفائر وفيه مدين خالص لسلاطين دارفور وابنائهم وحامع كبير قديم نسبياً .

(٨٠) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٨١ - ٨٢ .

Shukry, M.F. : Op. Cit., P. 281. (٨١)

(٨٢) بكر شبيكة (دكتور) : المرجع السابق ص ٩٠ .

(٨٣) حرطوسون : تاريخ مديرية خط الاسفراء من فصحها إلى غيبها

سنة ١٨٦٦ - ١٨٨٦ م ج ١ ص ٢٢٤ .

(٨٤) أم شنتة : وهي في طريق القوافل الآتية من كردفان ودنقلة وتقع على

مسيرة سكة ايلام من المناسبة العاصر .

(٨٥) انظر الوثيقة رقم (٦٨) دفتر رقم (٢٧) وارد عابدين ظفرافات شفرة

عربي ص ٢٢/٤٤ ، ٢٣/٤٥ ظفراف رقم (٣٠٦) .

(٨٦) عرب حر : يقعون غرب كردفان ومن مراكزهم أبو حراز والنبود

وهي بلادهم يكثر حصر الصلدي وهم يخلون فيه المياه ويبيعونها لقوافل المسافرين

من التجار وغيرهم بين كردفان ودارفور .

(٨٧) انظر الوثيقة رقم (٩٦) دفتر رقم (٢٧) وارد عابدين ظفرافات شفرة

عربي ص ٣٥/٧٠ ، ٣٦/٧١ ظفراف رقم (٤٦٢) وكذلك انظر الوثيقة رقم

(١) دفتر رقم (٢٧) وارد عابدين ظفرافات شفرة عربي ص (٦٧) ظفراف رقم

(٤٢٨) .

(٨٨) انظر الوثيقة رقم (٦٧) .

(٨٩) انظر الوثيقة رقم (٧١) دفتر رقم (٢٨) وارد عابدين ظفرافات شفرة

عربي ص ٤/٧١ ، ٤/٨ ظفراف رقم (٢٢) .

(٩٠) انظر الوثيقة رقم (٧٢) دفتر رقم (٢٨) وارد عابدين ظفرافات شفرة

عربي ص ١١/٢٢ ، ١١/٢١ ظفراف رقم (١٣١) .

(٩١) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٨٦ - ٨٧ .

Shukry, M.F. : Op. Cit., P. 229. (٩٢)

- (٩٣) انظر الوثيقة رقم (٧٣) دفتر رقم (٢٨) وارد عابدين تلغرافات عربي
 من ص ٢/٢ ، ٢/٤ (٢٤) .
 (٩٤) مكي شبكة (دكتور : المرجع السابق ص ٩٠ .
 (٩٥) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٨٧ .
 (٩٦) منوالهي : تقع على مسيرة يومين إلى الجنوب الشرقي من القاهرة
 وهي بعد بلدة كوس في أهميتها التجارية وقد اشتهرت الواقعة التي حدثت بين الزبير
 والسلطان إبراهيم .
 (٩٧) سعد الدين الزبير : نفس المرجع ص ٨٤ — ٨٦ .
 Hill, Richard : Egypt in The Sudan 1820 — 1881 (٩٨)
 P. 187.

- (٩٩) انظر الوثيقة رقم (٧٤) دفتر رقم (٢٨) وارد تلغرافات عابدين سفرة
 عربي من ص ١١/٢٢ ، ١٣/٢٥ (١٢٤) .
 (١٠٠) القاهرة : وهي بلدة متسمة قائمة على طين عظيمين بطولان ٢٣٥٠
 قدما من سطح البحر ويخترقها خور تدعى . أسسها السلطان هيد الرحمن الذي
 تولى حرس دارفور وجعلها عاصمة ملكه بعمارت كرسى السلطنة في دارفور
 لليوم .
 (١٠١) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٨٦ — ٨٧ .
 Gray, Richard : A history of the Sothern Sudan (١٠٢)
 1889 — 1889 P. 122.

- (١٠٣) انظر الوثيقة رقم (٧٥) دفتر رقم (٥) معية سفرة عربي وارد لغات
 من (٢٣) مكتبة رقم (٥) مرور .
 (١٠٤) نعوم شكير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ج (٣)
 من ٨١ .
 (١٠٥) انظر الوثيقة رقم (٧٦) دفتر رقم (٢٨) وارد عابدين تلغرافات سفرة
 عربي من ص ٢٤/٤٨ ، ٢٥/٤٩ (٢٢٢) .
 (١٠٦) انظر الوثيقة رقم (٧٧) دفتر رقم (٢٨) وارد عابدين تلغرافات سفرة
 عربي من ص ٣٩/٧٨ ، ٤٠/٧٩ (٥١٦) .
 Shukry, M.F. : Op. Cit., P. 722. (١٠٧)
 (١٠٨) اليوم : معناها الأميرة وهو لقب من القبط سيدات العائلة الملكية
 بدارفور .

- (١٠٩) نعيم شخير : المرجع السابق ج ٢ من ٨١ .
- (١١٠) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من ص (٩٠/٨٦) .
- (١١١) انظر الوثيقة رقم (٧٨) دفتر رقم (٢٩) وارد عابدين ظفرانات شجرة عري من ص (٣٧/٧٤ ، ٣٨/٧٥) ظفران رقم (٢٥) .
- (١١٢) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من ص ٩٠ .
- (١١٣) انظر الوثيقة رقم (٧٩) دفتر رقم (٢١) صادر عابدين ظفرانات شجرة عري من ص (٨٤/٨٧) ظفران رقم (٦٠٥) وكذلك انظر الوثيقة رقم (٨٠) دفتر رقم (٢٩) وارد عابدين ظفرانات شجرة عري من ص (٨/٩٥ ، ٨/٩٦) ظفران رقم (٦٨٨) وانظر ايضا الوثيقة رقم (٨١) دفتر رقم (٧١) صادر عابدين ظفرانات شجرة عري من ص (٩٦) ظفران رقم (٧٠٦) . وانظر كذلك الوثيقة رقم (٨٢) دفتر رقم (٣١) وارد عابدين ظفرانات شجرة عري من ص (٢٣/٩٦) ظفران رقم (٢٦٧) .
- (١١٤) Shukry, M.F. Op. Cit., p. 238.
- (١١٥) محمد بن عمر التونسي : تشييد الازهر بمسيرة بلاد المغرب والسودان من ٣٩٧ .
- (١١٦) نعيم شخير : المرجع السابق من ص ٨١ - ٨٢ .
- (١١٧) كيكية : تقع بين ككل والفاسر وقد كانت مركز الادارة قبل ككل .
- (١١٨) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من ص ٩٠ - ٩١ .
- (١١٩) انظر الوثيقة رقم (٨٣) دفتر رقم (٢١) صادر عابدين ظفرانات شجرة عري من ص (١٦/٢٢ ، ١٧/٢٣ ، ١٧/٢٤) ظفران رقم (٢٣٨) وكذلك انظر ايضا الوثيقة رقم (٨٤) دفتر رقم (٢٩) وارد ظفرانات عابدين شجرة عري من ص (٢٨/٥٥ ، ٢٨/٥٦ ، ٢٩/٥٧) ظفران رقم (٤١٣) .
- (١٢٠) مكي شيعة (مكتوب) : المرجع السابق من ص ٩٢ .
- (١٢١) ديارنامة : وهي منطقة يسكنها قبائل تامة وهم مجاورون لقبائل القبر من جهة الغرب .
- (١٢٢) المساليت : وهم مجاورون لقبائل القبر من جهة الجنوب .
- (١٢٣) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من ص ٩٠ ، ٩١ .
- (١٢٤) انظر الوثيقة رقم (٨٥) دفتر رقم (٢٨) وارد عابدين ظفرانات شجرة عري من ص (٣٤/٦٨) ظفران رقم (٤٤٩) .
- (١٢٥) انظر الوثيقة رقم (٨٦) محفوظة رقم (٥١) محبة سنه تركي وبيعة رقم (٣٧٧) قصيرات .

(١٢٦) انظر الوثيقة رقم (٨٧) دفتر رقم (٢١) صادر عابدين ظفرامات شقرة
عربى من (٩/١٨) ظفراف رقم (١٤٢) .

(١٢٧) انظر الوثيقة رقم (٨٨) دفتر رقم (٢) أوامر عربية من (٤٤) امر
رقم (٧٥) وكذلك انظر الوثيقة رقم (٨٩) دفتر بدون مودة معية من (٥٠) ظفراف
رقم (١) .

(١٢٨) مكي شبكة (دكتور) : المرجع السابق من من ٩٢ - ٩٣ وكذلك
الوثيقة رقم (٩٠) دفتر رقم (٢٩) وارد عابدين ظفرامات شقرة تركى من من
(١٤/٢٨ ، ١٥/٢٩ ، ١٥/٣٠) ظفراف رقم (٢٣١) وانظر كذلك الوثيقة رقم (٩١)
دفتر رقم (٢٩) وارد عابدين ظفرامات شقرة تركى من (٢٦/٥٢) ظفراف رقم (٤١٠)
وكذلك انظر ايضا الوثيقة رقم (٩٢) دفتر رقم (٢٩) وارد عابدين ظفرامات شقرة
تركى من من (٢٧/٥٣) ظفراف رقم (٤١١) وكذلك انظر ايضا الوثيقة رقم (٩٣)
دفتر رقم (٢٩) وارد عابدين ظفرامات شقرة عربى من من (٢٧/٥٣ ، ٢٧/٥٤ ،
٢٨/٥٥) ظفراف رقم (٤١٢) .

(١٢٩) انظر الوثيقة رقم (٩٤) دفتر رقم (٢٩) وارد عابدين ظفرامات شقرة
عربى من (٣١/٦١) ظفراف رقم (٤١٥) .

(١٣٠) انظر الوثيقة رقم (٩٥) دفتر رقم (٢٩) وارد عابدين ظفرامات شقرة
عربى من (٣٠/٦٢) ظفراف رقم (٤١٦) .

(١٣١) انظر الوثيقة رقم (٩٦) دفتر رقم (٢٩) وارد عابدين ظفرامات شقرة
عربى من من (٣١/٦٢ ، ٣٢/٦٣) ظفراف رقم (٤١٨) .

(١٣٢) انظر الوثيقة رقم (٩٧) دفتر رقم (٢١) صادر عابدين ظفرامات شقرة
تركى من (٤٤/٨٢) ظفراف رقم (٦٢٤) .

(١٣٣) مكي شبكة (دكتور) : المرجع السابق من من ٩٤ - ٩٥ وكذلك
انظر الوثيقة رقم (٩٨) دفتر رقم (٢١) صادر عابدين ظفرامات شقرة تركى من من
(٤٦/٩٢ ، ٤٧/٩٣ ، ٤٧/٩٤ ، ٤٨/٩٥) ظفراف رقم (٦٩١) وكذلك انظر الوثيقة
رقم (٩٩) دفتر رقم (٢٠) وارد عابدين ظفرامات شقرة عربى من من (٩/١٨ ، ١٩/
١٠ ، ١٠/٢٠) ظفراف رقم (٤١٦) .

(١٣٤) مكي شبكة (دكتور) : المرجع السابق من من ٩٥ - ٩٦ .
(١٣٥) محمد أحمد الجبباري : عن شأن آل وثاريخ السودان كما يدويه
أعله من ١١٥ ، محمد الدين الزبير : المرجع السابق من ٢٧ .

(١٣٦) أنظر الوثيقة رقم (١٠٠) دفتر رقم (٢٢) وابتدع عابدين ظفرافات
 عشرة مرسى من (٢٠/٤١) ظفرافات رقم (٢٢٧) .
 (١٣٧) مكي شبيكة (دكتور) : المرجع السابق من ٩٦ - ٩٧ .
 (١٣٨) أنظر الوثيقة رقم (١٠١) دفتر رقم (٢٦) وابتدع عابدين ظفرافات
 عشرة مرسى من (٢٩/٧٢) ظفرافات رقم (٢٩٥) وكذلك الوثيقة رقم (١٠٢) دفتر
 رقم (٢٦) صائر ظفرافات عابدين عشرة مرسى من (٢٢٩) وكذلك أنظر
 أيضا الوثيقة رقم (١٠٣) دفتر رقم (٢٦) صائر عابدين ظفرافات من (بدون)
 ظفرافات رقم (٢٣٠) .

(١٣٩) مكي شبيكة (دكتور) : المرجع السابق من ٩٧ .
 (١٤٠) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من ٩٨ .
 (١٤١) عبد الرحمن زكي : المرجع السابق ج ١ من ٩٤ .
 (١٤٢) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من ٩٨ .
 (١٤٣) Duncan, J.S.R. : The Sudan A Record of a Achievement P. 12.

(١٤٤) قرار صالح قرار : تاريخ السودان الحديث من ٨٢ .



الفصل الرابع

الزبير وجوردون

١٩٣

(م ١٢ - الزبير باشا)

الزبير وجوردون

سافر الزبير الى مصر ليعرض قضيته على الخديو بعد أن ترك ابنه سليمان يدير أماله ومصالحه في السودان ، وفي ١٠ يونيو سنة ١٨٧٥ م الموافق ٦ جمادى الأولى سنة ١٢٩٢ هـ وصل الزبير الى مصر حيث استقبل هناك استقبالا حائلا وكلما أراد العودة الى بلاده استبقى في مصر بأعذار مختلفة حتى سنة ١٨٧٧ م الموافق سنة ١٢٩٤ م (١) وفي هذه السنة كان جوردون قد عاد بعد زيارة قصيرة لانجلترا الى السودان كحاكم عام يتمتع بكافة الامتيازات والسلطات ، وساعده حظه ان الزبير قد أخطأ بزيارته القاهرة (٢) . ومن أجل تقوية وإطلاق يد جوردون فانه تم وضع الزبير في منزل الضيافة ورصدت الحكومة كل حركة من حركاته (٣) حيث رفضت الحكومة المصرية السماح لضيقها المخلص بالعودة الى بلاده التي حقق فيها انتصاراته وفتوحه (٤) .

الدور الذي لعبه الزبير في الحرب الروسية التركية :

(سنة ١٨٧٧ م — سنة ١٢٩٤ هـ) :

اندلعت الحرب بين روسيا والدولة العثمانية في سنة ١٨٧٧ م ، وعين ضمن ضباط الحملة التي عهد اليها الأمير حسن

باشا بأمر قيادتها . وأسند إلى الزبير قيادة وحدة خاصة من الجيش مكونة من أربعة آلاف رجل . وقد لبى الزبير باشا بفرقة بلاه حسنا في هذه الحرب وكان بفرقة دوما في طليعة المهاجمين وكثيرا ما أوقعت الهزيمة في صفوف الجيوش الروسية (٦) .

ولما نشبت معركة مدينة صاري (٧) ظهرت بطولته وقوة شسكيته في القتال وقد كاد الزبير أن يفقد حياته مرتين في ذلك اليوم . وقد انتهت المعركة بانتصار الجيش العثماني . وقد اثنى عليه الأمير حسن باشا وقال له وهو يشد على يده مصاحبا « لم أكن أصدق كل ما كان يقال من شجاعتك ودهائك في القتال في ربوع السودان ، ولكنني بعد أن رأيتك بالأمس وأنت كذا سقط من تحت جواد تستبدل به غيره ثم تمضي متقدما الصفوف . آمنت بأن ما يقال عنك أنها هو في الواقع شيء قليل بالقياس لما أنت عليه » (٨) .

ساعت حالة الزبير الصحية بعد ذلك ووقع غريسة للبرض ورات القيادة اعماه من التقدم فأرسل في حراسسة نصيلة من الأتراك إلى الأستانة حيث أنزلوه في أحد المستشفيات للعلاج ، وبعد أن تماثل للشفاء دمي لمقابلة السلطان عبد الحميد ، وكان قد وصله أخبار حسن بلاتة في معركة صاري نصوخطر ، فرحب به وأنعم عليه برتبة الفريق الرفيعة وبالنيشان العثماني الثالث ثم سألته من أحواله وعما قام به في السودان ، ثم أمر بإورده بلاسهر على راحته مدة إقامته بالأستانة حيث أقام في أحد القصور المطلة على البسفور وبعد تمام شفائه عاد إلى القاهرة ، فعاود الخديو نهنته ثم نزل في قصر الجيزة (٩) .

وقد قيل أن الزبير حاول التسييس ضد مصر والخديو لدى بعض الشخصيات البارزة في القسطنطينية ولكنه لم ينجح وذلك

فى أثناء اقامته فيها (١٠) . وهذا ما لم تثبته المصادر التاريخية .
اذ كيف يصدر كل هذا من رجل استقبلته القاهرة احسن
استقبال ووفرت له اسباب العيش الكريم ، وانعتبت عليه
ومن معه بالترتب والنباشين يضاف الى ذلك انها وثقت به ووكلت
اليه قيادة احدى فرقها المشتركة فى الحملة التى ارسلتها لمساعدة
الدولة العثمانية . كما ان الفقرة التى قضاها الزبير فى القسطنطينية
كان فيها طريق الفراش نتيجة ما اصابه بسبب ما بذله من جهد أثناء
الحرب ، فكيف بعد كل هذا يحاول الدسيسة ضد الخديو ورجاله
لدى القسطنطينية ؟ ثم ما هى الفائدة التى سوف تعود عليه من
جراة ثيابه بهذا العمل ؟ (١١) .

وهكذا يواصل الحائتون على الزبير الوشاية به حتى بعد أن
تم ابعاده عن السودان وتخليه كلياً عن جميع مصالحه واملاكه من
مشارع وتجارة وخلافه . ولكن الزبير بشخصيته وصبره
استطاع ان يرد كيد هؤلاء دون ان يظفروا بأية نتيجة من وراء
وشاياتهم .

ثورة سليمان الزبير ومقتله على يد جيسى :

(سنة ١٨٧٩ م - سنة ١٢٩٦ هـ)

عاد الزبير الى مصر من الاستانة بعد انتهاء مهمته التى كلف
بها ضمن الحملة المصرية فى الحرب الروسية التركية . وكان يعنى
نفسه بالعودة الى بلاده ، ولكنه لم ينجح فى ذلك للمرة الثانية . وفى
سنة ١٨٧٩ م الموافق سنة ١٢٩٦ هـ وافاه خبر مصرع ابنه سليمان
على يد رومولو جيسى بأوامر من جوردون متهما اياه بالتمرد والمصيان
وكان سليمان من احب ابناءه اليه واتربهم الى نفسه وايقن الزبير
انه اصبح الاسير الذى لا يملك أسرته وأنه سيبقى هيس القاهرة
لاجل غير معلوم (١٢) .

وكان سليمان بعد أن غادر أبوه السودان في طريقه إلى مصر ، قد خرج على رأس أربعة آلاف مقاتل متجها إلى شكا ، فأتاهم بها إلى أن حضر جوردون إلى دارفور ، فأرسل إليه أمرا بمقابلته مع جيشه في دارفور ، فصدع سليمان للأمر واجتمع بجوردون في أغسطس سنة ١٨٧٧ م الموافق شعبان سنة ١٢٩٤ هـ ، وقد اتهم السعيد بك حسين (١٣) جوردون بأن سليمان ينوي القيام بالثورة ضد الحكومة انتقاما لأسر الحكومة لأبيه ، وكان جوردون قد عين السعيد بك حسين هذا مديرا على شكا ، بعد ذلك رأى جوردون أن من الأسلم تقريب جيش سليمان فأصدر أوامره بذلك لسليمان ، فصدع لها . وقد زاره جوردون في شهر سبتمبر من نفس العام وطيب خاطره وأنعم عليه بالرتبة الثانية مع لقب بك ، وجعله مديرا على بحر الغزال ، ولكنه لم يلبث أن عزله وجن مكانه أديس أبترا (١٤) الذي وصف سليمان لدى جوردون ، بأنه يعمل على الاستقلال ببحر الغزال ، فأرسل جوردون إبراهيم فوزي باشا (١٥) للتحقيق معه في هذا الأمر ، وأدين أديس أبترا في هذا التحقيق ورج به جوردون في سجن الخرطوم جزاء له على إثارة الفتنة في إقليم بحر الغزال (١٦) .

بدأت ثورة سليمان الزبير تأخذ مسورتها الجديدة ، نتيجة الوشائات والمكائد التي حيكت ضده من جانب كل من السعيد بك حسين وأديس أبترا دون مبرر لذلك وكان ذلك في سنة ١٨٧٨ م الموافق سنة ١٢٩٥ هـ ، فهاجم سليمان على رأس قواته زريبة ديم أديس وقام بقتل جميع أفراد الحامية بها ، واستولى على ما في المخازن الحكومية من مدافع وأسلحة ولخائر ، كما أنه فزع سلاح جميع الأهالي ، ثم أخضع بعد ذلك جميع أقاليم بحر الغزال الواسعة بفقوذه وسيطرته ، وأعلن استقلاله ، فأرسل له جوردون أحد نواده ، وهو رومولو جسي الإيطالي بعد أن عينه مديرا على

بحر الغزال بدلا من سليمان ، على رأس حملة قوامها سبعة آلاف وخمسمائة رجل (١٧) ، وقد استطاعت هذه الحملة أن تشتت شمل قوات سليمان في كل من بحر الغزال ودارفور .

بلغ الزبير نيا مصيان ابنه عن طريق أحد اتباعه في السودان ، نكتب اليه رسالة ينصحه فيها بالرجوع من مصيان الحكومة ، والدخول في طاعتها والامتناع لاوامرها لانه يخشى غلبة فئسها عليه وانه لا قبل له بمحاربتها ، وانه ان يمثل لاوامر جوردون فقد امن على نفسه وقواته (١٨) .

كذلك كتب جسي لسليمان كتابا لنفس الهدف معطيا له الامان على حياته ان هو سلم نفسه ورجاله ، ولكن رابح الزبير لم يثق بكلام جسي وانسحب مع بقية الجند الى جهة الغرب حتى وصلوا الى بحيرة تشاد ، وبالرغم من الوعد الذي اعطاه جسي لسليمان بالحفاظ على حياته هو ورجاله فان جسي لم يف بما وعده (١٩) .

وفي ١٤ يوليو ١٨٧٩ م الموافق ٦ شعبان سنة ١٢٩٧ هـ توجه سليمان ومعه ثمانية من اقاربه لتسليم أنفسهم لجسي ، ولم يلبث ان دعاهم جسي في اليوم التالي لتسليمهم ليشرّبوا معه اقداح القهوة في خيمته ، بعدها كان مصيرهم الاعدام رميا بالرصاص ، وبعد مدة اقبل قناوى بك ابو عمورى وهو صديق قديم للزبير ، فقام بتكفيتهم واوراعهم قبرا صغيرا (٢٠) .

وكتب جسي لجوردون بعد ذلك يقول « لقد اضطررت لقتل سليمان الزبير بعد تسليمه لانه حاول ان يؤلب على رجالى وان يثير الفتنة في صفوف الجيش (٢١) » .

ويقال ان الحكومة المصرية أبرقت لجوردون لى يرسل سليمان الى القاهرة ، ولكن جوردون علق على ذلك بقوله : « سامنح جسي

الف جنيه اذ تَجَّح في القبض على ابن الزبير وآمل ان يشنقه لانه
لو ارسل الى القاهرة لرحبوا به «(٢٢)» .

الاحداث التي اعقبت مقتل سليمان بن الزبير :

تعرض الزبير وهو في مصر لحملة ضارية من
الانقراعات من جانب جوردون واتباعه بعد مصرع ابنه سليمان ،
رغم انه تسلمه لجسسى طبقا لأوامر الحكومة وجوردون ، ونصيحة
والده له . وكان الهدف من هذه الحملة هو الصاق تهمة تحريض
الزبير لابنه على الثورة بحجة احتجازه في القاهرة ، وزعزعة
مكانته لدى الخديو اسماعيل باشا ، ومصادرة أمواله
وممتلكاته في السودان ، وتجريده من كافة الامتيازات التي كان
يتمتع بها هو وحاشيته في مصر ، والقضاء على كل اثر له او
نفوذ في بلاد السودان . ولم يكتفوا بذلك بل انهم عملوا على محو
تاريخ الزبير وأمواله المجيدة في بلاده . قام جوردون بمصادرة
أموال الزبير في السودان محتجا بأنه كتب الى ابنه سليمان من
مصر يحرضه على الثورة . وفي الواقع لا توجد وثيقة تثبت ما
قاله جوردون ، ولكن العكس هو الصحيح وهو وجود ما يثبت
قيام الزبير بتوجيه النصح والارشاد لابنه بالاستسلام
للحكومة وإطاعة أوامرها وذلك في رسالة بعث له بها .
وسوف تثبت الأحداث فيما بعد صدق هذه الحقيقة حينما
تقابل الزبير مع جوردون بالقاهرة ، وطلبه أمام الحاضرين بأن
يظهر لهم الرسالة التي ادعى كتبها ان الزبير ارسلها لابنه سليمان ،
فلم يستطع جوردون الاجابة على سؤال الزبير بل التزم الصمت ،
ويكفي للدلالة على براءة الزبير من هذه التهمة الموجهة له ما
ذكرناه من حقائق مضلها اليها الاتي :

أولاً : كيف يقوم الزبير بتحريض ابنه على الثورة وهو يعلم جيداً النتائج المترتبة على هذا العصيان الذى سوف ينتهى بالقضاء عليه من قبل قوات الحكومة ؟

ثانياً : كيف يقوم الزبير بتحريض ابنه على الثورة وهو يعلم أن معظم أتباعه قد تخلوا عن تأييده بل يزيد على ذلك أنهم أصبحوا أعداء له يهيكون له المكائد والوشايات لدى جوردون وجسى من أمثال الرئيس أبقر والسعيد بك حسين ؟

ثالثاً : هل من مصلحة الزبير وهو فى القاهرة أن يقوم بتحريض ابنه سليمان على الثورة ضد الحكومة ، دون أن يدرك نتائج هذا التحريض وغضب الحكومة عليه وما يترتب على ذلك من انزال أشد العقوبة به وبخويه فى مصر والسودان ، ومصادرة ما بقى له من ممتلكات وأموال ؟

رابعاً : كيف تبادر إلى ذهن جوردون قيام الزبير بهذا العمل بعد أن فتحت له حكومة الخديو صدرها ورحبت به وبأتباعه وعملت على تلبية جميع طلباته وانزلته منزل الراحة ، ووثقت به وولت إليه قيادة إحدى فرقها المشتركة فى الحرب الروسية التركية ، واتعمد السلطان العثماني عليه بالترتب والنياشين لحسن بلائه فى الحرب ، فهل تكون النهاية أن يخون هذا الرجل الحكومة بعد كل ما قدمته له والإجابة المنطقية والحقيقية هى التى ينطق بها التاريخ وتدل عليها الوثائق .

وتتسع دائرة المؤامرة التى حاكها جوردون وأتباعه ضد الزبير وابنه سليمان ، فنراه بعد أن صادر أموال الزبير فى السودان يحثج بأن الزبير قد كتب لابنه سليمان من مصر يحرضه على الثورة لأن الحكومة قد احتجزته فى القاهرة ، وبهذا المعنى أرسل برقية إلى الخديو يخبره فيها بأنه بعد ما تأكد من عصيان ابن

الزبير ومهاجمته لمديرية بحر الغزال وقيامه بالاستيلاء على أسلحة الميرى وقتل الأعداء ، فإنه بناء على هذه الوقائع يطلب صدور الأمر بالقبض على الزبير ووضعها في الحديد ، وحفظ جميع نقوده وأمتعته وهي زيادة عن خمسة آلاف جنيه مع الأذن لجوردون نفسه ببيع جميع أمتعته الموجودة بالسودان وتوريد ثمنها للحكومة ، كذلك القبض على عائلته وأقاربه ووضعهم في السجن (٢٣) .

وقد احتج الزبير على هذا الأمر ، فكان رد الخديو على تغراف جوردون « بالآلا يؤخذ الأب بجناية الابن » (٢٤) .

وقد أخطأ جوردون حين اشتط في العقوبات التي وقها على النساء والأطفال من أهل الزبير دون سبب لذلك . وعلى العموم فقد أتى جوردون بحكم بربري في وقت جاء فيه لينهى الأحكام البربرية وذلك من خلال علاقته بالزبير وابنه سليمان وفي هذه الفترة كانت آرائه عنهم صدى لأقوال الواشين ، ولم يتحقق من صدق ما قيل أو كذبه . ومع أن جوردون نجح في عدم تمكين سليمان من الاتحاد مع هارون كما كان يتوقع فإنه بطريق غير مباشر جمع بين رقبة أعوانهما في القضاء على الحكم القائم في البلاد ، وترك قبائل غرب السودان وأبناء الجلالة الذين نزحوا من النيل بفرض التجارة هناك متفقين على كراهية الحكومة والسعي لاستقاطها متى توافرت لهم الوسائل وتباعدت الأسباب (٢٥) .

رفض الزبير بانسا الاشتراك في حملة سواكن (٢٦) :

انجبت الأنظار إلى الزبير وتردد اسمه بين الحين والحين عقب الثورة التي قام بها محمد أحمد المهدي ، والتي انتهت باستيلائه هو واتباعه على مقاليد الحكم في السودان ومصرع جوردون على يد أنصاره بالخرطوم .

وفي سنة ١٨٨٣ م الموافق سنة ١٣٠١ هـ قررت الحكومة المصرية بعد هزيمة حملة الجنرال هيكس ، إرسال قوات من بلوكات النظام بقيادة سار توريوس باشا الى سواكن ، وقوات من السودانيين بقيادة الزبير ، على ان توضع القوتان تحت قيادة الجنرال بيكر ، ارضاء للحكومة الانجليزية ، وكان هدف الحملة تخليص سواكن من يد عثمان لثقة (٢٧) ، وفتح الطريق ما بين سواكن وبربر ثم ما بين ببربر والخرطوم . وقد فتش الخسديو شخصيا القوات السودانية قبل سفرها ، ولكنها سافرت وحدها دون ان يصحبها الزبير . وكان رجال تلك القوة قد طلبوا بدفع مرتباتهم قبل سفرهم ، فقام الزبير بطلب مبلغ ٦٠٠٠٠ جنيه لصرف مرتبات رجاله ، لانهما وزارة الحربية بعدم اطاعة الاوامر وامرته بالسفر فوراً (٢٨) .

وكان الاتجاه ان يصحب الزبير باشا هذا الالاي وبملا توجه الى السويس للابحار منها فير انه علم قبل قيام الحملة بانه سيكون تحت قيادة بيكر باشا ، غابى هذا واشترط لاشتراكه في الحملة ان يذهب مستقلا في قيادته دون الخضوع لاية اوامر غير التي تصدر له من القاهرة مباشرة ، ولما رفضت الحكومة طلبه هذا تخلف وقفل عائدا الى القاهرة . وان كان كرومر قد اشار الى ان العدول عن ارسال الزبير باشا الى سواكن كان استجابة لضغط الجمعية التي انشئت لمقاومة تجارة الرقيق على الحكومة الانجليزية (٢٩) . وليس لرفض الزبير كما ذكر .

وبناء على طلب الحكومة المصرية قام اللورد كرومر بمخاطبة الحكومة الانجليزية في رسالة بعث بها في ٩ ديسمبر سنة ١٨٨٣ م الموافق ٨ صفر سنة ١٣٠١ هـ اوضح فيها ما ياتي :

اولا : رغبة الحكومة المصرية في ارسال الزبير باشا الى سواكن مع الحملة لملءها بقدرة على قيادة فصائل البدو السودانية

المرسلة الى سواكن ، وقيامه بمقاومة القبائل القاطنة على طريق سواكن بربر وبقية الجهات الأخرى ، وحاجة بيكر باشا الى مثل هذه الخدمة .

ثانياً : نتيجة لتحمل الحكومة المصرية وحدها تبعات تطورات الموقف في السودان ، فليس من الاتصاف ان تفرض الحكومة الانجليزية على طلب الحكومة المصرية بندب الزبير الى هذه المهمة رغم ما يحيط بشخصية الزبير لديها بالكثير من الأخطاء (٣٠) .

وقد تلقى اللورد جرانجيل هذه الرسالة فلم ينجح كل ما جاء فيها من الحجج في اقناعه بالموافقة على اقتراح الحكومة المصرية باشتراك الزبير في الحملة . وقد وصفت ممز سارثوريوس (٣١) نتائج عدم اشتراك الزبير نتيجة عدم موافقة الحكومة الانجليزية بقولها : « وجاء عدم اشتراك الزبير باشا في الحملة ضربة جديدة قاصمة قضت عليها بالفشل مذ اللحظة الأولى ، فقد كان السود من الجدد في حاجة لمن يتولى تياتهم طبقا لطريقتهم الخاصة في الحرب اذ لم يكن لديهم أي فكرة عن التدريب وقواعد التنظيم ، وكان الوقت ضيقا بحيث لا يسمح بإعادة وضمهم في تشكيلات منظمة . ولو وجد الزبير باشا على رأسهم لاستطاع بهم القيام بمجهود رائع ضد السودانيين ولحاربهم بنفس الطريقة التي يتبعونها أما بدونهم فقد بدت هذه القوات السودانية ضالعة مهذبة » (٣٢) .

وكانت التعليمات المعطاة للجنرال بيكر تحرم عليه القيساس بعمليات حربية ، ولكنه خرج من ترفكتات (٣٣) في يوم ٤ فبراير سنة ١٨٨٣ م على رأس جيش قوامه ٣٦٠٠ جندي ومعه ستة مدافع . وكان جنوده غير مدربين ، واستخدم تشكيلات لا تتماشى مع طبيعة الأرض ، وانتهى الأمر بهزيمة نكراء ، فقد لبيت معظم

رجاله واسلحته ، خصوصا أن معظم المصريين قد رضوا اطامة
الأوامر لاطلاق النيران على السودانيين ، بل لقد انضم عدد منهم
الى قوات الثوار في اثناء المعركة نفسها . وعاد بيكر الى سواكن
ليجدها بحالة من الثورة العارمة ، وكان ذلك بسبب وجود القوات
السودانية ولذلك فان الاميرالية امرت بانزال فرق من مشاة
الاسطول في سواكن ، وعملت على ارسال بعض الوحدات المصرية
الى السويس ، والوحدات السودانية الى مصوع . ثم اجتمع مجلس
الوزراء البريطاني وقرر ارسال قوات بريطانية الى البحر الاحمر
وذلك لانقاذ طوكر . وصدرت الأوامر برقيا الى القائد العام لقوات
الاحتلال البريطانية في مصر بارسال قوات للدفاع عن سواكن ،
تحت قيادة الجنرال جراهام . وقد وصلت الى سواكن ما بين
١٩ و ٢٠ فبراير في نفس الوقت اذى وحلل فيه جوردون الى
الخرطوم (٣٤) .

فشلت اذن حملة سواكن بدون اشتراك الزبير فيها وموافقة
شروطه كما كان متوقعا .

الزبير وجوردون وحوادث الاخلاء :

عينت الحكومة الخديوية الكولونيل جوردون في منصب الحاكم
العام للقاليم السودانية في ١٧ فبراير سنة ١٨٧٧ م ، ومنحته
لقب باشا بعد ان اوصى بذلك فيفان القنصل العام البريطاني في
القاهرة . وكانت هذه هي اول مرة يشغل فيها أحد الأوربيين هذا
المنصب العام ، فكان عليه أن يشرف من الخرطوم على اراض
تمتد شمالا لمسافة ألف ميل ، وجنوبا لمسافة ١٥٠٠ ميل ، وشرقا
لمسافة ٤٠٠ ميل حتى سواحل البحر الاحمر ، وغربا لمسافة
٧٥٠ ميلا الى آخر حدود دارفور . واطهر جوردون انه يخدم
المصالح البريطانية أكثر من خدمة مصالح مصر (٢٥) .

وقد بدأ جوردون في تنفيذ الكثير من المهام التي كلفه بها الخديو منذ يوم وصوله الى الخرطوم في ٤ مايو سنة ١٨٧٧ م الموافق ١٩ ربيع الثاني سنة ١٢٩٤ هـ . وكان ضمن المهام التي كلف بها العمل على القضاء على تجارة الرقيق ، وقد نجح في ذلك الى حد ما في يوليو سنة ١٨٧٩ م الموافق ٩ رجب سنة ١٢٩٢ هـ ثم اعتقب ذلك قيام ثورات منها ثورة سليمان الزبير (٣٦) التي نجح جوردون في القضاء عليها بواسطة مدبقة رومولو جسي وكان جوردون قد عاد في اثناء هذه الفترة الى القاهرة سنة ١٨٧٨ م لانتهاء بعض الأمور الخاصة به (٣٧) .

وأخيرا استقدم جوردون من السودان في يونيو سنة ١٨٧٩ م . ولكن بعد أن تخرجت الأمور في السودان . وقد اثبتت الحوادث صدق حكم شابييه لونغ الأمريكى بقوله « لقد وجد جوردون السودان في سلام ورفاهية وتركه في سنة ١٨٧٩ م وهو ينوء بالثورة » (٣٨) .

يضاف لأسباب استدعاء جوردون من السودان عزل الخديو اسماعيل مدبقة الحميم وتولى ابنه تومبى الحكم ، علاوة على أن الحكومة الجديدة اتهمت جوردون بالتهاون في جمع الضرائب ، وأمام هذا لم يسهه الا أن يقدم استقالته فقبلت منه وعاد بعدها الى إنجلترا ، ولم تلبث الحكومة المصرية أن عيقت من بعده رؤوف باشا (٣٩) حكاما للسودان ، الذي قدر له أن يكون آخر الحكمداريين في العهد المصرى قبل شوبوب الثورة المهدية (٤٠) .

وكان الزبير حتى شوبوب هذه الثورة مازال محبوبا في القاهرة وكان آخر ما اتصل به هو رفضه الاشتراك في حملة سواكن ، ثم خلافاته ومنازعاته مع جوردون عقب مقتل ابنه سليمان ، وكانت

الثورة المهدية في تلك الأثناء تنمو شيئاً فشيئاً وتنتشر في سرعة حتى عمت جميع أرجاء السودان المصري ، ولم تفلح الجهود التي بذلت في سبيل القضاء على بذور هذه الثورة أو الحد من انتشارها ، في تلك الآونة بدأ تفكير الحكومة الانجليزية في الضغط على الحكومة المصرية من أجل إخلاء السودان ولكن الحكومة المصرية لم تكن تحبذ هذا الرأي ، بل كانت تريد إعادة محاولة إخضاع السودان ، ولكنها في نفس الوقت لم تكن تملك الاداة التي تمكنها من تنفيذ افراضها ، فجيئها الحديث لم يكن الا اداة بوليسية تحت قيادة بريطانية لحفظ الأمن داخل البلاد ولم تياس الحكومة المصرية في ايجاد حلول اخرى للمشكلة غير الاخلاء ، الا أنها جميعاً قوبلت بالرفض التام واقامة المراقيل أمامها من جانب الحكومة البريطانية (١) .

وكانت سياسة الحكومة البريطانية حتى هذا الوقت هي عدم التدخل في الشؤون المصرية ، والدليل على ذلك أن اللورد نورين اقترح منذ شهر نوفمبر سنة ١٨٨٢ م ارسال جوردون لاعادة الأمن والنظام الى السودان ، ولكن لم يؤخذ بهذا الاقتراح ، لأن الحكومة المصرية عارضت في استخدام جوردون للمرة الثانية ، ولكن الموقف لم يلبث أن تغير بعد هزيمة حملة هيكس في موقعة شيكان ، وأنبأ الهزائم التي وصلت القاهرة والتي حدثت في السودان الشرقي . فكان من اثر هذه الأخبار أن جعلت السير ايفلين ياريج يتحول في الفترة ما بين ٩ و ١٠ ديسمبر سنة ١٨٨٢ م من سياسة عدم التدخل التي ظل حتى هذا الوقت يشير بها على حكومته ويبدل قصارى جهده في تأييدها ، الى سياسة التدخل . سمعت برقية الى حكومته يوم ١٠ ديسمبر سنة ١٨٨٢ م لطلب تعليمات أكثر تعديداً لقوله أن يفرض على الوزراء المصريين اتباع سياسة معينة بشأن السودان ، وهي سياسة التخلي عن

كل الاراضي الواقعة الى الجنوب من وأدى حطما والتي ثرئب عليها في النهاية اراء هذا الضغط الصريح من انجلترا . ان قدم شريفه باشا استقالة وزارته في ٧ يناير سنة ١٨٨٢ م . وتالفت وزارة نوبار باشا في العاشر من يناير سنة ١٨٨٢ م . وعلى ذلك ابرق جرانفيل مرة أخرى الى بارنج في نفس التاريخ يسأله اذا كان استخدام جوردون في السودان ممكنا . وللمرة الثانية اجاب بارنج انه بعد التشاور مع نوبار لا يعتقد ان من الممكن استخدام جوردون او السير تشارلس ولون في الوقت الحاضر . ولكن بارنج الذي استعان بقليل من الضغط على المسئولين في القاهرة استطاع ان يبرق الى جرانفيل في ١٦ يناير سنة ١٨٨٤ م ان جوردون خير من يمكن استخدامه في السودان . وجاء هذا الضغط الذي استعان به بارنج نتيجة لموافقة المستر جلادستون نفسه مقذ ١٤ يناير سنة ١٨٨٤ م على اقتراح وزير خارجيته جرانفيل ، باستخدام شيء من الضغط على بارنج حتى يقبل هذا ذهاب جوردون الى السودان اذ ابدى ان في وسعه بفضل نفوذه الشخصي مع القبائل ان يجعل هؤلاء يحرسون حامية وسكان الخرطوم في طريق انسحابهم منها الى سواكن (٤٢) .

وكان اول امر لوزارة نوبار باشا هو اخلاء السودان وهو يحمل تاريخ تأليفها ، وصدر مرسوم في الخامس عشر من نفس الشهر بان يتبع السودان وزارة الحربية بعد ان كان يتبع رئاسة مجلس الوزراء . وفي ٢٤ يناير من نفس الشهر قرر مجلس الوزراء البريطاني ان يمهّد الى الجنرال جوردون بمهمة اخلاء السودان ، وصدرت الاوامر لجوردون بالتوجه الى القاهرة لتسلم الاوامر الخاصة بمهمة من الخديو شخصيا ، فوصل الى القاهرة في السادس والعشرين من يناير من نفس السنة ، وقبل جوردون الحاكم السابق القيام بهذه المهمة برغم معارضة السير

أيتيلين بارنج القنصل البريطاني في مصر . أذ كان يراه رجلاً
مترددا ضيق الأمل ، وقصير النظر ، وكان من الغريب أن يعهد
إلى رجل مسيحي متعصب ليتولى اتخاذ جيش بمسلم من داعية
مسلم يتبعه أنصار مسلمون ، ومن هنا بدت مسؤولية الحكومة
البريطانية في النتيجة التي انتهت إليها مصير هذا الرجل وقد موثق
جوردون في هذا الأمر فقبل دون تردد كي يكون هذا الأمر شاملاً
له لتحسين معاشه وكان قبول جوردون على أساس أن يذهب
إلى السودان ليختبر الحالة ويكتب تقريراً عما يراه (٤٣) .

لما الحكومة الانجليزية فقد سلمت إليه خطاباً بالتعليمات
اللازمة وملخص ما جاء فيها :

أولاً : تقديم تقرير عن الحالة العسكرية في السودان
والوسائل التي يجب اتخاذها لضمان حياة الجالية المصرية
والأوربية .

ثانياً : ضمان أمن وإدارة موانئ البحر الأحمر التي هي
تحت سيادة الحكومة المصرية .

ثالثاً : توضيح الوسائل الفعالة التي يجب اتخاذها لردع
الحركة الثورية وجلاء القوات المصرية بحيث لا ينجم عن ذلك ما
يعزل تجارة الرقيق .

رابعاً : أن يأخذ تعليماته من السير ايفلين بارنج ويعتبر نفسه
كوكيل ومفوض لاتمام أية مأمورية تكلفه بها الحكومة المصرية ،
وأن يصحب معه الكولونيل ستيورات لمساعدته في هذه المأمورية .

خامساً : أن يتصل فور وصوله لمصر بالسير ايفلين بارنج
الذي سوف يقرر ذهابه إلى سواكن أو إرسال الكولونيل ستيورات
إلى الخرطوم أو التوجه بنفسه (٤٤) .

ولم ي ٢٤ يناير سنة ١٨٨٤ م بينما جوردون في طريقه الى مصر تلقى اللورد كرومر (بارنج) بوقية من اللورد جرانفيل وزير الخارجية البريطانية يخبره فيها بأن يتخذ الحيلة لمراقبة الزبير لمنع اتصاله سرا بالسودان . ولم تكف العيون عن مراقبة الزبير بعد ذلك فعلا (٤٥) .

وقد كان جوردون ما يزال عند رايه في أن الزبير هو العنصر الخطر على الثورة في السودان ، وقد يزيد من انكاثها ، وقد يهب ليتعاون مع المهدي . وعندما وصلت السفينة المقلية لجوردون الى بورسعيد جاءه رسول يحمل له خطابا يطلب منه الحضور تمورا الى القاهرة . ولما كانت هذه أوامر بارنج فلم يكن جوردون ليستطيع الرفض ، فاستقل قطارا خاصا بمفرده ، وبعد عدة ساعات كان جوردون مع القنصل العام ، ولم يكن الرجلان قد تقابلا منذ سبع سنوات ، وكانت الأحداث التي تلت ذلك قريبة جدا فكان على الرجلين أولا مقابلة الخديو تونيق ، وتمت المقابلة وأمتذر جوردون عما بدر منه من انتقاد للخديو وبالتالي تم تشييته في وظيفته كحاكم عام . ثم بعد ذلك كان عليهما تحديد مهام وظيفته ، وكان هذا هو الوقت المناسب لاخلاء الحاميات من السودان والا تعثر اخراجها بعد ذلك . وقد كان لابد من ايجاد نوع من الحكم هناك . ولم يكن احياء الشياخات القديمة ونظام زعماء القبائل كائيا وكان لابد من ايجاد شخص يملك من السلطة ما يمكنها توحيد هذه الشياخات والقضاء في وحدة فيدرالية . وتقدم جوردون باقتراح اذهل الجميع لماذا لا يكون الزبير هو ذلك الرجل ؟ . وكتب جوردون الى السير ايفيلين بارنج يبلغه فيه بشموره بأن تعاون الزبير معه سوف يحسم موضوع السودان لصالح جلالة الملكة والحكومة المصرية واقترح تنظيم لقاء بين السر ايفيلين بارنج ونوبار باشا رئيس الوزراء ويكون هو معهم والزبير ، وليسكن بارنج قال

أنه لا يثق في تلك الأدلة القائمة على الشعور الدينى ومع ذلك فلم يعارض بارنج اختصار الزبير فقد كان الرجل أقدر من يستطيع إدارة شئون السودان (٤٦) .

وحين وصل جوردون إلى القاهرة في سنة ١٨٨٤ م كان الزبير يعيش في رغد كفه له مرتبة الكبير ، ورغم أنه كان محتجزا في القاهرة ، فإنه لم تفرض عليه أية قيود في حياته تمس حريته رغم سطوته ، وكان يكره جوردون من كل قلبه ويحمله مسئولية مقتل ابنه . وقد تصرف جوردون كأنه لا يرغب في شيء سوى رغبته في ضم الزبير تحت لوائه ، لا لمسيب إلا لأن هذا الباشا الأسود كان أكبر تاجر عربه الشاريخ واعتبر الورد جرانفيل والسيسي ايتيلين بارنج تأييد جوردون للزبير دليلا على عدم توازن شخصية جوردون . وكتب وزير الخارجية للقنصل العام يقول له : « إن خطابات جوردون تظهر قلقى ، متغيره نحو الزبير لا يستطيع أن أقنع كفه » ولكن جوردون كان يعرف ما يريد ، فقدم إلى بارنج في صباح ٢٦ يناير سنة ١٨٨٤م انذارا مكتوبا عرض فيه للحوادث اتلى ادت إلى طرد الزبير من السودان ويؤيد ثقته في قدرته على إدارة حكومة السودان ، والقضاء على ثورة المهدي باجتذاب أتباعه لأنهم كانوا أصلا قادة لدى الزبير ، وكذلك عظمتته وبطولته في القتال ، وأنه أى جوردون مستعد لتحمل مسئولية الاعتماد على الزبير لأنه مقتنع بذلك . هذا الانذار لا يخلو من الحكمة والعقل ، وهو يوضح أن جوردون كان انسانا واقعا يبحث عن النتائج ، فهو يعلم عيوب الزبير ، ويدرك العداء الشخصى الذى يكنه له هذا الزعيم العجوز ، ومع ذلك حاول اكتساب تأييد الزبير ، ذلك أن تهمرة وشجاعة الباشا الحزين لمقتل ابنه هو ما يحتاج اليه لضمان الجلاء من السودان والسيطرة على تجارة الرقيق « الامانة في

أحسن سسياسة « وقد قرر جوردون أن الزبير سيبقى هذا
المبدأ (٤٧) .

لقد بقيت مسألة أخرى تحتاج إلى تفكير ، إذ أنه لم يكن هناك
أسر قوية يستطيع إعادها أن يقطعوا السلطة اللازمة في دنقة
أو كسلا أو الخرطوم ، أي المناطق التي تكون قلب السودان بعد
سحب القوات المصرية منها . وكان حكم الثوار واسع القدم في
دارفور ، ولم يكن من المستطاع تطبيق سياسة إعادة الأسر القديبة
إلى مناطق السودان إلا في دارفور . أما في الخرطوم وهي مفتاح
السودان فكان جوردون شديد الرغبة في عدم أرجاء إعادتها إلى
إدارة الباشاوات المصريين ، وكان يتردد بين التنازل عنها ، أو
بمعنى أصح إعادتها إلى تركيا ، وإقامة نظام حماية بريطانية
شديد المرونة عليها . ولم يكن في استطاعته أن يحسم هذه
الأمكار إلا بعد وصوله للخرطوم ، ولكنها كانت تشغله بدون شك
وهو لا يزال في القاهرة . وعلى أي حال فقد فكر منذ وجوده في
القاهرة في أنه يحتاج إلى رجل يحل محله بعد اتهام الإخلاء ،
وذلك لكي يتولى السلطة بأي شكل ، فكان من الضروري أن يجد
رجلا « له اسم و نفوذ يفرضه على الأهالي » وكان من نتيجة
ذلك أن طالب جوردون بثعيين الزبير باشا لكي يعاونه في مهمته .

هذا على الرغم من أن الزبير لا ينسى لجوردون قتله لابنه حينما
كان حاكما عاما في الخرطوم . وكان الزبير رحمة من أمسل
شريف ويتنسب إلى العباسيين وقد تمكن بشجاعة ومقدرته
وكرمه وثروته من أن يصبح من رجال السودان المعدودين . وأراد
جوردون أن يستفيد من وجود الزبير معه لا لعملية سحب القوات
المصرية من السودان بلذات ، ولكن لإقامة نوع من الحكومة
المحلية في الخرطوم تحت رئاسته ، وتخضع لسيطرة البريطانيين ،

فأعلن ان السودان محتاج الى هذا الزعيم السوداني قبل احتياجه اليه هو الجندي الانجليزى ، وذكر أن الزبير هو الرجل الوحيد الذى يستطيع نفوذه أن يعادل نفوذالمهدى ، ويجعل الزعماء السودانيين المتدين اليه يهجروه ، وهو الرجل البعيد الذى تستطيع انجلترا أن تحاول استغلال تدخله للوصول الى تسوية لشئون السودان(١٨) .

اجتماع الزبير وجوردون فى القاهرة :

فى ٢٥ يناير سنة ١٨٨٤ م تم اللقاء بين الزبير وجوردون فى منزل السير ايفلين بارنج وكان يشغل منصب المبعوث البريطانى فى مصر(١٩) . وبحضور كل من السير ايفلين وود وجيرالد بورثال والمajor الاوتورايل منتيج ستيورات ورتلى والكولونيل والطبوس وجيجلر باشا(٥٠) ، وقد كان الموقف عصيبا بالنسبة لهم جميعا ، لقد كان جوردون هو المسئول عن اعدام سليمان الزبير لذلك رفض الزبير مصانحته . وكتب بارنج يصف الموقف بأنه كان مثيرا للغاية ، وكان الزبير باشا وجوردون مذمولين الى درجة كبيرة ويتحدثان بعصبية واضحة ، وأكرر الزبير انه هو الذى حرص سليمان على الثورة ولكن جوردون أعلن أن لديه الدليل على ذلك وهو الخطاب الذى أخذه من جسى بعد قتله(٥١) .

ولى هذه الاثناء طلب الزبير من جوردون بأن يقدم هذه الوثيقة ، فأرسل الى وزارة الحربية المصرية لطلب احضار اجراءات المحكمة العسكرية وعند عرضها وجدت باختتامها منذ سنة ١٨٧٩ م أى أنها لم تنفض اختتامها لخمس سنوات وبالمبحث لم يعثر على الوثيقة التى اشار اليها جوردون حيثئذ قال جوردون ان الأمر كان مأساة وأن العدل انصرف عن محراء وأنى سوف أعمل ما يمكن لتوضيحه الزبير(٥٢)

ولم ينس الزبير طلب جوردون الملح بسجنه هو ومصادرة
املاكه وسجن اقراره ، واخيرا المطالبة بمحاكمته على أنه قد أوعز
لأبنته بالثورة ولولا معارضة الخديو آنذاك لاعدم جوردون الزبير .
ولقد فعل جوردون ذلك وهو يعتقد ان ابن الزبير فتي طائش
انساق الى الثورة بتحريض من والده وكلاهما خرج على الحكومة
فكلاهما يستحق الاعدام . وجرت معاتبات بين الاثنين اصر فيها
جوردون على موقفه وما اقتنع الزبير فيها بحجة ، وبالرغم من ذلك
يصر جوردون في مرافقة الزبير له ، وبالرغم من أخطائه وعدم
خضوعه بتوسيم فيه السوداني الوحيد الذي يساعد في حل المواقف
في السودان . لاحظ الحاضرون لبارنج ونوبار الهوة السحيقة
بين الرجلين وانهما أن سمحا للزبير بمرافقة جوردون فربما يحدث
منه ما يمرق خطط جوردون بدلا من معونته واحتياطيا لهذا الاحتمال
رفض بارنج ما طلبه جوردون (٥٣) .

وعقب هذه المقابلة التي تمت بين جوردون والزبير كتب
جوردون مذكرة الى بارنج يلح فيها على اصطحاب الزبير يائسا معه
للسودان ويقول : « اذا كانت المهمة المطلوبة هي إخلاء السودان
باسرع وقت مع المحافظة على سلامة المواطنين المصريين فلأداء
هذه المهمة وحدها لا أراى في حاجة الى الزبير ، اما اذا كان على
بالاضافة الى ما تقدم أن أترك ورائى في السودان تسوية مرضية
للغورمان وجود الزبير معى يصعب عندئذ بلدا مهما لا فناء
عنه » (٥٤) . وهكذا رأى نفسه يتلقى الرفض في أول مطالبه ،
وقد قيل له أنه سيلقى التعسف والامانة الكاميين من بارنج
والحكومة المصرية (٥٥) .

والحق ان هذا الاقتراح وهو الاستعانة بالزبير كان الوحيد
الذى كان يمكن أن يحطم الثورة ، فالزبير سودانى كالمهدى ، وليس
غريبا وله العقلية التى تستطيع أن تؤثر في السودانيين أكثر من

عقوبة المصريين والبريطانيين كما ان شخصيته لها ماضى فى السودان ، وله انصار من بين تجار الرقيق الذين كانوا يكونون نواة انصار المهدي ، فكان هو الشخص الذى سقط طبع ان يجتذب السودانين اليه ، فيشطر انصار المهدي ، ولكن يبدو ان الحكومة البريطانية لم يكن يعنىها شئ كثير او قليل تحطيم الثورة ، فاعزت الى كل من الجرائد وجمعيات مقاومة تجار الرقيق بهاجمة الفكرة . وقد فتحت الحكومة له اعتمادا ضخما وزودته بمسؤولين احدهما بتنصيبه حاكما عاما مفوضا على السودان ، والامر الآخر يتضمن الغرض الذى نذب له (٥٦) وتركت له حرية التصرف وهذه هى هفوة اخرى نسجلها على الحكومة المصرية ، فما كان لها ان تشغل معه ذلك وهو الرجل العسكرى الذى لا يعرف الا الطاعة الممية لمروسيه ولم يكن صاحب رأى خاص ولا صاحب تصورات شخصية . وقرى دليل ذلك فيما كتبه ستيفوارت (٥٧) الى بارنج فيقول : ان جوردون فى حالة عصبية شديدة يبدو عليه عدم الاستقرار وذلك من خلال البرقيات والخطابات التى يكتبها الى بارنج وغيره اينما ذهب ودون ان يتدبر ما فعله . ما برح جوردون القاهرة ليقوم بعملية الاخلاء دون ان تكون معه قوة تمكنه من حماية الانسحاب مع ان من المعروف ان الانسحاب دائما اصعب من الهجوم (٥٨) .

استطاع جوردون معه عند سفره الى الخرطوم الكولونيل ستيفورات الذى سبق ان زار السودان مستظلما ، وابراهيم فوزى ياوره الخاص ، والامير عبد الشكور ، احد اقرباء سلطان دارفور السابق الذى اراد جوردون ان يمنحه حكم هذه المقبرة لى يعمل على تخليصها من ايدي الثوار واخيرا نان الجنرال السير جيرالد جراهام احد اصديقه المخلصين قد سافر معه حتى كرسكو ، واعطى لنا صورة رؤية عن جوردون الذى كان شديد الاعتدال

بنفسه واثقا من أنه سيرتب كل الأمور في مدى ستة أشهر .
وكان الأمير عبد الشكور يعيش في القاهرة ، فاستدعته الحكومة
الخديوية وأعطته كسوة مزرکشة وطلبت منه مصاحبة جوردون
الى السودان لاحتلال دارفور ، ودفعت له ٢٠٠٠ ز٠ جنية . وكانت
رحلته جزءا من سياسة إعادة الأمر الحاكمة القديمة الى السودان
والإسـر الى تستطيع أن تحتفظ بنوع من الولاء للخديو ولحماته
الجدد البريطانيين . ولكن جوردون كان يحتقر عبد الشكور فكان
غير مهذب معه على ظهر البـاخرة . . مما اضطره الى النزول في
أسوان وإعلان عزمه على عدم متابعة السفر ، ولكنه سافر حتى
بنقطة حيث انتظر بضعة أشهر ثم عاد مع أسرته الى القاهرة (٥٩) .

وعندما كانوا يودعونهم في محطة القاهرة حاول بارنج تخفيف
ما لقيه جوردون من صدمة بخصوص رفض إرسال الزبير معه
ووعده بالنظر في ذلك مرة أخرى فيما لو أصر على الزبير حين
وصوله الخرطوم ورأى لزوم إرساله وعلى هذه الحالة النفسية
قام القطار به في رحلته النهائية يوم ٢٦ يناير ١٨٨٤ م التي ما
عاد بعدها بل كانت آخر سفرياته . ومن غرائب المصادفات أنه
لقى حتفه في يوم ٢٦ يناير من السنة التالية وهي سنة
١٨٨٥ م (٦٠) .

اقتراح جوردون بإعادة استخدام الزبير في السودان :

بعد أسابيع قليلة من وصول جوردون للخرطوم وقعت
حوادث سياسية مهمة تتمثل بممته في السودان ومن ثم نقد أفعال
جوردون اقتراحه بتعيين الزبير باشا حاكما للسودان بوصفه نائبا
عن الحكومة المصرية (٦١) .

وقد كان جوردون يهتف من وراء اقتراحه هذا ، تعويض الزبير باشا بما فقد من ملك في دارفور وبحر الغزال ومن ابنه سليمان ، ومن ناحية أخرى كان يعتقد أن الزبير باشا هو السوداني الوحيد الذي يستطيع أن يحكم البلاد ويقاوم المهدي ، ثم أنه كان يرى أن الزبير مؤمن بالوحدة بين السودان ومصر وأنه سيظل أميناً لهذه العقيدة ، وكان جوردون يرى كذلك أن الزبير رجل كء عسكري وإداري وأنه سسوف ينفذ القرار الخاص بفتح تجارة الرقيق (٦٢) .

في هذا الوقت كانت حاجة الحكومة المصرية المصرية قد أشدت إلى إيجاد حل مناسب لاختلاف الفرق المصرية في السودان . لذلك فقد رأى مستشار الخديو ، ورات السلطات البريطانية في القاهرة أن العلاج الحاسم في الرجل الذي سلبوه حريته وصافروا ممتلكاته وقتلوا ولده ، وكان هذا الرجل بالنسبة للحكومة المصرية ذا أهمية بالغة ، وكانت هذه الفكرة معضدة من جانب كل من كان على علم ودراية ومعرفة بالأحوال الداخلية ، فبعد أسبوع واحد رفض السير أيفيلدن بارنج الاقتراحات التي عرضها جوردون مكتوبة من جانبه شخصياً (٦٣) وتردده هو وستيورات في أول الأمر بخصوص مسألة استصواب إرسال الزبير . وجدنا أن الاثنين سرعان ما انحازا لرأي جوردون ووقف الاثنان معا بطلين بالحاح بل من اقتناع بأن الاختلاء لا يتم دون إقامة حكومة قوية وأن الرجل الوحيد الذي يستطيع تسيير الدفة هو الزبير والزبير وحده (٦٤) .

وقد أجاب بارنج بأن الزبير رجل ذو نشاط عظيم وعزم وتصميم . وقد أخذت الحكومة في الاعتبار أن خدمات الزبير ربما تكون ذات نفع ، ومن المؤكد أن الحكومة المصرية كان لديها الحرية

فى أن يكون الزبير وكيلها وأن يرسل مستقبلا الى السودان
كسلطان عليها يساعده فى ذلك جيوشه وأمواله لكى يكون رأسا
مناهضا ضد المهدي . وكان من المحتمل فى هذه الفترة بالذات أن
يسكت المهدي قبل أن يناهضه رجل كان له من الشهرة ما يعادل
شهرة المهدي نفسه ، وكان لديه من الإمدادات ما تجعله أكثر
عظمة وقوة من التى يمتلكها المهدي . وقد كان طبيعيا ألا تستصوب
الوزارة البريطانية التناوض أو التدخل من جانب هذا الرجل وهو
الزبير (٦٥) .

كانت الحكومة الانجليزية التى كانت تحت رحمة الراى العام
العسام لا تستطيع أن توافق على راى كهذا فهم أن وأمنت
أصبحت ملزمة بالاشراف على النظام الجديد وهذا معناه تحمل
مسئولية الحكم فى السودان . وعموق هذا ربما اتهمها الراى العام
بالتشريط فى التقاليد الانجليزية ، وتقاليد الحرية والتضامن على
الرق ، وما عرف الراى العام البريطانى عن الزبير سوى أنه أكبر
نحاس أنجبته افريقيا ، وأخيرا خضعت الوزارة البريطانية لراى
عام نشرته الجرائد ضد الزبير . بل أن أحد النواب فى المعارضة
ووزيرا سابقا التقى فى مجلس العموم خطبة فياضة تحدث فيها
بالسباب عن السمعة التى تصيب بريطانيا فى السجين فيها لو أقدمت
على إرسال الزبير وتمضيده (٦٦) .

أما بالنسبة لجوردون فإنه عقب رحيله من القاهرة الى
الخرطوم لم يهل نفسه وقتا لدراسة الموقف على الطبيعة ، بل
بدأ فى إرسال سبيل من البرقيات المتضمنة اقتراحاته وآرائه
المختلفة حول المسألة الخاصة باتهام اخلاء السودان ، وانتداب
الزبير لهذه المهمة وموضوعات كثيرة مختلفة كانت تتراءى له من
حين لآخر فيضمنها برقية ويبحث بها الى القاهرة . وفى أول

فبراير سنة ١٨٨٤ م أرسل برقية الى القاهرة تتضمن ما يأتى :
« أن مشكلة المشاكل هي معرفة كيف ولمن تترك ترسانات الخرطوم
ونقطة وكسلا ، ومعلوم انه لا توجد أسر عريقة في هذه المدن
وأن الخرطوم وكسلا مدينتان حديثتان لأن بداية انشائها ترجع
الى أيام الفتح في عهد محمد على (٦٧) .

وفي الثامن من نفس الشهر سنة ١٨٨٤ م كتب جوردون
الى السير ايفلين بارنج من بلدة أبى حمد برقية تتضمن ابلاغه
بثبات مركز حكومة القاهرة في السودان ، وجزع السكان من
مسألة انفصالهم عن مصر انفصالا كلياً واقتراحه بأن يكون
الاتسحاب جزئياً وليس الهجرة من السودان كله ، وتغيير نمران
تعيينه بالنص على الرقابة الادبية والسيادة الاسمية لمصر على
السودان (٦٨) .

وفي اول فبراير سنة ١٨٨٤ م وصل خطاب الى السير
ايفلين بارنج من ستيفورات وهو في كرسكو جاء فيه : « لا يزال
جوردون متشبها بالزبير ، ويقول انه يشعر بعطف عليه حتى انه
قد يطالب فجأة بارساله الى السودان لما حدث هذا اعتقد انك
لن تسح للزبير بمغادرة القاهرة الا لأسباب قوية جدا ، انى متشع
بأن مجيئه تجربة خطيرة ، ويحتل الا يظهر بالقلود المنسوبة
اليه وخصوصا أن جنوده المعرونيين بالباذنقر لم يعد لهم وجود » .
وفي ٨ فبراير سنة ١٨٨٤ م أبرق جوردون للمرة الثانية وهو في
بلدة أبى حمد الى اللورد كرومر مشرح له انه أن الزبير وحده هو
الذى يصلح لأن يكون حاكماً عاماً على السودان ولا امراض له
على وجودنا معه ، كما رجاه أن تراه زوجته اللادى بارنج . وهكذا
لا يبقى شك في أن جوردون بعد اقترابه من الخرطوم ووقوفه
على حقيقة احوال السودان لم يفقد كثيراً من تفاؤله السابق فخط ،

فل أن عطفه على اهالى البلاد جعله ينسى الغرض الرئيسى من المهمة التى تدب خصيصا لانجازها ، وبعد شهور قليلة نرى نفس الرجل الذى بصر على النص فى التعليمات المسلمة له على عدم تغيير سياسة الجلاء عن السودان باى حال من الاحوال يكتب فى أوراقه قائلا : « انى امتنت حكومة جلالة الملكة من جراء فكرة الجلاء عن السودان بعد أن كانت السبب فى جميع مناعب هذه البلاد » (٦٩) .

ولعل أول تنبيه ليبارنج على مدى تبدل وتغير آراء جوردون هو خطاب ستيورات الذى أرسله الى السير ايفيلين بارنج بالقاهرة من بربر فى ١٣ فبراير سنة ١٨٨٤ م وقد أوضح به مدى تخبط جوردون وخطئه بين عطفه المتعلق على السكان من جراء عملية الجلاء وقيامه بتنفيذ خطة الجلاء نفسها وهى فى نظر ستيورات افضل الحلول لجميع الاطراف وكان جوردون قد وصل الى بربر فى الحادى عشر من فبراير (٧٠) .

ومقب وصوله الخرطوم مباشرة أبرق مرة أخرى الى القاهرة فى ١٨ فبراير سنة ١٨٨٤ م يتحدث عن النوضى التى تستعم البلاد بعد اتمام عملية الجلاء لجميع المصريين عنها ، ومسئولية الحكومة فى ادارة البلاد بعد اتمام عملية الجلاء وهو يقترح تجنباً لهذه النوضى أن يعين مسئول ينولى ادارة البلاد بالشروط التى سيسردها وأن تؤيده الحكومة البريطانية تأييداً أدبيا دون منحه مالا أو رجالاً . وقد رشح لهذا المنصب الزبير باشا تأكيداً لما سبق بقوله « وأعنى به الزبير ، فهو وحده الذى يستطيع حكم السودان ويرضى عنه السودانيون ويمكن منحه بعض الهدايا » أما الشروط فهى :

أولاً : ألا تمتد سلطته الى الاقاليم الجنوبية وخصوصاً منطقة بحر الغزال .

ثانيا : ألا تمتد سلطته الى دارفور :

ثالثا : يوالى اشعار الحكومة المصرية بارتفاع مناسيب مياه النيل . نظير مائتي جنيه سنويا .

رابعا : أن يظل في حالة سلمية مع اثيوبيا .

خامسا : أن يفرض ضرائب لا تزيد على ٤٪ على الصادرات او الواردات .

سادسا : ألا يحاول الانتقام من أى شخص اشترك في سحق ثورة ابنه .

سابعاً : أن يقوم بدفع المعاشات التي كانت تمهدت بها الحكومة المصرية لموظفيها القدامى .

وفي نهاية هذه البرقية أوضح أن احتجاز الزبير لمدة عشرة اشوام في القاهرة واختلاطه بالأوربيين لابد ان يكون قد أحدث تأثيرا شديدا في اخلاقه . كما أن تعيينه يكتل عودة جميع التجار الأوربيين وغيرهم الى السودان ، وقد طلب من مستورات ابداء رايه مستقلا تحاشيا لابداء وجهة نظر واحدة (٧١) .

وفي نفس الوقت وصلت الى السير ايفلين بارنج برقية من مستورات جاء فيها : « بمناسبة برقية جوردون المرسلة لكم اليوم ، اعتقد أن السياسة التي يلح في اتباعها ، تساعد على تسهيل مهمة انسحابنا الى حد كبير ، ولكنني اعتقد فيما يتعلق بالزبير باشا أن معلوماتنا القليلة عن السودان ، لن تمكننا من تكوين أى رأى الآن ، ومع ذلك يحتمل أن أى رجل يتم تعيينه يكون مقبولا لفترة ما » (٧٢) .

وقد ظهر بادية ذي بدء أن جوردون وضع اقتراحه عن

الانتفاع بالزبير بغير روية كافية أثناء وجوده بالقاهرة ، فلمسا وجد بارنج انه مازال على عقيدته بعد انصرام ثلاثة اسابيع ، توافرت له خلالها فرصة دراسة الموقف فى الخرطوم ولاح له انه محق فى امراضه انه لا يعبر عن رأى مدروس ، ولا يتكف كما حدث مرارا برأى ظهر المحظنسه ، ولذلك عول كرومر على تأييده الى المدى الذى يحقق الانتفاع بالزبير انتفاعا كليا ، ولو انه كان واضحا من الناحية الأخرى ان من المجازفة بمكان السماح لهما بأن يقيما فى الخرطوم معا . ولكن لما كان سسستيورات زميل جوردون الحذر المتشكك فى حكمته بشأن استخدام الزبير ، وكان كرومر من جهته عظيم الثقة فى حكم ستيورات على الأشياء ، فقد رغب فى المساح الوقت له كطلبه ، ليتمكن من تكوين رأيه . وقد بعث اللورد كرومر بنص هاتين البرقيتين الى اللورد جرانفيل يوم ١٩ فبراير سنة ١٨٨٤ م وأضاف اليهما الملاحظات الآتية :

أولا : تأييده لفكرة جوردون فى تعيين الزبير بالسودان مع الشهادة بكمايته ونشاطه ونفوذه العظيم داخل البلاد .

ثانيا : عدم تأثر تجارة الرقيق بوجود الزبير من عدمه .

ثالثا : اقتناعه بفكرة تأثر الزبير خلال فترة وجوده فى مصر باخلاق الأوربيين وادراكه لقوة أوربا .

رابعا : عدم تأييد فكرة الجمع بين الزبير وجوردون فى الخرطوم أو وضعه تحت سيطرته بل يمتد أن واجب جوردون يقتصر على امداد وسائل انسحاب الحامية لىبقى العناصر المصرية .

خامسا : ان يصدر الأمر بتعيينه حاكما عاما على السودان بمصانقة حكومة جلالة الملكة ، ويقرن ذلك بالنص على اعتماده على موارده الخاصة للمحافظة على مركزه وان يحصل على مبلغ

غاصب من المال من الحكومة المصرية ليبدأ به عمله . وأن يلقى ما يسمى بالمساعدة الأدبية التي لن يفهمها .

سادسا : اقتراحه بأن تكون اتصاله بالحكومة المصرية عن طريق ممثل الحكومة البريطانية في مصر ، وعدم اعتقاده في جد الشروط التي وضعها جوردون لتعيينه .

سابعا : عدم تأكده من قبول الزبير لهذا المنصب المقترح من عدمه (٧٢) .

وفي ٢٢ فبراير سنة ١٨٨٤ م لجاب اللورد جرانفيل على برقية اللورد كرومر برفضه لفكرة تعيين الزبير رفضا مطلقا ، نظرا لعدم موافقة الرأي العام البريطاني على ذلك ووجود اعتراضات شديدة لفكرة تعيين الزبير خلفا لجوردون (٧٤) .

وفي وقت وصول هذه البرقية طلى اللورد كرومر مذكرة من جوردون حررها ببلدة أبي حمد في ٨ فبراير سنة ١٨٨٤ م ورغم اختلافها بعض الشيء عن مقترحاته في البرقية المؤرخة في ١٨ فبراير ، ثلثها مكنت اللورد كرومر من تنهم لخطوط الرئيسية لخطته التي يريد انتهاجها (٧٥) .

وبادر كرومر الى ابلاغ جوردون نص برقية جرانفيل المؤرخة في ٢٢ فبراير سنة ١٨٨٤ م مضييفا اليها ملاحظاته التي تتلخص في اختلاف آراء جوردون في برقيته المؤرخة في ١٨ فبراير عن آرائه الواردة في برقيته المؤرخة في ٨ فبراير ، وطلب من جوردون اقتراح اسماء أخرى جديدة غير الزبير لتولى إدارة شؤون البلاد حتى جنوبى وادى حلفا او إدارة الحكم في الخرطوم نفسها نظرا لوجود اعتراضات ضد الزبير في إنجلترا (٧٦) .

وقد مول كرومر على تأجيل اتصاله بإسرائيل رهناً يتلقى رد جورديون ، فجاءه هذا الرد في ٢٦ فبراير سنة ١٨٨٤ م الذي أوضح فيه عدم استطاعة اقتراح رجل آخر غير الزبير وبسهولة تنفيذ عملية الجلاء نفسها ، وصعوبة تأمين مصر ، وتحطيم المهدي بعد أن يستولى على الخرطوم . إلا أنه اقترح لتحطيم المهدي أن يرسل للزبير ألف جنيه أخرى ، وملئت جندي هندي إلى وادي حلفا ، وضباط إلى دنقلة للتظاهر بأن في الامكان النزول بها ، وبين كيفية تحطيم المهدي في الوقت الحاضر بسهولة (٧٧) .

ويذكر د . ابراهيم أنه لا يدري ان كانت فكره استخدام الزبير باشا في حد ذاتها مجيبة ام لا . لا شك أنه كان لبقا ويعرف السودان معرفة طيبة ، ولكن كيف يقاوم هذا الرجل دعوة دينية كدعوة المهدي ؟ حقا كان في استطاعة الزبير ان يجمع حوله شيوخا وامراء وبعض الاتباع ، وانما كان لا يستطيع الصمود أمام الآلاف المؤلفة من أتباع المهدي ، الذين كانوا يشبهون بالموت في سبيله . وعلى كل فمسألة استدعاء الزبير تبين أن جورديون لم يكن مقننوها كل التنبيه لحقيقة الثورة المهدية (٧٨) .

وفي ٢٦ فبراير سنة ١٨٨٤ م وهو تاريخ وصول برقية جورديون كان قد مضى تسعة وثلاثون يوما على سفره من القاهرة ، وثمانية أيام على وصوله الخرطوم وفي غضون هذه المدة بصرف النظر عن ذكر آرائه الكثيرة المتناقضة اخط لنفسه لا أقل من خمس خطط ، تعارض بعضها مع البعض الآخر تعارضا كليا بينما لا يتفق ما بقي منها مع بعضها في القواحي التي لها أهمية عظمى بنوع خاص ، فقد دفعه تيار هذه المراحل خلال هذه المدة من فكرة الحكومة في وضع تقارير عن شئون السودان إلى تحبيذ سياسة تحطيم المهدي ، ومن أقواله في هذا الصدد أن تحطيمه أمر سهل

ميسور . ولزيادة ايضاح معوية الموقف بعث اللورد نورثبروك (٧٩) برسالة الى اللورد كرومر مؤرخة في ٢٦ فبراير سنة ١٨٨٤ م تضمنت وصفا مفصلا لمدى صعوبة الموقف آنذاك وشذوذ جوردون وسرعة تطلب آرائه ، وقد سردنا في سببع نقاط وجميعها متناقضة واشتمل بقية الخطاب على الكثير من الاسئلة حول اخسفاء الثقة على الزبير ، ومحاداة الزبير للمهدى والكثير من الاسئلة حول الزبير ، وفي نهاية خطابه يقترح لتخفيف المهدى من أجل سلامة مصر هو اطلاق مسلمين على مسلمين يحمل تركيا على القيام من أجل الاتراك ضد العرب (٨٠) .

وفي ٢٨ فبراير سنة ١٨٨٤ م ارسل السير ايفيلين بارنج الى جرانفيل مضمون برقية جوردون المؤرخة في ٢٦ فبراير سنة ١٨٨٤ م . واضاف اليها بعض الملاحظات المهمة حول اقتراحات جوردون المتضاربة لاتمام الانسحاب من السودان من عدم انشاء حكومة قبل الرحيل ، والآخر باقامة حكومة مستقرة تخلف الادارة المصرية فيها بعد الانسحاب . وقد أوضح في ملاحظاته أن جوردون في جانب الطريقة الثانية وأنه أي (بارنج) متفق معه ويؤيد تجربتها ، وقد بين أيضا مدى الفوضى التي ستحدث نتيجة لرحيل جوردون ما لم تتخذ بعض الاجراءات سلفا لمنعها . وبخصوص مسألة الزبير وتعيينه خلفا لجوردون كتب السير ايفيلين بارنج في ملاحظاته الى جرانفيل ما معناه أنه ان لم ترغب الحكومة الانجليزية في تحمسل أية مسؤولية ، كان من الواجب منح جوردون والحكومة الخديوية مطلق الحرية لعمل اصلاح ما يريدان عمله وهو تعيين الزبير خلفا لجوردون مع اعطائه قسرا من المال ليبدأ مهمته ، الى جانب هبة سنوية مقدارها خمسون ألفا من الجنيهات يستمر دفعها لمدة خمسة أعوام ، وذلك لمعرفة مدى امكان الاعتماد على حسن سلوكه . ويؤكد بارنج ان هذه الهيئة ستتمكن من الاحتفاظ

بجيش متوسط الحجم بينما يكون التدبير بأكمله اقتصاديا بالنسبة للحكومة المصرية ، وفى نهاية رسالته يؤكد على تزكية الزبير دون غيره خلفا لجوردون كما يؤيده فى ذلك نوبار باشا (٨١) .

وفى أول مارس سنة ١٨٨٤ م أجاب جرانفيل على رسالة بارنج بطلب المزيد من الايضاحات عن الضرورة الموجبة للتسجيل بتعيين خلف لجوردون الذى سستطول اقامته فى الخرطوم بعض الوقت لأن الحكومة ستضغ رايه موضع الاعتبار من الشخص اللالى للنصب ، وهى ترى ضرورة الحصول على موافقة السلطان فى حالة التعيين . وقد باهر السير ايفيلين بارنج بارسال صورة هذه البرقية الى جوردون . وفى نفس الوقت كتب جرانفيل لبارنج كتابا خاصا أوضح فيه وجهة نظر الحكومة البريطانية ، ويؤكد ثقتها فيه بخصوص رايه ورأى جوردون ونوبار فى تعيين الزبير خلفا لجوردون ، ولكن طلب منه الاجابة على مدى ضمانه فى أن الممونة الرسمية التى تحدد للزبير تكون رشوة كافية تحول دون رجوعه الى مراولة عملياته السابقة المريحة ، او حتى عدم انحيازه للمهدى ، وكان جلبا ان بارنج لا يستطيع اعطاء الضمان لجرانفيل (٧٢) .

وخلال الفترة من ٢٦ فبراير سنة ١٨٨٤ م الى أول مارس من نفس السنة أرسل جوردون سيلا من البرقيات الى السير ايفيلين بارنج وكلها تدور حول الاخلاء ، ومسألة ايجاد حكومة مستقرة بعد الرحيل . وفى ٢ مارس ١٨٨٤ م أبرق السير ايفيلين بارنج الى جوردون بأنه يرغب فى مساعدته وتأييده لولا صعوبة ادراك ما يريده لذلك طلب منه أن يدرس مقترحاته بعناية ويبلغها له فى برقية واحدة ، حتى يستطيع اذا دعت الضرورة الحصول على تعليمات الحكومة . وفى نفس اليوم أبرق بارنج لستيفورات .

يبلغه باقتناع جوردون بأن فرضه مساعده بأقصى سرعة ، ولكن الذى يريد متاعبه هو تناقض برقياته فى مسائل دقيقة تتعلق بالسياسة (٨٣) .

وقد أجابه ستیورات فى برقية أرسلها فى ٤ مارس سنة ١٨٨٤ م يشاركه فيها شعوره نحو برقيات جوردون الكثيرة (٨٤) .

وقبل البرقية السابقة كان بارنج قد أرسل برقية خاصة الى جرانفيل يبلغه فيها أيضا بكثرة برقيات جوردون ، وبالتالى كثرة اقتراحاته ، وبصعوبة تبليغه هذه المقترحات جملة واحدة او بطريقة متتالية ، وطلب إعطائه ثقة الحكومة البريطانية ، وسرعة البت فى مسألة الزبير ، فأجابه جرانفيل فى ١٢ مارس سنة ١٨٨٤ م بأنه يعطيه الثقة والسلطة التامة التى يطلبها على أن يوافيه فيها بعد بأسباب طلبه هذا (٨٥) .

وقد قام جوردون بالرد على برقية بارنج المؤرخة فى ٢ مارس سنة ١٨٨٤ م بعدة برقيات وهو يعيد فيها إصراره على إرسال الزبير للخرطوم شرطا لنجاحه فى مهمته لأن الزبير سيبدرك أن حصوله على المعونة المالية بتوقف على سلامته ، وقد علل جوردون ضعف مركزه لأنه شخص أجنبي مسيحي ، وأخيرا يطلب من بارنج أن يسأل ستیورات بلا تردد عن أى موضوع يريده ليوقف على رأيه مستقلا عن رأى جوردون شخصيا . وهو يطلب ضرورة فتح الطريق من بربر الى سواكن وإرسال مائتى جندي بريطاني الى واوى حلفا بقصد ادخال الهبة فى قلوب المهديين (٨٦) .

وفى نفس الوقت وصل بارنج برقية من ستیورات مؤرخة فى ٤ مارس سنة ١٨٨٤ م تتضمن اتفاقه مع جوردون فى ضرورة استخدام الزبير سريعا لأنه يملك هيئة كائمية لحكم السودان عقب

الجللاء لبعض الوقت على الأقل ، وسيكون خصماً للمهدى ، وبما أنه باتتاً وسط طائفة من الشائعية غير القانونيين ، فإنه سيتمكن من الوصول الى مصادر المعلومات الصحيحة . وسوف يقدم الزبير مساعدة كبيرة منذ سحب حاميات سنار . وقد أشار ايضا في برقيته الى اقتراحات جوردون الثانوية بخصوص تطهير طريق بربر سواكن وارسل قوة صغيرة من خيالة الهند أو البريطانيين الى بربر وارسل قوة من الخيالة البريطانيين الى وادي حلفا لان هذه الاجراءات توحى بوجود قوات تحت امرتهم (يقصد جوردون وستيورات) تساعد كثيرا في مفاوضاتهم مع الثوار ، وتعجيل تنفيذ الجللاء (٨٧) .

وحتى هذا الوقت كان بارنج يضغط على الحكومة البريطانية لتوافق على تعيين الزبير خلفا لجوردون في الخرطوم واقتصر اعترافه على فكرة ارساله في الحال وكانت حجته في هذا مزودة الاولى خوفا على حياة جوردون من حقد الزبير الدفين والثانية ثقته في حكم ستيورات على الاشياء اكثر من ثقته في حكم جوردون عليها . فحتى يوم ٤ مارس ظل ستيورات مترددا في استصواب تعيين الزبير ، ولكن برقيته السابقة جعلت بارنج يعيد النظر في نوعياته التي تدبها اليه في ذلك الوقت . فقد كان واضحا ان الحالة تزداد حرجا في الخرطوم ، والقبائل بينها وبين بربر تتردد في الانضمام الى الثوار او الحكومة ، بينما تدفعه الظروف دفعا الى مراعى المهدى ، كما كان جليا انه اذا كان لابد من عمل شيء لانشاء جبهة معارضة للمهدى ، وجب عدم اضاءة الوقت . وكان جوردون بالغ بشدة في ارسال الزبير فورا ويقول بالنسبة لسلامته الشخصية ان مصلحة الزبير دون اضراره به . ولم يلبث ستيورات ان انضم الى رايه نصار يؤيد تعيين الزبير فورا (٨٨) .

ولم ي ٤ مارس سنة ١٨٨٤ م أبلغ السير ايفيلين جرانفيل
 بورتيني جوردون المؤرخين في ٢ و ٣ مارس سنة ١٨٨٤ م ،
 وبرقية ستيورات في ٤ منه وأضاف إليها بعض الملاحظات التي
 تلخص في ضرورة سرعة ارسال الزبير خطبا لجوردون لأن
 التأخير سوف يضر جوردون وستيورات والحاميات المصرية ،
 ويرى بارنج ضرورة الاجتماع بالزبير قبل اعطاء رايه النهائي
 ولا فائدة من رايه اذا لم تقرر الحكومة ذهاب الزبير من عدمه الى
 السودان ويتعجل رد الحكومة على هذه النقطة . وكان السير
 ايفيلين بارنج يقصد حين ارسل هذه البرقيات ، أن يرى الزبير
 لتكوين رأى نهائي عن صواب ارساله أو عدم صوابه بعد الانصات
 الى كلامه وملاحظاته وانتمياته . وكان سيقول له اذا أنت عملية
 الجلاء بنجاح ، ويخص بذلك اذا عاد جوردون وستيورات الى
 القاهرة بسلام فانه يعين حاكما عاما على السودان كله ، ويتخذ
 مائة الف جنيه اعانة سنوية من الحكومة المصرية مادام سلوكه
 مرضيا . وعلى العكس اذا ما أصابها ضرر ، أو على العموم
 اذا اتبع فيها بعد سياسة عدائية ضد مصر ، فانه يثير ثائرة كل
 من الحكومتين المصرية والبريطانية ، حينئذ يكون مصيره الاعداء
 اذا وقع في قبضة احدهما . ومع ذلك لم تكن هناك فائدة في
 الدخول في اية مفاوضات من هذا النوع ، حتى تمنعه (اي بارنج)
 الحكومة البريطانية حرية التصرف في الامر طبقا لافضل ما يراه ،
 والذي يجب ملاحظته أن جوردون وستيورات الحان في برقيتي
 ٣ و ٤ مارس في استصواب فتح طريق بربر بسواكن ، بينما
 اقترح ستيورات ارسال قوة من الخيالة البريطانية أو الهندية من
 سواكن الى بربر (٨٩) .

وقد كان جوردون لسوء حظه يبعث بتلفرغاته الى السير
 ايفيلين بارنج . وقد رأينا كيف كان يغضب نفسه لما كسبه والنمى

للحكومة البريطانية بعدم الالتفات إلى شيء من مطالبه حيال تلك التصريحات التي تقدم ذكرها عن الجناب الخديو أو سسياسة الانجليز الذين تعهدوا بمساعدته ومعاونته في سبيل العمل على نجاح مأموريته حتى أن نجاحه كان متوقفا على إرسال مائة جندي إلى أسوان ووادي حلفا ، فلم ير السير بارنج لزوما للخطورة بهذه الكوكبة الصغيرة ، فهل بعد ذلك كله من حاجة إلى برهان بأن جوردون أرسل لموت ويترك السودان إلى الفوضى ؟ ومن ظفرافات السير اينفيلين بارنج إلى جوردون بتاريخ ٢ مارس عبارته التي يقول فيها « أننى شديد الرغبة في مساعدتك بكل طريقة » ثم نراء ينصح حكومته بعدم إرسال المائة فارس إلى أسوان ووادي حلفا لأن إرسالهم قد يكون سببا في إبعاد الخطر عن جوردون بعض الأبعاد وقد كان قصد جوردون من إرسال هؤلاء الجنود أن تصل أخبارهم إلى المهدي بغلو كثير حيث يظن أن جنودا قادمون لإمداد جوردون ، فلا يجسر على التقدم عليه ومتاجزته ولو علمت الحكومة الانجليزية برأى جوردون وأرسلت المائة فارس لكانت النتيجة حسنة ولم تسقط بربر في أيد المهديين حيث بسقوطها أهدق الخطر بجوردون ، وانقطع أمل في وصول نجدة عن طريق وادي حلفا أو سواكن لأن بربر نقطة التقاء الطريقين (٨) .

في ذلك الوقت كان الجنرال جراهام مرابطا في سواكن وعلى أهبة التقدم نحو عثمان نفقة . كان هناك أمل في أن حسين باشا خليفة الذي كان وقتئذ في بربر ، قد يستطيع في حالة انهزام عثمان فتح الطريق إلى سواكن بدون مساعدة قوة بريطانية ، بضفاف إلى ذلك أنه مادام هناك أمل في إرسال الزبير إلى الخرطوم ، وبالتالي حل المسألة السودانية بالطرق الدبلوماسية ، فإن بارنج لم يكن مستعدا لتحمل تبعات الموافقة على إرسال قوة بريطانية إلى السودان ، لذلك أبرق بارنج إلى جرانفيل

في ٤ مارس (٩١) بعدم موافقته على اقتراح سسيتيورات بشأن ارسال خيالة بريطانيين او هنود من سواكن الى مصر ، وفي ٥ مارس ابرق جسرانفيل الى بارنج (٩٢) بقوله : « ان الحكومة الانجليزية ترفض تغيير شمسورها من الزبير الذي تكون نتيجة الاسباب التي سردها جوردون وستيورات في مذكراتها المحرة في ٢٣ يناير سنة ١٨٨٤ م على ظهر السفينة تانجور فاذا لم يكن في الامكان ازالة هذا الشعور ، فان الحكومة لا تستطيع تحمل مسؤولية ارساله الى الخرطوم . وفي نهاية برقيته اراد ان يستفسر من بارنج كيف رتب اقتراحه بحيث جعله بين تعيين الزبير ومنع او عدم تشجيع تجارة الرقيق وصيد ثم بينه وبين سياسة الجلاء التام بل توخى سلامة مصر ، واراد ان يستفسر عن مدى التقدم في مسألة انقاذ الحاميات ، ومقدار المدة التي تمضي حسب تقديره قبل انسحابها كلها او الجزء الاكبر منها ، وبما انها تحتاج الى بيانات مفصلة عن كل حامية على حدة . كما رجاه ان يدلي برأيه في الاقتراح الخاص باستشارة الزعماء المحليين عن الحكومة المستقبلة للبلاد (٩٣) .

ويبدو ان حكومة جلالة الملكة كان غرضها ان يسهل جوردون السبيل لوقوع البلاد في مخالب الفوضى ، ويقضى على نفوذ مصر في تلك الأرجاء . فما الخديو توفيق باشا فكان مقصده اعادة الأمن والسلام الى تلك الأقطار ثم أجبر على تحويل مقاصده بحيث يجعلها مقصورة على انقاذ المخلصين من رعاياه من الخطر المحقق بهم من الشرور التي كان متوقعا حدوثها من نتيجة مأمورية جوردون الذي ارسل لبيوت حتى يتم فرض دولته . على ان جوردون لم يكن جاهلا بكنه تلك النية . ولهذا كان يرسل التفارقات لتري ويدون المذكرات لا ليقتنع قومه بالعدول عن ذلك العزم ، بل ليجعل التاريخ

حكما بينه وبين قومه لاعتقاده أن تلغرافاته ومذكراته لابد أن تنشر على الجمهور ومطلع عليها العالم أجمع وهم لابد أن يحكموا له لا عليه (٩٤) .

الفشل في ضمان استخدام الزبير :

في هذا الوقت بدأ الشومر باليأس يتسرب إلى نفس السير اينيلين بارنج بعد أن تلقى برقية اللورد جرانفيل السابقة الذكر ، فقد ظهر منها أن الحكومة لم تكن تعلم بطبيعة الحالة على حقيقتها في الخرطوم ، ومن ثم صار مطلوبا من بارنج أن يوضح بين اقتراح تعيين الزبير ومنع أو عدم تشجيع تحارة الرقيق ومسيده ، وكذلك بينه وبين السياسة التي ترمى إلى الجلاء التام ، وكذلك ضمان سلامة مصر وإلى بقية ما جاء بالبرقية المشار إليها سابقا من مطالب ، وهي تكليفه بأن يرسل تقارير تفصيلية عن كل حامية على حدة مع أنه كان قد سبق أن أرسل مثل هذه التقارير من قبل ورغم أن كل لحظة من اللحظات التي كانت تمر في هذا الحين كانت عظيمة القيمة . فان الحكومة لم تحرك فلك بل يزيد على ذلك أنها ظنت أن جوردون وستيورات ليسا أمام خطر عاجل ، رغم كثرة ما أرسل إلى لندن من البرقيات التي شرحت فيها الحالة تفصيلا أكثر من مرة . وأن هناك نسخة من الوقت لبحث خطوط سير العمل مستقبلا في السودان . والذي يعنينا من كل هذا أنه كان من بين الأهداف التي يرمى بارنج من تعيين الزبير من وراءها ، أن يتولى تسهيل عملية انقاذ الحاميات المحاصرة بمنع القبائل المتردة في موقفها من الانحياز للمهدى واستئصالها لجنايب الحكومة (٩٥) .

وكتب آلن مورهد تيسيل « لم يكن بارنج ميالا للمغامرات ولكنه كان يرى أن الموقف قد تدهور للغاية وكان ضروريا الاحتفاظ

بولاية قبائل الشمال والا قطعوا الطريق بين القاهرة والخرطوم ،
وذلك لأن شيوخ هذه القبائل كانوا من أتباع الزبير « (٩٦) » .

وأخيرا بعد أن وازن بارنج كل شيء بعناية انتهى إلى أن
خير ما يجب عمله هو معاودة السعى للانتفاع بخدمات الزبير .
ورأى أن الطريقة المثلى لحصل الحكومة للاذعان لمطلبه ، تكليف
جوردون بإرسال خطابا تكتب أسبابه بعناية ردا على اعتراضات
جرانفيل في برقيته المؤرخة ٥ مارس سنة ١٨٨٤ م ، ولذلك أرسل
إليه بحوى هذه البرقية وأضاف إليها الملاحظات الآتية وتلخص
في :

أولاً : هل يمكن اختيار رجل آخر غير الزبير ؟ وهل حجج
تعيينه كافية لتخفيف ثقل عيوبه ؟

ثانياً : النظر في مسألة جمع الزعماء في الخرطوم للاتفاق
معه على مستقبل البلاد .

كذلك أبدى بارنج لجوردون اهتمامه في ضرورة النظر في
كيف يتفق اقتراحه من تعيين الزبير وأعبائه مالياً ، مع سياسة
الجلاد ، ومع فكرة منع أو عدم تشجيع اصطلياد الرقيق وتجارتهم ،
ومع توخي سلامة مصر ؟ وإلى أي مدى يمكن الوثوق في بقاء
الزبير موالياً لمصر ؟ كما أنه ليس من الجائز أن يفقد الزبير مع
المهدي عندما يصبح قويا فيكون مصدر خطر أكبر منه مصدر تعاون
مع مصر ؟ كما أبلغه أن كثيرين يعتقدون حرص المهدي على
ثورته . وفي نهاية ملاحظاته طلب منه أن يجيب على جرانفيل
بالموافقة من الخطوات المتخذة لانقاذ الحاميات بما فيها حامية
دارفور (٩٧) .

وفي ٨ مارس سنة ١٨٨٤ م وصل لبارنج برقية من
جوردون (٩٨) رداً على برقيته السابقة ملخص ما جاء فيها فيما
يتعلق بإرسال الزبير إلى السودان معناه ضمان الآتي :

أولاً : اخراج الموظفين المصريين من الخرطوم .

ثانياً : انقاذ حاميتي سنار وكسلا .

ثالثاً : التأثير على من حوله لعلمهم أنه سيقيم هناك إقامة مستمرة .

رابعاً : عدم استطاعته التدخل في مسألة تجارة الرقيق لأن معاهدة سنة ١٨٧٧ م متعذرة التنفيذ ، كما أن الجلاء عن بحر الغزال والمديرينات الاستوائية سوف يمنعه منعاً مائتاً ، كما أنه يمكن الضغط عليه في سواكن التي سيقى في أيدي الاتجليز .

خامساً : لن يكون لديه الفرصة للاتفاق مع المهدي .

أما فيما يتعلق بسلامة مصر فإن إقامته بالقاهرة أظهرت أنه مبلغ قوتها . أما فيما يتعلق بهدي التقدم في انقاذ الحاميات ، فقد قام جوردون بترحيل الرجال المرضى والنساء وأطفال الذين قتلوا في كردفان ، أما سنار فهي في أمان تام ، وكسلا صاعدة . وختم برقيته بقوله أن كان للمهدي في السودان قوة البابا فسيكون للزبير قوة السلطان ، كما أن الزبير الذي يكره القبائل هو الذي ضاعف نيران الثورة على أهل اختياره هو لأطفائها ، ولعل يد القدر الحديبية هي التي تحقق له بغيته إذا ما أرسل إلى هناك (٩٩) .

وكتب ونستون تشرشل يقول : « . . لقد كان جوردون على حق عندما قال بأن الزبير باشا هو الشخص الوحيد الذي يمكن أن يكلف بهذه المهمة ، بنوبار باشا كان يعطف عليه كذلك الدكتور بوهند روف الرحالة الذي كان يؤكد ويثبت ما قاله الجنرال جوردون من تأثير الزبير باشا » (١٠٠) .

وفي نفس الوقت وصلت السير اينيلين بارنج برقيات أخرى من جوردون تظهر ازدياد خطر المواصلات بين بربر والخرطوم .

وقد أضاف جوردون العبارة الآتية في إحدى برقيات هذه بقوله :
« .. وبالنسبة للخرطوم نفسها ليس هناك خطر عليها .. » ،
وفي ٩ مارس سنة ١٨٨٤ م نقل بارنج الى جرانفيل برقية جوردون
المطولة السابقة الذكر والمؤرخة في ٨ مارس وأضاف إليها :
« .. أن إرسال الزبير الى الخرطوم مع منحه اعانة مالية لا يتعارض
مع سياسة الجلاء ، كما أنه لن يؤثر في مسألة تجارة الرقيق بأي
ناحية من نواحيها ، أما خطر معاداته لمصر فهو خطر ضئيل يمكن
احتوائه ، ولا يمكن احتمال الاضرار المحققة التي تنتج من وراء
الاتساع بدون اعداد ما يلزم لحكم السودان في المستقبل ويقع
بعد ذلك تحت حكم المهدي » (١٠١) .

وقد كان من الممكن حينذاك أن يقتصر السير ايميلين بارنج
بعد هذا فقد قال جلادستون أنه على استعداد لتجريب خطه مع
الزبير رغم أن ذلك سيؤدي الى أن يسحب مجلس العموم ثقته
منه ، واعطت الملكة فكتوريا موافقتها ولكن أعضاء مجلس الوزراء
كانوا في رعب من هذا القرار ، كما أنه لم يكن من الممكن أن
يفضل الرأي العام في إنجلترا فكرة جوردون بتعيين الزبير حاكما
للسودان ، فقد كان ذلك من شأنه أن يسقط أي وزارة ، وكانت
هذه المسألة تعادل قرار اباحة الدمار في إنجلترا . ورغم ذلك
نقصد كان من الممكن أن يوافق الرأي العام على تعيين الزبير لو
مُرحت له أسباب ذلك . وكانت المراسلات التي جرت بخصوص
الزبير حتى ذلك الوقت سرية ، ولكنه لم يكن مثيرا للتقدم بهذا
الاقتراح عن طريق الصحافة ومجلس العموم . وقد اختار جوردون
هذه اللحظة لهدم سياسة الحظر والمثابرة التي انتهجها بارنج ،
في لحظة غضب بسبب تأخير طلبه بالسماح له بالزيد من السلطة ،
وضمع أمام مراسل جريدة التايمز وأمام المجلس البريطاني في
الخرطوم كل المناقشات التي دارت حول مسألة تعيين الزبير (١٠٢) .

وأما ما يتصل بالسير أيفيلين بارنج بخصوص هذا الموضوع فقد حدثنا تفصيلا عنه بقوله : « . . أنه حدث عندئذ حدث قضى فعلا على كل أمل في الانتفاع بخدمات الزبير ، وحتى تلك اللحظة لم يكن اقتراح إرساله معروفا للناس ، وكان مستقر باور مراسلا خصوصيا لجريدة الثاير في الخرطوم . ففي ٨ أو ٩ مارس سنة ١٨٨٤ م أرسل له موهرلى الذى كان مراسلا لتلك الجريدة للقطر المصرى برقية مرسله له من مستر باور لتحويلها الى الجريدة بلندن ، وفيها يبين أن جوردون اعطاه جميع المعلومات الخاصة بمحتويات برقيات وعقب ذلك وصل بارنج خطاب من ستیورات تاريخه ٨ مارس عن تفصيلات هذا الموضوع مضيفا أنه ضمن هذه البرقيات برقية تتضمن استقالته اذا كانت اقتراحاته لن تفلذ ، كما تضاق من ستیورات لأنه لم يبلغ بارنج بإرسال الزبير مع قوة بريطانية الى بربر ، فأبلغه بأن الصعوبة ليست في القاهرة بل في لندن (١٠٣) .

وكتب جوردون في أوراقه بأن بارنج اتهمه بإذاعة سسر البرقيات المضادة والخاصة بتعيين الزبير في السودان ، وقد سرح بأنه تعدد ذلك لينتد حكومة جلالة الملكة من الغضب الذى تعرض له من وراء هذه الخطوة . وقد نتج عن اذاعة جوردون هذا السر زوبعة من الاحتجاجات على تعيين الزبير ، ليس في إنجلترا بحسب بل كان سببا في زيادة الصعوبات الخاصة بمفاوضة الزبير نفسه بعد أن كان بارنج في موقف يمكنه من طلب الزبير باثا ، وانها بانه كان فارقا حتى ذلك الوقت في سحابة كثفاء حجبت سيرته ، وأن الفرصة سنحت لاستعادة اعتباره وخبرته ، وأصبح هو في مركز يتيح له امعلا شروطه على بارنج ، والواقع أنه تلقى النصيح في القاهرة بفعل ذلك ، من أولئك الكثيرين الذين كانوا ينتظرون أية فرصة تمكنه من اظهار عداوته لانجلترا وهذا ما قاله بارنج (١٠٤) .

أما بالنسبة للأمر الذي أحدثه اقتضاح هذا السر فقد أرسل
المستر سيبرج رئيس جمعية محاربة الرق إلى اللورد جرانفيل في
١٨ مارس سنة ١٨٨٤ م بأنه مكلف من قبل الجمعية التي انعقدت
بكامبل هيتا لإبلاغكم أن أي وضع تضع فيه الحكومة هذا الشخص
وهو الزبير يكون تحقيرا لانجلترا ومضيحة لأوربا ولكن هذا التصرف
من هذه الجمعية ، كان عملا غير حكيم ، غلاشك أن هذه المعارضة
إلى جانب الحقيقة التي تدل على أن المسألة استغلت حزبيا في
لنجلترا ، تسببت في رفض آراء كل من بارنج وجوردون
وستيورات (١٠٥) .

وقبل أن تعرض برقية جرانفيل ردا على برقية بارنج
المؤرخة في ٩ مارس سنة ١٨٨٤ م ، يجب أن نشير للمكاتبات
والبرقيات التي طارت بين جوردون وبارنج في ٩ و ١٠ و ١١
مارس سنة ١٨٨٤ م ، ففي ٩ مارس سنة ١٨٨٤ م أبقى جوردون
لبارنج مخبرا آياه بأنه سينتظر رأيه بشأن الزبير ، فإذا كانت
الأسلاك البرقية مقطوعة فسيعتبر سكوته موافقة على اقتراحه ،
ويبقى في الخرطوم منتظرا الزبير والاستعراض البريطاني في
بربر ، وقد كان لا يزال هناك بعض الأمل في أن يسمح بالانتفاع
بالزبير ، ولكن بالنظر إلى احتمال اضطراب المواصلات البرقية مع
الخرطوم في أية لحظة ، لم يكن عدلا ولا لائقا أن يدع بارنج الأمل
يدأعب جوردون ، بأن الحكومة تنوي إرسال حملة إلى بربر ، لذلك
فقد أرسل له بارنج يجيبه في الحال على برقيته بأنه حسب علمه
لا تنوي الحكومة إرسال قوة انجليزية إلى بربر (١٠٦) .

وفي ١٠ و ١١ مارس سنة ١٨٨٤ م تلقى بارنج طائفة أخرى
من برقيات جوردون ولكنه أشار فيها إلى أن الشيخ مبيد لم يقرر
بعد الانضمام للمهدي أم لا ، وأن الفائدة المرجوة من استخدام
الزبير قد نقصت كثيرا بسبب تأخير البت في مسألة تعيينه ، مما

اضطر الموالين له الى الانضمام للعدو . ومما مثله جوردون في برقيته : « .. اذا كانت الحكومة البريطانية ممسكة على عمل الاستعراض العسكري البريطاني في بربر وتعيين الزبير والاحتفال بوضعه في الخرطوم يستحق هذا العمل بقاءه في الخرطوم وبالعكس اذا لم تقرر الحكومة هذه الخطوات ، فانه لا يرى فائدة من بقاءه لانه يستحيل عليه مساعدة الحاميات الأخرى ، ويتسبب لنقط في النضحية بجمع الجنود والموظفين هنا ، واستتطرد جوردون في برقته يقول : « انه يرجو أن تقبل حكومة جلالة الملكة استقالته من بعثته ، وانه سوف يأخذ جميع المخزونات والسفن الى مديريات خط الاستواء ومديريات بحر الغزال ، حيث يعتبرها كأنها تحت حكم ملك بلجيكا ، وسوف يمكن في هذه الحالة نقل جميع الموظفين المصريين والجنود البيض من بربر الى دنقلة ثم وادي حلفا ، ويكون هذا هو الرأي النهائي لجوردون ، وهذا في حالة تصميمهم على الجلاء الناجز عن الخرطوم .. » .

وقد اجاب جرانفيل على برقية بارنج المؤرخة في ٩ مارس سنة ١٨٨٤ م ، وفي ١١ مارس بما يأتي : « .. بحثت الحكومة برقيتك المؤرخة في ٩ مارس بعناية فيما يتعلق بحكومة الخرطوم والسودان مستقبلا ، ولكنها تعتبر ان الأجوبة على الاستفسارات الخاصة بتعيين الزبير غير شافية .. وفي ختام البرقية شرح الحلول التي يمكن أن تقدمها الحكومة البريطانية في سبيل اتمام الانسحاب .

وفي ١٢ مارس سنة ١٨٨٤ م أرسل جرانفيل برقية الى كرومر جاء فيها « .. نود الحكومة أن تعلم اذا كان جوردون يقصده باقتراحه أن الذي يخلقه على السودان كله أم لا ، واذا لم يكن ذلك غاية مراكز يخلقه عليها ؟ وهل سلطة هذا الخلف تهدد الى نقط يمكن أن تكون مراكز تساعد تجار الرقيق ومياديه

على مزاوله نشاطهم « نقل بارنج فحوى هذه البرقية ، وطلب منه البقاء في الخرطوم حتى يتصل ثاتية بالحكومة الانجليزية ، وحذره من الذهاب الى بحر الغزال والمديريات الاستوائية بآية صورة من الصور ، ويبدو أن جوردون لم يتسلم هذه البرقية ، وقد ندم بارنج فيما بعد على ارسالها بهذا المعنى ، فقد كان من الأفضل كما قال بارنج أن يترك له الحرية في الذهاب جنوبا . وكان من الأفضل لبارنج أن يقبل النتيجة التي تدل على أن الحكومة سمحت على عدم استخدام الزبير باشا ، فلو كان جوردون أعلن قبل ثورة القبائل بين بربر والخرطوم عن قرب الاحتفال بتعيين الزبير باشا حاكما صاما على السودان مع جنود من السود يكونون تحت تصرفه للمحافظة على النظام لكان من المحتمل ألا ينضم الشيخ عبيد وأتباعه للمهدى ، وبذا انقضت الفرصة من جوردون ، ويبدو من برقيتي جرانفيل المؤرحتين في ١١ و ١٢ مارس أن مسألة تعيين الزبير لم تبحث بعد ، لذلك فقد أرسل بارنج الى جرانفيل ملخصا لبرقيات جوردون الأخيرة وأجاب بإعاضة على الأسئلة التي وجهها له كما أرسل له برقية خاصة جاء فيها : « . . إذا قررتم في النهاية إرسال الزبير ، أرجو إبقاء القرار سرياً إذا أمكن حتى أتحدث اليه هنا ، فقد بلغني أنه لن يذهب الى الخرطوم إلا إذا جاء جوردون الى القاهرة خشية اتهامه إذا حدث لجوردون مكروه » ، ولعل إعلان جوردون لمسألة تعيين الزبير أمر مؤسف للغاية ، لأن مراسلي الصحف يترددون على هذا الأخير بينما يحضه بعض الناس في القاهرة على إلقاء شروطه باعتبار الانجليز لا يستطيع السير بدونه ، وهذا كله يجعل مسساومته شاقة . فأجاب جرانفيل بارنج في ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ م بما معناه أنه يرفض اقتراح جوردون بتعيين الزبير أو إرسال جنود بريطانيين الى بربر ، ويترك لجوردون حرية البقاء في الخرطوم لإقامة حكومة مستقرة أو الرحيل عنها .

وفي ١٤ مارس سنة ١٨٨٤ م كتب جرانفيل لبارنج يخبره :
« بأن الوزارة اجتمعت مرتين ولم يكن جلائسستون حاضرا ،
فكان هناك انقسام في الرأي عن وجود أو عدم وجود منافع للزبير ،
ولكن أعضاء مجلس العموم مجمعون على أنه لا توجد حكومة من
الاحرار أو المحافظين تستطيع تعيينه ، أما مسألة ارسال جنود
الى بربر فهي صعبة جدا فقد تؤدي الى مناعب لا نهاية لها » .
وقد اجاب بارنج على برقية جرانفيل المؤرخة في ١٢ مارس ، وقد
استعرض في هذه البرقية تعليمات الحكومة الى جوردون وتعليقه
عليها الى أن وصل « . . ومن الناحية الاخرى اذا كان القصد
مجرد تأجيل اقتراح استخدام الزبير بضعة شهور اخرى ، فأنى
أؤكد أن هذا التعطل لا يسهل مهوريته ، بل على العكس من ذلك
أعتقد أن مشقة اقامة حكومة مستقرة تزيد ولا تنقص . . » .
وقد أشار أيضا الى الرأي القائل بالجلاء الفوري عن الخرطوم ،
والالتجاء الى بربر وصعوبة تنفيذ ذلك ، وأشار الى امكانية التقهر
دون تعرض جوردون ومسئوريات لاي خطر ، وأبدى موافقته
المطلقة على مقترحات جوردون بخصوص سحب الحاييات ،
واعداد حكومة مستقلة كذلك قوله بعدم وجود خلف له غير
الزبير ، وفي نهاية برقيته أشار الى عدم وجود من يخلف الزبير
والأسس الخاطئة التي تقوم عليها الآراء السائدة ضده ،
والمصعوبات التي ستظهر اذا ما تم تعيينه (١٠٧) .

تطور الأحداث ، والنتائج التي ترتبت نتيجة عدم استخدام الزبير :

تطورت الاحداث وتتابعت بعد ذلك بصورة خطيرة ليس من
اليسير على اولى الامر في مصر أو بريطانيا ضبطها أو العمل
عليها وقفها بأي صورة من الصور ، ففي الوقت الذي وصلت
فيه الرسالة سالمة الذكر الى جرانفيل التي عرض فيها بارنج
تقويمه للموقف برمه ، وصل من الانباء ما يؤكد انضمام الشيخ عبيد

للمهدي وثورة القبائل ما بين بربر وشندي ، وفي ١٦ مارس سنة ١٨٨٤ م أرسل جرانفيل الى بارنيج برقية يبلغه فيها بتمسك الحكومة الانجليزية بتعليماتها الموضحة في برقيته المؤرخة في ١٢ مارس ويخبره فيها « . . وبينما لم يتغير رأيها في الزبير ، ويبدو ان فكرة انتظار النتائج الطيبة من وراء تعيينه تضمنت كثيرا . . » ، وقد كان واضحا انه لا فائدة من الاستمرار في هذه المكاتبات ، سالحكومة مصيبة على عدم ارسال الزبير ، ولم يعد هناك شك في انضمام القبائل ما بين بربر والخرطوم الى المهدي ، وان الوقت المناسب لارسال الزبير قد مضى ، لذلك ارسل بارنيج الى جوردون في ١٧ مارس سنة ١٨٨٤ م برقية يبلغه فيها بنتيجة مراسلاته مع جرانفيل ، واضاف اليها بعض الملاحظات التي جاء فيها « . . في ظني ان فكرة ارسال الزبير قد تلاشت نهائيا ، وان واجبك الآن ان تسير في اعمالك كاحسن ما تستطيع ، وفي حدود التعليمات الواردة في برقيات جرانفيل . . » . ومن المؤكد ان هذه البرقية لم تصله . وفي نفس التاريخ ارسل بارنيج الى جرانفيل رسالة ذكر فيها عدم ضرورة الاستمرار في مراسلاته بشأن الزبير (١٠٨) .

وقد بدأت الاحداث منذ ١١ مارس تجري بسرعة بصورة قضت في النهاية على كل امل في اخلاء الخرطوم . وفي الحادي عشر من مارس كان جوردون قد ابرق بان النوار يشجعون في حصار الخرطوم ، وفي نفس اليوم ابرق لشقيقته يخبرها بأنه ربما قد تكون هذه آخر رسالة يبعث بها لها نتيجة لتخرج الوقت . وفي ١٢ مارس قطع النوار الخط التلغرافي ما بين الخرطوم والعالم الخارجي ، وقد كان ذلك مسببا في ان جوردون لم يلق في حينه البرقية التي بعث بها بارنيج مع التعليمات المرسله له من لندن بتاريخ ١٢ مارس ، ولا شك ان جوردون

كان لا يزال لديه الفرصة - برغم قطع خط التلغراف في ١٢ مارس وبداية الحصار على الخرطوم ، وكذا خلال شهر أبريل بأكمله وحتى منتصف مايو - للخروج من الخرطوم والنجاة بنفسه ومن معه من طريق بربر . ولكنه اضطلع هذه الفرصة في الفترة من ١٨ فبراير سنة ١٨٨٤ م حتى ١٢ مارس ، ولم تصل إليه رسالة بارنج المؤرخة في ١٢ مارس الا في ٩ أبريل عن طريق رسول خاص (١٠٩) .

وفي ٢٨ مارس سنة ١٨٨٤ م كتب حرانيل لبارنج رسالة مطولة سرد فيها أسباب رفض استخدام الزبير ، وأشار إلى الاتهامات التي دأب جوردون في مناسبات مختلفة على ترديدها في أحاديثه عن الزبير ، كما أشار بشيء من الفتنة إلى أن بارنج وستيورات سبق أن غيرا في آرائهما الأصلية بغيرا كبيرا في مراسلاتهما (١١٠) .

وفي ١٤ أبريل سنة ١٨٨٤ م أجاب بارنج بترقية أشار فيها إلى ما تضمنته رسالته السابقة عن مسألة تعيين الزبير ، وتعبيرها بصدق عن رأي الحكومة وجاء في نهايتها ما يأتي « . . فاذا تيسر في النهاية الوصول إلى حل - أفضل من الحلول السابقة ، غائي أكون أول من يسلم بخطئه في اقتراح إرسال الزبير » (١١١) .

ولا يغيب عن أذهاننا أن نذكر أنه في الوقت الذي رأى فيه جوردون أنه لا نائدة من استمالة المهدي ، فكر في انتداب الزبير ماتسا ليكون وكيلًا له نظرا لأنه من رجال السودان العظام وله كلمة .سجوعة وأقارب وأخوان ، فأرسل له بترقية يقول له فيها « . . سعادة أفندم الزبير باشا بهصر نحن عينا مسعادتكم وكيلًا لحكمدارية عموم السسودان ، فيكون معلوم مسعادتكم ذلك وعند حضوركم لبربر تخابروننا وتمسعون لما فيه الامسسلح بحضور

سعادتكم تنظرون فيما اذا كان يمكن ارسال وابلورين
لحضور سعادتكم ويجري ارسالها وسعادتكم تعملون ترتيب
كيفية حضوركم للخرطوم بالوابورين المذكورين والاثنين
الاخرين ببربر بواسطة اعمال دروى من الحديد لوقاية ما بهم
من العساكر من ضرب الرصاص وتحضرون ما هو لازم معكم
من الجعليين وتعملون مقدما استكشافات بالطريق بدون مخاطر
لسعادتكم انتم « (١١٢) » .

فاجاب الزبير عليه في ١٦ ابريل سنة ١٨٨٤ م بالتلغراف
السالى « الى جوردون باشا بالخرطوم - قد تشرفنا بورود تلغراف
سعادتكم المتضمن تعييننا من طرف سعادتكم وكىلا لحكمدارية
عموم السودان ونعرف سعادتكم اننا في غاية التشكر
ونهاية المتونية من حسن التفات سعادتكم وجميل توجهاتكم في
سائر الاحوال ويسوعنى ان اعرف جنابكم مع غاية الأسف بأن
الحالة الحاضرة لا تسمح الآن بالمرغوب وارجو الله تعالى ان ينم
سسلامتكم ويتم نجاحكم بما فيه الخير والصالح العمومى
انتم « (١١٣) » .

ولم يبخل الزبير باشا على جوردون بالمساعدة بناء على
اوامر الحكومة الخديوية ، فقد أرسل في ٢١ مايو سنة
١٨٨٤ م بواسطة فضل الله اتندى ومحمد ابو جبالى ومحمد
ولد رحمة خطابين الى عشائر السودانيين والقبائل المحامدة
والخرطوم يرجوهم فيها ادخال هؤلاء الثلاثة لمقابلة جوردون ،
وطلب منهم ان يطلقوا له الحرية ويرافقوه حتى كرسكور في حقة
ما اذا اراد الهجرة ، ولكن كل هذه الجهود لم تكن شيئا ، وكان
هذان الخطبان موجّهين الى اعيان السودان لنصيحهم لظهور
الطاعة والانضمام لجوردون « (١١٤) » .

ولقد كان لقطع المواصلات بين الخرطوم والعالم الخارجى أثره فى دفع الوزارة البريطانية فى التفكير فى إرسال حملة لانقاذ جوردون تصل الى هناك فى نوفمبر ، فى حين يتولى جوردون الدفاع عن الخرطوم حتى هذا الميعاد ، وفى ١٩ مايو سقطت بربر ، وفى ١٣ يوليو أرسل جوردون الى القاهرة بأنه يستطيع الدفاع عن الخرطوم لمدة أربعة اشهر ، ورغم أنه أخذ فى خلال هذه الفترة الجهد لرفع الحصار والحصول على المؤن الكافية وتحصين العاصمة ، ورغم احرازه لبعض الانتصارات على قوات المهدي ، فان كل هذه المحاولات لم تفلح ، فقرر أخيراً إرسال ستيورات لمصر لشرح الموقف واستعجال حملة ولسلى الا أنه قتل هو ومن معه فى ١٨ سبتمبر سنة ١٨٨٤ م قبل أن يصل الى مصر (١١٥) .

حملة الجنرال ولسلى :

عينت إنجلترا الجنرال اللورد ولسلى قائدا عاما فى مصر ، وأصدرت تعليماتها الى الجنرال سيسستينسن قائد عام جيش الاحتلال البريطانى بأعطائه كل معونة ممكنة ووصل اللورد ولسلى الى القاهرة فى ٩ سبتمبر سنة ١ٸ٨٤ م وكانت معظم القوات المصرية فى ذلك الوقت على الحدود ، عاملة على تحصين أسوان وكروسكو ووادى حلفا ، فاصفر ولسلى أمره الى الجنرال وود سردار الجيش المصرى بالاضطلاع مع رجاله لبحث التسهيلات للحملة الجديدة ، وصل ولسلى الى وادى حلفا مصحوباً بأركان حربه فى يوم ٥ أكتوبر وقرر البقاء فيها لمدة شهر قبل سفره الى دنقطة . وفى يوم وصوله استلم تقريراً من الميجر كتشنر ، يذكر فيه ان الكولونيل ستيورات - مساعد جوردون فى الخرطوم - قد ضرب بربر بقنابل مدفعية احدى بواخره التى كانت تحمل

أربعين جندياً ، وأن البواخر الأخرى المصاحبة لها قد اضطرت إلى العودة إلى الخرطوم ، أما هذه الباخرة فقد اصطدمت بالشاطئ على بعد يومين من مروي ، واضطر راکبوها للنزول منها ، مما نتج عنه قتل ستیوارت وصحبه بعد مهاجمة الأهلى لهم . كان من نتيجة ذلك أن وصلت تعليمات برقية من لندن بعد ثلاثة أيام إلى ولسلى تشرح له أن هدف حملته الرئيسى هو مساعدة الجنرال جوردون على ترك الخرطوم ، فعليه أن يتجنب كل عملية هجومية بعد ذلك . ولقد أصرت هذه التعليمات على ضرورة تحديد ولسلى لعملياته إلى أقصى درجة ممكنة ، وكان عليه أن يتذكر جيداً أن سياسة الحكومة البريطانية هي العمل على إنهاء سلطة مصر على السودان . كما أنها تقبل تعيين أحد الرؤساء الوطنيين — غير الزبير — للمحافظة على النظام ، وضمان حسن سير الملاحاة في النيل ، والمحافظة على السلم مع مصر ، ودفع الهجمات الموجهة ضدها من الثوار ، وعدم تشجيع تجارة الرقيق .

أمر ولسلى مدير دنقلة بالسیر فی اقرب وقت ممكن صوب مروي ، ويعمل كل ما في وسعه لكي يصل إلى تحرير الأوربيين الذين قد يكونون قد وقعوا أسرى في أيدي الأهلى هناك . وكان على هذا المدير أن يحاول اغراء رجال القبائل على اقتداء الأسرى الأوربيين بمبلغ من المال . ولكن وقت العمل كان قد انقضى ، وأبرق ولسون في يوم ١٢ أكتوبر سنة ١٨٨٤ م أن الأهلى قد رأوا جيشاً تعوم في النيل منذ ثلاثة أسابيع . وهكذا لم يكن في استطاعة أي عملية حربية أن تنفذ هؤلاء الأوربيين .

وقد اعترضت عقبات كثيرة وجسيمة طريق النيل هذا ، فكانت الحملة تحتاج إلى ٨٠٠ سفينة ذات غاطس مسطح لنقل الجنود حتى مروي ، وكانت تحتاج إلى عدد كبير من الجمال لنقل

المهمات ولهاهم الاستطلاع في الصحراء صوب الخرطوم ، ثم كان على المصريين أن يقوموا بجرحا فوق الشلال . ويبدأ ركوب الجند في السفن في أول نوفمبر ولكن سرعان ما ظهرت مصاعب جديدة ، وهي نقص كمية الفحم اللازم لتسيير هذه السفن ، مما تسبب في تعطيل جديد لمدة ثلاثة أسابيع .

وفي أثناء ذلك الوقت وصل الجنرال ولسلى الى دنقلة في يوم ٣ نوفمبر سنة ١٨٨٤ م ، وقرا في اجتماع رسمي فرمانا صادرا من الخديو وموجها الى المديرين والعلماء والقضاة والوجهاء والتجار وشيوخ القبائل في السودان يعلنهم فيه انه قد عين قائدا عاما للقوات البريطانية المرسلة للسودان ، وانه قد حصل على تعليمات من الخديو ، وصار من الواجب عليهم اطاعة اوامره .

ووصلت القوات البريطانية متتابعة الى كورتى ثم اسدر ولسلى امره الى الجنرال ستيفارث في يوم ٣٠ ديسمبر بالتقدم في الصحراء صوب شندى ثم صوب المتمة على النيل حيث كان يأمل أن يصل بعد اسبوع . ولكنه اشتبك وهو على بعد ٢٣ ميلا من هذه القرية في قتال مع قوة من الثوار من بربر والمتمة وام درمان تبلغ حوالى ١٠٠٠ رجل . ولكن هذه الممركة المسماة ابو طليح لم تمنع الانجليز من التقدم صوب الخرطوم .

وتسلم الكولونيل ولسون قيادة هذه القوة البريطانية المتجهة قرب النيل وشاهدت في يوم ٢١ يناير سفن جوردون الاربع التي كانت قد حضرت لطلب الانقاذ والنجدة . ولكن الانجليز اضاعوا ثلاثة ايام في سحب هذه السفن فوق الصخور في الشلال السادس وما أن وصلوا الى قرب جزيرة توتى حتى تأكدوا من عدم وجود أى علم يعرف على سراى الحاكم العام في الخرطوم . وبعد قليل هاجمت نيران مدفعية الثوار السفن المصاحبة

للقوة الانجليزية . كانت الخرطوم قد سقطت في أيدي الثوار في يوم ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥ م ، ووصلت النجدة متأخرة .

أما الجنرال السير ايفلين وود الذي كان قد استلم أوامر وليسلى — بعد مقتل ستيوارت وقيل وصول أنباء سقوط الخرطوم — لتنظيم انسحاب الجنود ، فإنه قابل القوة الانجليزية في منتصف الطريق مائدة من الخرطوم مؤكدة سقوطها في أيدي السودانيين . ولم يكن هناك أي مجال للقيام بأي عملية هجومية ، خصوصا أنه لم يبق للانجليز الا ٣٥ جملا من ٢٠٠٠ ر٢ . وكان على الجنرال وود أن يعتنى بالجرحى وبمخازن الامداد والقويين بين رجال منهوكي القوى وفي حالة لا يحسدون عليها من الروح المعنوية وقد كان هذا الهجوم المضاد من جانب القوات البريطانية في شرق السودان وشماله ، علاوة على تأثيرات امدادات حملة الانتقاذ مما ساعد على تقوية روح الكفاح عند انصار المهدي وأدى الى سقوط الخرطوم في أيديهم ، كمرحلة نهائية في انتصارات الثورة (١١٦) .

وهكذا كانت نهاية تصميم وعناد الحكومة البريطانية — ممثلة في جلادستون وجرانفيل والسير ايفلين بارنج في القاهرة — في عدم الأخذ باقتراح جوردون باستخدام الزبير في مساعدته في عملية الاخلاء بالسودان أو الموانعة على تعيينه حاكما عاما للسودان بعد خروج جوردون وستيوارت منها . ورغم تأييد الكثيرين من المصريين والانجليز أنفسهم لهذا الاقتراح ، ورغم البرقيات الكثيرة التي تبودلت بين القاهرة والخرطوم من جهة وبين لندن والقاهرة من جهة أخرى بخصوص هذا الاقتراح ، فإنه لم يذق مسدى لدى السياسة الانجليزية وكان امتراسهم على ذلك هو ان الزبير أولا وقبل كل شيء تاجر رقيق ، وليس من المنطق أو اللائق تعيينه في مثل هذه الوظيفة أو طلب مساعدته لجوردون في المهمة التي وكلت اليه في السودان . رغم أنه لم يكن هناك حل

بديل لهذا الاقتراح ، كما أن الحكومة الانجليزية كانت تخشى عند تعيين الزبير أو الاستعانة به في السودان أن يقوم بالانتقام من جوردون لمقتل ابنه ، وهذا من الأسباب الظاهرية التي تحجج بها سياسة الانجليز لعدم الأخذ باقتراح جوردون باستخدام الزبير . لأن السياسة البريطانية في ذلك الوقت كانت تهدف إلى أبعد من ذلك وهو إقصاء النفوذ المصري عن السودان بأية وسيلة ، ولو كان ثمن ذلك حياة جوردون ومستحيوات ومن معها من المصريين والأوربيين على السواء . ولم تكن حملة ولسلي سوى خطوة اتخذتها الحكومة الانجليزية من جانبها ، حتى لا يقال أن انجلترا قد تركت قائدا من أبنائها دون أن تهب لانقاذه كما كان الهدف منها اظهار روح التعاون في صورة مزيفة للخديو في مصر بأن انجلترا حريصة على عدم عقد مصر للسودان . وقد ترتب على عدم الأخذ باقتراح تعيين الزبير باشا حاكما عاما للسودان أو الاستعانة به في عملية الاخلاء النتائج الآتية :

أولا : ضياع الوقت الذي كان في الامكان استغلاله للقيام بعمل عسكري مخطط لتنظيم عملية اخلاء الحاميات المصرية في السودان بجميع مديرياتها .

ثانيا : فشل حملة هيكس باشا ووقوعها في شرك قوات المهدي وكان من الصواب عدم إرسالها في هذا الوقت ، وإلى هذا المكان (كردفان) لأن هزيمتها كانت سببا في تقوية شوكة المهديين وإضعاف القوة الدافعة للاستمرار في عملية سحب الحاميات المصرية من السودان .

ثالثا : تقلص النفوذ المصري رويدا رويدا من مديريات السودان حتى انتهى إلى الخرطوم التي كانت هي الأخرى عرضة لئزوال النفوذ المصري منها بين لحظة وأخرى .

رابعاً : فقد مصر لاعداد هائلة من جنودها وموظفيها نتيجة عدم التخطيط الجيد لعملية الاخلاء أو الأخذ بالنسب الطول وهو تعيين الزبير باشا في عملية الاخلاء ذاتها .

خامساً : مقتل كل من ستيوارت ومن معه قبل أن يصل الى القاهرة لشرح الحالة على المسؤولين بها كي تسرع الحملة الانجليزية في التقدم لاقتفاء الخرطوم .

سادساً : مقتل جوردون باشا قبل أن تصله حملة الانتقاذ بعد أن ضيق عليه السياسة الانجليز الخفاق من جميع النواحي ، فكما كان يقترح كانوا هم يرفضون دون بديل لمقترحاته ، حتى اتي مصيره المحتوم على أيدي المهديين .

سابعاً : بروز مكانة وأهمية الزبير وبسط هذه الاحداث وظهوره بمظهر الرجل المنتقد الذي لا غنى عنه في جميع الاحوال .

ثامناً : القضاء نهائياً على النفوذ المصري في السودان بسقوط العاصمة الخرطوم في أيدي المهديين ومقتل جوردون وعشرون حملة ولسلى .

تاسعاً : يضاف الى ما سبق من نتائج رئيسية انه كان هناك نتائج جانبية او فرعية اهمها فقد الحكومة المصرية للكثير من الاموال ، والاسلحة والذخائر ، والسفن وما الى ذلك من المخزونات التي كانت توجد بالخرطوم وعوامم المحيريات .

وهكذا كما رأينا النتائج التي تترتب على عدم الأخذ باقتراح جوردون باستخدام الزبير وهي ولا شك كان لها تأثيرها الواضح على الموقف السياسى والعسكرى في كل من مصر والسودان وما جاورها في ذلك الوقت . ولو ان الحكومة البريطانية لم تنسدد وتصر على عنادها ، لكانت النتائج التي سبق ذكرها عكس

ذلك ، ولكن لم يكن هناك من سبيل إلا أن تتقبل الحكومة المصرية هذا الوضع على مضض منها نتيجة الضغوط السياسى الذى مارسته عليها بريطانيا ممثلة فى معتمدها السفير ايليلين بارنج (كرومر) وما تبع ذلك من احتلالها العسكرى لمصر .

ما بين مؤيدى ومعارضى استخدام الزبير فى السودان :

وقد كان هناك الكثير ممن كانوا يؤيدون اقتراح استخدام الزبير فى السودان وكذلك كان هناك القليلون الذين يعارضون ذلك ، إلا أن المطلق والصواب يقران استخدام الزبير فى هذه المرحلة الحرجة من تاريخ السودان ، لأنه لم يكن هناك من حل آخر للخروج من هذه الأزمة التى تفاجت فى ذلك الوقت . وسوف نعرض هنا لآراء من تناولوا هذا الموضوع فى المعالجة التاريخية من مؤرخين وسياسيين سواء من المصريين أو الأجانب .

كتب السياسى المعروف ونستون تشرشل يقول فى هذا الموضوع : « .. يجب على مؤرخى المستقبل أنسهم فى تقرير أيهما كان على حق أو على باطل ؟ جوردون ومؤيدوه أم الحكومة الانجليزية ؟ والذى يبدو أن الحكومة البريطانية لم تكن مهتمة فعلا بهذه المسألة محيئذ فى هذه الحالة ليس لديها هناك أى سبب أو حق فى تقييدها الفرصة على الزبير » . وفى موضع آخر يقول : « .. وكان رفض السماح بتعيين الزبير باشا بمثابة قبول أو التسليم بأن شئون أو أعمال السودان كلها هى فى المقام الأول تمس شرف انجلترا كما أنها تدس شرف مصر .. ويرفض السماح للزبير باشا للذهاب الى السودان بدأ نزاع طويل يتخلله نوع من اليأس بين الحكومة ومؤيديها ومعارضيه ، وكان من الواجب على الأطراف الفرعية التى لها صلة بالموضوع أن تقترح حولا أخرى

متدما اوصى هؤلاء برمض طلب الزبير رغم ان جوردون ومن معه كانوا يضعون الخطة تطو الخطة بقصد عدم عقد الامل في الوصول الى حل مناسب ، ولكن الطرف الآخر وهو الحكومة البريطانية اتخذ موقفا مكيبا يتسم بالصلف والعناد تجاه هذه المشكلة .. « (١١٧) » .

ونخرج بنتيجة مؤداها ان وقستون تشرشل — وهو رجل به ثقله في عالم السياسة — كان من مؤيدي الاخذ باحد الحلول التي اقترحها جوردون ومن اهمها استخدام الزبير بلثا ، وليس رفضها جميعا دون اننى سبب لذلك ، وقد عاب كما رأينا موقف حكومته المتشدد من جهة عدم قبول تعيين الزبير في السودان دون النظر لمصلحة مصر وانجلترا من وراء تعيينه .

ومن الاراء التي عرضت بشأن استخدام الزبير ما كتبه د . جلال يحيى بقوله : « . . . بدأ الجنرال جورنون مهمته في الخرطوم دون ان يظهر من بعد النظر مثل ما أظهره مساعده الكولونيل ستيوارت ، باعتقاد منذ وصوله للخرطوم انه جاء الى السودان محررا ، ولكن سرعان ما تبلور شعور "السودانيين نحوه" وشعر هو بالاتجاه الطيبى لهذا التبلور ، فاضطر الى تغيير اتجاهه بشكل يجعل منه اكثر تطابقا مع اوامره التي استلمها من لندن . وسرعان ما شعر جوردون بتلك الحمى التي سالت السودان في تلك الوقت حقيقة ان جنوده كانوا من المصريين والسودانيين ، ولكنه كان احنيا قبل كل شيء . وكان جورنون يعتبر بالنسبة لتلك الجماعة من الثوار — الذين كانوا يأسفون على الغاء تجارة الرقيق — اكر عدو قديم ، واخذ اتجاه الثورة الدينية يزداد وضوحا بعد وصول جوردون المسيحي . شعر جورنون ان بلنوع من العرلة النفسية ، وشعر انه لن يقدر على عمل اى

شيء بمفرده ، فأخذ يطلب من الحكومة الانجليزية في كل يوم طلبا جديدا ويقتراح عليها اقتراحا خاصا .

وكان اقتراح جوردون الخاص بارسال الزبير هو أكثر الاقتراحات التي ألح عليها ، ولم يكن يهدف من هذا إلا الى تأكيد فصل السودان عن مصر ، وتأكيد سيطرة إنجلترا على شؤون السودان . وقد استطاع في هذه المسألة أن يكسب تأييد السير ايفلين بارنج ، وهو من اعترفته إنجلترا خبيرا في الشؤون السودانية ، وكان هذا ناتجة لتأييد آخرين من المستعمرين البريطانيين في القاهرة . وهكذا نرى أن ستيوارت الذي كان مترددا في هذا الموضوع يصبح المنادى بتنفيذ هذه السياسة ، مثله في هذا مثل نوبار ، وسيؤيد السير ايميلين بارنج جوردون في هذا المشروع كل التأييد وسيؤسف من الأسف على رفض الحكومة البريطانية له . . » .

وفي موضع آخر يقول : « . . ووجدت الحكومة البريطانية نفسها في موقف حرج ، وخاصة ازاء الرأي العام البريطاني ، واحتجاجات جمعية منع تجارة الرقيق . وكان جوردون قد بدأ بإعادة تجارة الرقيق في السودان ، وأخذ يطلب بارسال الذي كان أكبر تاجر للرقيق في الاقاليم السودانية . ولم تكن الحكومة البريطانية مستعدة للتفكير في هذه الامر ، وكانت ترفض كل مسئولية تنتج عن ارساله . . » .

وفي موضع آخر يقول : « . . وأخيرا فإن فكرة ارسال الزبير الى الخرطوم قد رفضت نهائيا ، وكان هذا الرفض البات سببا في نشوب الخلاف بشكل نهائي بين حكومة لندن ومبعوثها في الخرطوم ، فاعتقد جوردون بأن حكومته تريد فرض رأيها عليه ، وإن تحرره من حرية الحركة ، ويقطع عليه خط التراجع ، واعتقد

أن رفضها الموافقة على إرسال الزبير لاخلاء الحلييات من السودان يعرض عليها مسئولية انتقاذه هو في وقت قريب . وإذا كان على الحكومة البريطانية أن تحدد مسئولياتها ومسئوليته هو ، فلم يكن عليها إلا أن تقبل استقالته من هذه المهمة ولكن شيئا من هذا لم يقع . وقد جوردون سيطرته على أعصابه ، ولكنه بقي في الخرطوم مدعيا أن شرعه الشخصي يحرم عليه التخلي عن عهد بهم إليه « (١١٨) .

حتى السير أيفيلين بارنج بعد مضي عدة أعوام يرى أن استخدام الزبير كان أمرا واجبا ، ولو لم تضع الحكومة البريطانية المراقيل التي تمنع استخدام الزبير وقت إرسال برقية جوردون الأولى في ١٨ فبراير سنة ١٨٨٤ م لتغير سير الحوادث ، ولو أيد ستوريات جوردون مرة واحدة لاضطر بارنج للاستسلام للحاج جوردون في طلب إرسال الزبير ، وهو الطلب الذي كره الموافقة عليه في الابتداء ، ولأمكن سفر الزبير في نهاية فبراير أو أوائل مارس ، ومن الجائز أن أعلن سفره كان سوف يمنع القبائل المتارحة في وقتها حول الخرطوم من الانضمام للمهدي . ولكن الفرصة المواتية افلتت سريعا ويتضح مما حدث بعد بحث للمسألة امتد إلى أسبوعين وهو أكثر من المدة الضرورية لبحثها ، وحتى لو خضعت الحكومة البريطانية وقت انتهاء المراسلات في منتصف مارس لما أمكن عمل شيء مفيد بعد فوات الفرصة ، وقد كتب لورد نورثبروك لبارنج يبلغه بأنه يعتقد بأنه لو أرسل الزبير الزبير لكان إرساله رمية من رميات مقابر ، وأن جميع الاحتمالات كانت توحى بانتقاله على جوردون ، وأن من شأن توطيد سلطته أن يكون خطره على مصر أكثر من الخطر الذي تتعرض له الآن ، والرأي الذي اقتهى إليه لورد نورثبروك كان ضد الزبير ، ولو أن

بارنج كان يرى أن الفساد من تعيين الزبير تقاريج على تلك
المجازلات عند الموازنة مع عدم تعيينه (١١٩) .

وفي ٢١ مارس سنة ١٨٨٥ م أرسل جرانفيل الى بارج
خطابا يبلغه فيه بأنه كان هناك تشكك كبير في الآراء حول استحقاق
الزبير لارساله الى السودان ، ولم يكن شيء من هذا القبيل بالنسبة
للمصويت في مجلس العموم . فقد حدث أن ثلاثة من الأعضاء
المؤيدين للزبير لم يغلبوا عليه ويوافقوا على اقتراح لوم الحكومة
المقدم فقط بل طالبوا برفض اقتراح ارسال الزبير في الحال .
أما جلدستون فقد قال في مجلس العموم في يوم ٢٢ فبراير سنة
١٨٨٥ م ، أنه لو وافقت الحكومة البريطانية على ارساله الى السودان
عندما طلب منها ذلك ، لكان أي خطاب يرسله هذا المجلس
الى التاج كافيا لتشمل حركة الوزارة قبل مضي ٤٨ ساعة ،
وبرغم أن قرار الرفض كان نتيجة لرأي الوزارة وحكم أعضائها ،
ناته حكم البرلمان وحكم الناس أيضا على المسألة . ولا شك
أن أكثر هذا الدفاع صحيح لولا وجود الاختلاف بين الحكومة
من جانب والبرلمان واليتمور في الجانب الآخر فالأولى كانت على
علم بالحقائق ، والجانب الآخر يجهلها الى حد كبير ولو تم تعيين
الزبير لكان من المحتمل إمكان تفادي وقوع كلثة بالخرطوم ، فإذا
كان بارج على رايه هذا فالمسئولية الرئيسية واقعة بالطبيعة
على الحكومة التي يرأسها جلدستون وكانت العدالة تقضي
بنسبة هذه المسئولية بين البرلمان الاتجليزي والشعب
وخصوصا جمعية محاربة تجارة الرقيق ، وبالرغم من ذلك وحتى
مع افتراض عدم الخطأ في تقدير الحقائق يجب التسليم بأن أي
حكم غير صائب في مسألة بالغة الصعوبة كهذه المسألة يستحق
النساج نهما على الأقل (١٢٠) .

ويمكن تلخيص الاسباب التي أدت الى عدم استخدام الزبير
فيها يلي :

أولاً : الموقف المتعنت الذي اتخذته جمعية مقاومة تحسرة
الرفيق تجاه الزبير ، واثارتها للرأي العام البريطاني من طريق
الصحف ، وكذلك الحكومة البريطانية ممثلة في جلادستون
وجرانفيل .

ثانياً : سياسة المراوغة التي مارستها الحكومة الانجليزية
تحت رئاسة جلادستون وجرانفيل في الاجابة على المقترحات
والحلل التي كان يقترحها جوردون ، وبلغها الى المسؤولين في
الحكومة الانجليزية من طريق السير اينيلين بارنج في القاهرة
ومماثلة الحكومة في اتخاذ رأي حازم وصريح في أي منها .

ثالثاً : الضغط الذي مارسه الحكومة الانجليزية على الحكومة
المصرية لكي تمنعها من أن تتخذ أي قرار من جانبها تراء ضروريا
لانقاذ الموقف في السودان ، وعلى الاخص الأخذ باقتراح استخدام
الزبير الذي لم يكن هناك حل بديل له لانقاذ الموقف .

رابعاً : عدم ثقة الحكومة الانجليزية في المقترحات والآراء
التي اقترحها جوردون حلا للموقف الشائك في السودان ، مما
جعلها تستغرق مدة أكثر من اللازم للتأكد من صحة مقترحاته هذه ،
مما جعل الموقف في السودان يسير من سيئ الى أسوأ حتى أفلت
زمام حل الموقف من يديها في النهاية .

خامساً : السرية التي فرضتها الحكومة الانجليزية وساستها
على البرقيات والمكاتبات المتداولة بينها وبين بارنج من ناحية وبين
بارنج وجوردون من ناحية أخرى حول اقتراح استخدام الزبير في
السودان أو تعيينه حاكماً عاماً عليها ، مما جعل الرأي العام
البريطاني والسياسة البريطانية تجهل حقائق الموقف ، وحقيقة

شخصية الزبير المؤيدة لتعيينه في منصب الحاكم العام ، والتي لو هربها الشعب والصحافة لكان بالإمكان أن يتغير الموقف لصالح الزبير وأصالح كل من الحكومة المصرية والبريطانية والسودان ذاته ، وفي نفس الوقت انتقاد جوردون من الموقف المتخرج الذي أوقعته فيه سياسة حكومته المتفوية .

سائلا : كثرة ما اقترحه جوردون من خطط وافكار الواحدة تلو الأخرى دون التمسك بأحد هذه الحلول ولو لمدة وجيزة حتى يتم البت فيها ، مما جعل المسئولين من الانجليز يتشككون في ايها يصلح للخروج من هذه الأزمة ، كما أنهم كانوا ضد فكرة إرسال حملة لانتقاد جوردون وتعيين الزبير . وعلى كل فقد أيد كل من السير اينلين بارنج وستيوارت ونوبار باشا والحكومة المصرية الاقتراح الخاص بتعيين الزبير حاكما على السودان لانتقاد الحاميات المصرية أولا ولانشاء حكومة مستقلة في البلاد بعد رحيل جوردون عنها ، وذلك عن اقتناع بمنطق الحقائق والواقع المعى للمشكلة دون أدنى تحيز ، ولكن كان لكل طرف من هذه الاطراف بعض التحفظات التي استرطها لاستخدام الزبير أو أي حل آخر لانتقاد الموقف في السودان .

نفي الزبير باشا الى جبل طارق سنة ١٨٨٥ م :

انتهينا الى ان اعداء الزبير من الانجليز وغيرهم قد نجحوا في مساعيهم من أجل العمل على انهيار اقتراح جوردون باستخدام الزبير في السودان بعد ان وضعوا امامه ما شاعوا من العراقيل في طريق هذا الحل ، وأغلقوا جميع المنافذ دون أن يطرحوا حلا بديلا لاقتراح استخدام الزبير ، أو ابداء اسباب رفضهم لهذا الاقتراح ، أو الأخذ بأحد الحلول التي اقترحتها جوردون وستيوارت.

للخروج من الموقف المتأزم ، بل رفضوها جميعا وتركوا جوردون ومساعدته سنيوارت وحيدين يصارعان المهدي وجيوشه بما لديهم من إمكانيات لا تذكر ، الى أن انتهى الأمر بمصرع سنيوارت أثناء توجهه الى مصر لاستعجال حملة الانقاذ ، ومقتل جوردون في النهاية بعد تمكن المهديين من دخول العاصمة الخرطوم ، وفي أثناء وجود ولسلي وحصلته في دنقلة تم ضبط أربع خطابات قيل انها من الزبير باشا أرسلها لأحد المشايخ في أسوان لتسليمها للمهدي ، فبعث ولسلي ببرقية الى بارنج في القاهرة بهذا المعنى لكي يأمره بالقبض على الزبير باشا ، وعند مرض هذا الموضوع على الخديو ونوبار باشا لم يوافقا على ما جاء ببرقية ولسلي (١٢١) .

وقد حرص على ذلك أن اشاع المخلصون من أعداء الزبير أن الهدف الأساسي من المكاتبات التي تم ضبطها والمرسلة من الزبير للمهدي ، هو التهديد لهروب الزبير الى السودان لكي يشترك المهدي في ثورته وقيادتها ، ثم العمل بعد ذلك معا للزحف على مصر ، وهكذا أفلح الواشيسون في وشايتهم وتم القبض على الزبير (١٢٢) .

لم تلبث الأوامر أن صدرت الى قوات البوليس في مساء ٢١ من يناير سنة ١٨٨٥ م بمحاصرة قصر الزبير بالقلي (١٢٣) ومهاجمته لتفتيشه ، والبحث عما يثبت لهم اتصاله بالمهديين ، فلم يعثروا بعد عملية تفتيش دقيقة على شيء يؤيد دعواهم هذه ، فعادوا وان كانوا لم يكتفوا بعد ذلك عن تحيين الفرصة المناسبة للقبض عليه وإبعاده عن القاهرة . الى أن كان صيف نفس العام عندما دعاه الشيخ عمر السنوسي أحد العلماء المغاربة ، وكان يقطن بالاسكندرية ، لقضاء أشهر الصيف هناك ، فقبل الزبير الدعوة فسافر الى الاسكندرية ونزل خيمتها عليه . وفي صباح أحد

أيام شهر يوليو سنة ١٨٨٥ م طلب مقابلة الزبير أحد الضباط
الإنجليز ، وبعد مقابلته أبلغه في رقة ولطف أن قائد السفينة
انديا - India - وكان قد تعمرف عليه الزبير من قبل في
دار محافظة الاسكندرية أثناء زيارته له - بدعوه لتناول قودح من
الشاي على ظهر السفينة في الساعة الرابعة من بعد الظهر
فقبل الزبير الدعوة شاكرا ، ومضى الى هذا الميعاد دون أن يدرك
ما الذي تخبئه له الأقدار من وراء هذا الكرم المفاجيء من القودح
الإنجليزي ، وهذه الدعوة غير المنتظرة ، وبعد أن فرغ الاثنان من
تناول أقذاح الشاي وتبادل الأحاديث ، تاهب الزبير لمقابلة
السفينة ، عندئذ تلاحظ للزبير أن السفينة قد بدأت ترفع مراسيها ،
وتمضي بهم متجهة نحو عرض البحر . امرت الزبير المفزى من وراء
هذه الدعوة ، ثم تلقت الى القائد الإنجليزي كأنها يسأله تفسيرها
لهذا الاقلاع المفاجيء ، عندئذ تقدم قائد السفينة نحوه وأبلغه في
رقة أنه قد أصبح أسيره منذ تلك اللحظة ، وأن الأوامر قد صدرت
اليه بنقله الى جبل طارق (١٢٤) .

وكان السير ايفلين بارنج - بعد أن رفض كل من الخديو
ونوبار باشا فكرة القاء القبض على الزبير - قد أمر المسافر
الإنجليزية بالقبض عليه في منزل الشيخ السقوسي بالاسكندرية
كما تم القبض على ولديه ، وأرسل الجميع الى جبل طارق (١٢٥) .

بعد أن وصلت السفينة الى جبل طارق نزل الزبير ومن معه
بقصر الملكة مكنوريا بالجزيرة ، وقضى الزبير في هذا المنفى ما
يقرب من العامين ، ولم يسمح له بالعودة الى القاهرة الا في سنة
١٨٨٧ م (١٢٦) .

وقد ذكرت بعض المصادر التاريخية أن الزبير باشا قد أمضى
في الأسر فترة ثلاثين شهرا ، وفي مقال كتبه أحد الضباط

الانجليز الذين كانوا على اتصال بالزبير باشا أثناء فترة أسره
بجبل طارق « ١٨٨٥ م — ١٨٨٦ م » أن الزبير قد أقام في مقر
محافظ جبل طارق الصيفي (١٢٧) .

وفي خلال الأشهر الثلاثة التي قضاها الحارس مع الزبير
رأى الكثير ، فكذب عن الزبير أنه أعاد أن يقص عليه كيفية
سير المغامرات التي قام بها في أوليات حياته في بحر الخزال ،
وعندما توطدت العلاقة بين الاثنين أخذ يحدثه عن السودان
والجنرال جورديون والمهدي وفجاعة الرقيق وباشساوات القاهرة
ونظام العوائد والضرائب وطريقة الحكم في وطنه بطريقة ملؤها
الحماسة . وقد كانت هذه الأحاديث تتميز بنوع من الجدية
والحقيقة ، وكان ينقلها بترجمة خبيثة رجل يدعى حامد (١٢٨) .
وقد كانت إقامة الزبير بجبل طارق طوال فترة أسره تكلفه مبلغا
يصل إلى مائة جنيه في الشهر ، ورغم ذلك كان يعاني من نقص
الأموال ، وقد كانت مسألة ترك الزبير بهذا الوضع السيئ دون
إبداء الأسباب لذلك غير مرضية ، فهو لم يقدم للحاكم لجريمة أو
جناية ارتكبها ، كما أنه لم يتم الإفراج عنه . وقد كان هذا هو
السؤال الذي رنعه العديد من مواطني جبل طارق ، الذين كانوا
يسألون أنفسهم في هذا الوقت لماذا لم تطبق وسائل العدالة
على الزبير ؟ وكان من الصعب إلا تصدق أن السبب كان معروفا
في حالة عرابي ، ولكن كان الأمر مجرد شك وحكم على أشياء
سابقة يمكن الصاقها بالزبير (١٢٩) .

وفي أثناء إقامة الزبير بجبل طارق زاره في أحد الأيام السير
جوي آدمي ، وطلب منه أن يكون مستعدا لحضور اجتماع مهم يستد
في قاعة الاجتماعات بالعصر في اليوم التالي . وفي الموعد المحدد
اجتمع المؤتمر بحضور الحاكم ، وياور خاص لجلالة الملكة ، وبعض

الضباط الانجليز والمترجمين ، وبدأ الحديث بسؤال الزبير في مسألة قبول الحكم في السودان مستقلا عن حكومة مصر . وقد كان اقتراحا غريبا بالنسبة للزبير لم يسمعه الا ان يرفضه رفضا باتا ، فلم يكن على حد قوله : « . . تاريخ اسـررتنا منذ عام ١٨٢١ م — اى منذ بدء اتصال ولائها باسرة الحكم في مصر — لا يقبل هذه الخيانة او عرضا لحكم السودان عن طريق الانجليز » . وكان من الواضح ان الانجليز يريدون ان يجيب الزبير بالاجاب ، ويجعلوا منه اجيرا لمصلحتهم ، فلما اشتد الحذل حول هذا الامر غامر الزبير الاجتماع غاضبا ، وابتى ان يخوض في شئون بلاده مع هؤلاء الانجليز (١٣٠) .

وكتب جاكسون عن الزبير عندما كان يتناقش معه في الدور الذي لعبته بريطانيا من اجل ارساله الى جبل طارق بقوله له : « . . ائت انجليزى غير متهم او مدرك ولكنك سطحي بسيط بالاضبط » وقد كان الزبير دائما يرجع فضل اطلاق سراحه من جبل طارق الى السير وينجت . وفى احدى المناسبات اعطى جاكسون تعبيراً طويلاً يدل على امترافه بالجميل تجاه السير وينجت (١٣١) .

ويصف المستر سدننى لو الزبير عندما تعرف عليه حديثا بقوله انه ذكى وبشوش وشقيق وجنتيان ، فقد تجانب معه الحديث بعد تناول طعام الغداء في أحد الايام في مقر الحاكم . ويضيف المستر سدننى لو في وصف الزبير بأنه كان رجلاً يبدو عليه سمات العظيمة ، فارح الطول نحيل الجسم ، وكان دائما يلبس الطربوش وحيثما العمامة ، وفى بعض الاوقات كان يرتدى قبة من السلك ، كما كان يتسم بالمراحة والوضوح ، ولكنه نادرا ما كان يرتدى الزي العربى ، وفى بعض الاحيان كان يرتدى زياً أزرق اللون ينتمى الى عصر الامبراطورية الثانية ، ولكنه في

المادة كان رداؤه أسمر اللون أو بلون الخرنبل وفى بعض الأحيان
 يرتدى جاكيتا ضيقا أسود اللون وسروالا مخططا وسساريا من
 الجلد وحذاء شرقيا باللون ، وكان فى رداؤه هذا أشبه بالأوربي
 الذى لم تكمل مدنيته ، وكانت يده مرسومتين بدقة حساسة
 ذات أصابع طويلة جدا وقدماه نحيفتان طويلتان أيضا . أما ملامحه
 فكانت سوداء جدا وغريبة حقا على ذلك اللون الأسمر ، وكانت
 جبهته بارزة تشبه الجمجمة يبدو الجلد منها مشدودا والعنان
 غائرين لا يكاد يبدو لهما بريق ، ولم يكن يتزين بأية مجوهرات
 باستثناء خاتم صاحب اللون غير شفاف كان قد أحضره معه من
 بحر الغزال ، وقد منحه للمستقر سحنى أو عندها غائر جبل طارق .
 وقد كان الزبير نادرا ما يخرج من مقره الى الأرض المحيطة لأنه لم
 يكن يشعر بالابتهاج فى هذه المنطقة التى حددت فيها اقامته أو
 بالنسبة للظروف المحيطة به ، ولكن خطواته كانت تقصف بالسرعة
 والانسياب والتى نسميها بحركة الحصان ، وقد كان هناك وداع
 حزين بين كاتب القتال والزبير أراد الزبير أن يسجله بقوله :
 « لقد أصبحت رجلا عجورا وأصبحت من الآن أترقب الموت ، ولكنى
 قبل أن أموت أحب أن أرى بلادى التى شهدت أيام صباى تنم
 بالسكينة والسلام ، وأن أرى التجارة تزدهر عبر النيل من اقاصم
 الى أدناه قد لا أعود الى وطنى ، ولكن اذا ما تيسر ذلك فأننى
 سأعمل على تقديم النصيحة التى أعطيتها الآن لشعبي الذى سيشارك
 ويذكر اسمى بكل ما هو طيب لأننى لا أرغب فى أن أكون عظيما ،
 فسوف أنال ما استحقته من دعوات فى قبرى بعد موتى بزمان طويل
 ولو أنهم استفدوني لعمل أى شىء فأننى سأكون مسرورا وسيكون
 ذلك شسيتا طيبا ، واذا لم أجد بلا مائدة فأن ذلك أيضا شىء
 طيب ، ولكن دعنى وعائلتى نرحل من القاهرة الى السسودان
 فسوف أذهب الى إحدى المدن المقدسة مكة أو المدينة أو القدس ،
 وهكذا ألقى بقية أبائى .. » (١٣٢) .

كانت هذه آخر كلمات الزبير وهو يومئذ صاحب هذا المقال والحارس لقر اقامته ، وقد رأينا كيف أنها تعبر عن نفس صافية لا يلبثها الحقد أو الضغينة على أحد بل كانت هذه النفس مريسة لمن ظنوا به سوءا دون أن يحمل لهم هو أى كراهية رغم ما فعلوه معه .

ولقد اعتاد الزبير أثناء فترة أسره أن يسلى نفسه بترديد بعض القصائد من الشعر يجد فيها وحدته ، وملأذا للتفريغ من نفسه ، وبعد أن أمضى هذه الفترة الطويلة فى الأسر وتناكد المستولون من برائته ، أو على وجه الصواب زال السبب الذى أخافهم من بقلته فى القاهرة ، فى الوقت الذى بلغت فيه المهديّة أوجها فى السودان ، فأخلى سبيله وسيسمحوا له بالعودة الى القاهرة ، فبلغها فى شهر أغسطس سنة ١٨٨٧ م وتشرف بمقابلة جناب الخديو محمد توفيق الذى شمله بعطفه وأهداه عربة فاخرة تجرها الجياد ، وسينا أثريا نقشت عليه كلمة الحروب الصليبية ورصع مقبضه بالذهب والماس (١٢٣) .

مواضيع الفصل الرابع

- (١) هـ . س جاكسون (ترجمة مزيو يوسف عبد المسيح) : جوردون باشا
من ص ٦٧ - ٦٨ .
- (٢) Churchill, W : The River War P. 17.
- (٣) Sparrow, G. : Gordon Mandarin P. 120.
- (٤) Churchill, W. : Op. Cit., P 17
- (٥) Jackson, H.C. : Behind The Modern Sudan P. 99
- (٦) عبد الرحمن زكي : اعلام الجيش والبحرية في مصر في اثناء القرن
الخامس عشر ج ١ ص ٩٤ .
- (٧) صاري نوحطر : وفيها انقضى الجيش العثماني تحت قيادة السردار
محمد علي باشا بالجيش الروسي تحت قيادة البرنس الكسندر ولي عهد قيصـ
روسيا ، الذي كان قد تحصن في هذه المدينة وكان الزبير قد عهد له بقيادة إحدى
عزق الجيش العثماني ووكـل اليها في هذه المعركة مهمة القيام بالهجوم على
تحصينات العدو بقصد فتح شغرة فيها كنـ يستطـيع منها الجيش العثماني ان يتدفق
خلال الجيش الروسي . وكانت خطوط العدو متينة ، فحاول الزبير بفرقته ان يذل
من هذه التحصينات بالهجوم عليها بالمواجهة فلم يستطع . الا أنه في فجر اليوم
التالي توجه الأعداء والنوم بدافع أجفانهم برجال الزبير وهم يبنسون أنفسهم
حشودا من الخيل كلوا الزبير قد امر بأن توجد صيوائها بالنفـس وأن تصرف فيه
النار ، فلما احست الخيل بالنار عوق ظهرها مضت تعدو وتنب ورجال الزبير من
خلفها يوجهونها نحو صفوف الأعداء ، الذين ما لبث الهرج والمرج ان وقع بينهم
من جراء هذه المفاجأة ، فانتهر الزبير هذه الفرسة وقلب الى المعركة بكل قوته
فلم يمتد وقت قليل حتى كان قد استطاع رزحة الجيش الروسي من هوائه

وقطع الشجرة المشوذة في صلولهم ، ولم يلبث الجيش العثماني أن تدفق من خلالها واحتدمت المعركة ، واستمر القتال إلى ما بعد منتصف الليل وانتهت المعركة بانتصار الجيش العثماني بفضل شجاعة ودهاء الزبير .

(٨) سعد الدين الزبير : الزبير باشا رجل السودان من سن ١١٤ - ١١٥ .

(٩) سعد الدين الزبير : نفس المرجع من سن ١١٦ - ١٢٢ .

Gessl, R. : Seven years in the Sudan P. 305. (١٠)

(١١) عبد الرحمن زكي : المرجع السابق من ٩٤ .

(١٢) عبد الرحمن زكي : نفس المرجع من ٩٤ .

(١٣) السعيد بن حسين : أحد سناجق الجيش لدى جوردون وكان من قبل يعمل نكاسا مع ابن الزبير ، وهو من قبيلة الجبيجاب . ولما استماله جوردون ولأه مديونية شكا : ثم خرج إلى الحكومة ولكن تم إخضاعه وجيء به إلى الخرطوم وأنعم عليه جوردون بعد ذلك برتبة الميرمران الرابعة مع لقب باشا وميله قومهراته على جنود الكاشيوزي وجعل حسن إبراهيم وكبلا له .

(١٤) "فريس أيفر" : كان من أتباع والد سليمان وعقب سجن جوردون له نتيجة وشأنه سليمان تمكن من استمالة قنصل ألمانيا بالخرطوم نظير ألف جنيه ، فأمر جوردون بغيره بأن أمرى أيفر قد سجن ظلياً ، وأنه برغم ما نسب إليه . وكان قنصل ألمانيا من أخص اصحاب جوردون ويتق به لغة عيباء ، فأخرج من أفرس وعينه مديراً لبحر الفزال والتمس له من الجناب العالي الرتبة الثالثة ، وأمام هذا الأجراء الذي اتخذ جوردون لم يسمح إبراهيم فوزي باشا إلا أن قدم استقالته لجوردون محتجاً باعتقال صحفه ، فقبلها كما أنه رآها فرصة لأن يرشيه فعينه حاكماً عاماً على إقليم خط الاستواء وأنعم عليه برتبة الأميرالاي والوسام المجيدى الثالث .

(١٥) إبراهيم فوزي باشا : من الشخصيات العسكرية المصرية في السودان ، وقد كان له دوره في أحداث بحر الفزال وثورة سليمان ، ورافق جوردون ومستبوايت باشا أثناء توجههما للخرطوم في ٢٧ يناير سنة ١٨٩٤ م لتفكيك الإخلا، وبعد ذلك قضى عليه وسجن بعد سقوط الخرطوم ، ولكن أخرج منه بعد ذلك ضمن ٨٨ سجناً بعد دخول الجيش المصري المصري الاتجليزي أم درمان سنة ١٨٩٨ م .

(١٦) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من سن ١٢٤ - ١٢٦ .

Gessl, R. : Op. Cit., PP, 116, 181 - 182. (١٧)

(١٨) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من سن ١٢١ - ١٢٢ .

Jackson, H. : Op. Cit., P. 100. (١٩)

- (٢٠) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من ص ١٢٤ - ١٢٥ .
 Geard, R : Op. Cit., P. 240. (٢١)
 (٢٢) محمد مبري : الإمبراطورية السودانية في القرن التاسع عشر
 من ٨٢ .
 (٢٣) شوقي عطا الله الجبل (مكتور) : تاريخ السودان وادي النيل ج ٢
 من ١٨٦ - ١٨٦ .
 (٢٤) شوقي عطا الله الجبل (مكتور) : نفس المرجع ج ٢ من ١٨٦ .
 (٢٥) ضرار صالح ضرار تاريخ السودان الحديث من ٩٢ .
 (٢٦) سواكن : وهي تقع على البحر الأحمر وهي عبارة عن جزيرة مبطها
 ببول ونصف ميل ، وهي مدينة تجارية قديمة العهد فهي تربط السودان بالمحيط
 الهندي وبمصر ، ويربطها بالسودان طريق يبر ، وقد اغتصبها السلطان مسلم
 اثمشتي سنة ١٥٢٠ م وظلت تابعة للدولة العلية يتولاها حكم من قبل وإلى الحجاز
 إلى أن تنازل الباب العالي عنها لمصر سنة ١٨٦٦ م .
 (٢٧) شبان نقلة : أصله من أفراد قبيل بكر الذين هبطوا إلى سواكن
 مع السلطان مسلم الفاتح واختلفوا بالهدنوه وكل من منهم قبيلة النفاوي . وقد
 ولد في سواكن وتفنن بها واشتهر بالتجارة مع السودان والحجاز بالرفيق ، ولا
 منعت الحكومة تجارة الرفيق سمات حالته وسجن مرة أخرى في جدة مع أخيه
 بسبب اتجارها بالرفيق ومنعها علم بالدموة الهندية اعتقد فيها وآمن بها وجات
 علمها ، وكان يعرف اللغة العربية ولغة الهدنوه واللجة وكان شهما شجاعا مهيأ
 وقد عينه المهدي أميرا على السودان للقرن .
 (٢٨) جلال يحيى (مكتور) : مصر العربية والأطماع الاستعمارية في
 القرن التاسع عشر ج ٢ من ٤٢٦ .
 (٢٩) شوقي عطا الله الجبل (مكتور) : المرجع السابق ج ٢ من ١٨٧ .
 (٣٠) سعد الدين الزبير : المرجع السابق من ص ١٩١ - ١٩٢ .
 (٣١) ميمى سارتوريوس : وهي زوجة الكولونيل سارتوريوس مساعد بيكر
 باشا قائد حملة سواكن .
 (٣٢) سعد الدين الزبير : نفس المرجع من ٤٩٢ .
 (٣٣) ترنكشت : مرفأ على ساحل البحر الأحمر .
 (٣٤) جلال يحيى : (مكتور) : المرجع السابق من ص ٤٢٥ - ٤٢٦ .
 (٣٥) جلال يحيى (مكتور) : نفس المرجع من ٢٠٢ .

- (٣٦) انظر تفاصيل ثورة سنها في أول الفصل .
- (٣٧) هـ . س . جاكسون : (ترجمة عزيز يوسف عبد المسبح) المرجع السابق ص ٥٥ .
- (٣٨) محمد مهدي : المرجع السابق ص ٨٥ .
- (٣٩) رؤوف باشا : (١٢٩٦ : ١٢٩٩ هـ - ١٨٧٩ : ١٨٨٢ م) خلفه جوردون وسنر الأمر العالي بتعيينه في ١٥ ربيع الثاني سنة ١٢٩٧ هـ الموافق ٢٧ مارس ١٨٨٠م وقد باشر رؤوف باشا جميع الأعمال التي تطلبت به مهنة ونشاط وأهتم على وجه الخصوص بتجهيد "القوات برقمصين" "الأموال" وكان آخر أعماله التي حكموا السودان قبل الثورة المهدية .
- (٤٠) مكى شبكة : (مكتور) : السودان في قرن ١٨١٩ - ١٩١٩ م ص ص ١٢٩ - ١٣٠ .
- (٤١) زاهر رياض (مكتور) : السودان المعاصر منذ الفتح المصري حتى الاستقلال ص ١١٩ .
- (٤٢) محمد غزاد شكري (مكتور) : مصر والسودان (تاريخ وحدة وادي النيل السياسية في القرن التاسع عشر ١٨٢٠ - ١٨٦٩ م) ص ص ٣١٢ - ٣١٥ .
- (٤٣) زاهر رياض (مكتور) : المرجع السابق ص ص ١٢٢ - ١٢٣ .
- (٤٤) حمد شفيق : (مذكراتي في نصف قرن) ص ص ٢٦٧ - ٢٦٨ .
- (٤٥) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ١٨٦ .
- (٤٦) Moorhead, Alan : The White Nile PP. 223 - 224 .
- (٤٧) Crabtree, P. : The Sudan and slavery PP. 200 - 202 .
- (٤٨) جاك يحيى : (مكتور) : المرجع السابق ص ص ٤١٨ - ٤٢٠ .
- (٤٩) صرار صالح صرار : المرجع السابق ص ١٤٥ .
- (٥٠) الشاطر بوميلي : معالم تاريخ السودان وادي النيل ص ١٧٦ .
- (٥١) Moorhead, Alan : Op. Cit. P. 224 .
- (٥٢) الشاطر بوميلي : المرجع السابق ص ص ١٧٦ - ١٧٧ .
- (٥٣) مكى شبكة (مكتور) : المرجع السابق ص ص ١٩٤ - ١٩٥ .
- (٥٤) شوقي الجبل (مكتور) : المرجع السابق ص ١٨٨ .
- (٥٥) مكى شبكة (مكتور) : المرجع السابق ص ١٩٥ .

(٥٦) تقدم أن الحكومة المصرية لما بلغها خبر هلاك حملة فكس في شينكن قر رأيها على اخلاء السودان طمأ هذا القرار على وزارة شريف باشا للتصديق عليه فتم الوزراء استئذانهم من الوزارة تشكلت وزارة أخرى برئاسة نوبار باشا في يناير سنة ١٨٨٤ م وقررت القرار عليها بمصادقة وندب لهذه المهمة عبد القادر باشا باعتذر لأنه كان ملحقاً بالنقل بغير جند . لئلا يذهب لها جورجون فحضر للقاهرة في ٢٥ يناير ١٨٨٤ م وتشرع في اليوم التالي بمقابلة الخديو ، فأمر له بمقابلة بتوليته حاكماً عاماً على السودان وأمر آخر بتعيين الفرش الذي يجب له وهو الإحلام وفسواء . أن الفرش من إرسالكم إلى السودان أرجاع الجنود والموظفين الملكيين والتجار إلى مصر وذلك مع حفظ النظام في البستان بأمانها إلى سلالة الملوك الذين حكموها قبل الفتح المصري ولما يزيد الثقة أنكم تتخلون أفضل الطرق لأمان هذه المهمة طبقاً لوعدتنا والسلام .

(٥٧) الكولونيل ستيوارت : الذي قدم تقرير عن السودان في سنة ١٨٨٢ م وهو الذي صاحب جورجون بعد ذلك إلى الخرطوم في أبريل سنة ١٨٨٢م في مهمة إخلاء السودان ، ثم شله النوار المهيمون عند قرية حية في طريق مودته مع آخرين إلى مصر بالقرب من أبي حيد في ١٨ سبتمبر سنة ١٨٨٢ م بعد ثمانية أيام بعد من مصادره الخرطوم .

- (٥٨) دأمر رياضي (دكتور) : المرجع السابق من ١٢٥ .
- (٥٩) جمال يحيى (دكتور) : المرجع السابق من ٤٢٠ - ٤٢١ .
- (٦٠) مكي شبكة (دكتور) : المرجع السابق من ١٩٥ .
- (٦١) كرومر : (تمريب عبد العزيز أحمد) : بريطانيا في السودان من ١٠٥ - ١٠٦ .
- (٦٢) غدار صالح شرار : المرجع السابق من ١٤٧ .
- Churchill, W. : Op. Cit., P. 38. (٦٣)
- (٦٤) مكي شبكة (دكتور) : المرجع السابق من ٢٠٥ .
- Churchill, W.: Op. Cit., PP. 38 — 39. (٦٥)
- (٦٦) مكي شبكة (دكتور) : المرجع السابق من ٢٠٥ .
- (٦٧) محمد عيسى : المرجع السابق من ١١٢ .
- (٦٨) كرومر (تمريب عبد العزيز أحمد) : المرجع السابق من ١٠٥ - ١٠٦ .

٢٠٦

- (٦٩) كرومر (تمريب عبد العزيز أحمد) : من ١٠٦ - ١٠٧ .
- (٧٠) كرومر (تمريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع من ١٠٧ .

- (٧١) زاهر رياض (مكتور) : المرجع السابق ص ١٢٧ .
- (٧٢) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : المرجع السابق ص ١٠٦ .
- (٧٣) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع ص ١٠٦ - ١١١ .
- (٧٤) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع ص ١١١ .
- (٧٥) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع ص ١١١ .
- (٧٦) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع ص ١١١ .
- (٧٧) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع ص ١١١ .
- (٧٨) علي إبراهيم عبده (مكتور) : المئاعسة القولية في أعالي النيل ١٨٨٠ - ١٩٠٦ م ج ١ ص ٨٦ .
- (٧٩) اللورد نورثوك : وزير المصرية البريطانية في حكومة جلادستون .
- (٨٠) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : المرجع السابق ص ١١٢ - ١١٧ .
- (٨١) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع ص ١١٨ - ١٢٠ .
- (٨٢) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع ص ١٢٠ - ١٢١ .
- (٨٣) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع ص ١٢١ - ١٢٢ .
- (٨٤) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع ص ١٢٢ .
- (٨٥) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع ص ١٢٢ .
- (٨٦) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع ص ١٢٣ - ١٢٤ .
- (٨٧) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع ص ١٢٤ .
- (٨٨) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع ص ١٢٤ - ١٢٥ .
- (٨٩) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع ص ١٢٥ - ١٢٦ .
- (٩٠) إبراهيم فوزي : السودان بين يدي جوردون وكاتلر ج ١ ص ٢٠٠ .
- (٩١) انظر ملحق الوثائق المنشورة الوثيقة رقم () .
- (٩٢) انظر ملحق الوثائق المنشورة رقم () .
- (٩٣) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : المرجع السابق ص ١٢٧ .
- (٩٤) إبراهيم فوزي : المرجع السابق ج ١ ص ٢٩٥ - ٢٩٧ .
- (٩٥) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : المرجع السابق ص ١٢٧ - ١٢٨ .
- (٩٦) Moorehead, Alan : Op. Cit., P. 219.
- (٩٧) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : المرجع السابق ص ١٢٨ - ١٢٩ .

- (٩٨) انظر ملحق الوثائق المنشورة بالوثيقة رقم ()
- (٩٩) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : المرجع السابق من ص ١٢٦ - ١٣١
- Churchill, W. : Op. Cit., P. 48. (١٠٠)
- (١٠١) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : المرجع السابق من ص ١٣١ - ١٣٢
- Moorshead Alan : Op. Cit., P. 250. (١٠٢)
- (١٠٣) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : المرجع السابق من ص ١٣٢ - ١٣٣
- (١٠٤) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع من ص ١٣٣ - ١٣٤
- (١٠٥) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع من ص ١٣٤ - ١٣٥
- (١٠٦) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع من ص ١٣٥ - ١٣٥
- (١٠٧) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع من ص ١٣٥ - ١٤١
- (١٠٨) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع من ص ١٤١ - كذلك
- انظر أيضا ملحق الوثائق المنشورة بالوثيقة رقم ()
- (١٠٩) محمد نؤاد شكري (مكتور) : المرجع السابق من ص ٢٧٦ - ٢٧٧
- (١١٠) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : المرجع السابق من ص ١٤١ - ١٤٢
- (١١١) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع من ص ١٤٢
- (١١٢) أحمد شفيق : المرجع السابق ج ١ من ٢٦٩
- (١١٣) أحمد شفيق : نفس المرجع ج ١ من ٢٧٠
- (١١٤) أحمد شفيق : نفس المرجع ج ١ من ٢٧١
- (١١٥) زاهر رياض (مكتور) : المرجع السابق من ص ١٢٩ - ١٣١
- (١١٦) جلال يحيى (مكتور) : المرجع السابق من ص ٤٤٥ - ٤٤٨
- Churchill, W. : Op. Cit., PP. 44 - 45. (١١٧)
- (١١٨) جلال يحيى (مكتور) : المرجع السابق من ص ٤٢١ - ٤٢٢
- (١١٩) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : المرجع السابق من ص ٤٤٤
- (١٢٠) كرومر (تعريب عبد العزيز أحمد) : نفس المرجع من ص ٤٤٥ - ٤٤٧
- (١٢١) أحمد شفيق : المرجع السابق ج ١ من ١٧٦

- (١٢٢) عبد الرحمن زكي : المرجع السابق ج ١ ص ٤٠ .
- (١٢٣) وكان الزبير قد انتقل اليه بعد أن إهداء إياه جناب الخديو توميق باشا سنة ١٨٨٠ م .
- (١٢٤) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ١٤٠ .
- (١٢٥) أحمد شوقي : المرجع السابق ج ١ ص ٢٧٦ .
- (١٢٦) شوقي الجبل (دكتور) : المرجع السابق ج ٢ ص ١٨٦ .
- (١٢٧) Ribblesdale, Right H. : Conversation with Zobeir Basha, at Gibraltar P. 1.
- بحر المحاذي الصيني : وهو المسهل من القر الحكومي والكتن على الصخور الجرداء ما بين منطقة Europa Point وقطج — Calalaa
- الطل على المضايق ، وكان هذا القر في حراسة طباط من الحماية كانت مبنية إدارة شئون التزل في الحدود التي تسمح بها الامكانيات المتاحة للزبير باشا ، وكذلك المصروحات الأخرى ، ومن ماله أيضا قلم رسالة من أفراد محدوجين وأن بعد رغباته في حدود الامكان . كان هذا العائرس هو صاحب هذا المنزل ، وقد كلفه السير جون آدي بهذه المهمة بصفة خاصة ، وكان الحارس يقيم مع الكتيبة النقلة في غرفة الأسلحة منذ ديسمبر ١٨٨٥ م . وقد تعمل هذه التواجبات التي كلف بها إلى أن تغلق عنها في العائرس من مارس ١٨٨٦ م عندما عاد إلى وطنه في الاجازة .
- (١٢٨) حامد : جاء هذا الرجل إلى إنجلترا كمارس شخص لتسليم أوب
- نرس بحر يزور شواطئه إنجلترا ، وتعلم الإنجليزية في مدرسة — Roads
- The Borough ، وقد كان غالبا ما يتناظر قصص الرجال المتوحشين والحيوانات المتوحشة في بحر الخوال ودارفور . وقد عمل كترجم للزبير طوال مدة أسره بجيب طمساري .
- Ribblesdale, Right H. : Ibid. P. 4. (١٢٩)
- (١٣٠) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ١٤٢ .
- Jackson, H.C. : Op. Cit., P. 107. (١٣١)
- Ribblesdale, Right Hon : Op. Cit., P. 15. (١٣٢)
- (١٣٣) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ١٤٤ .



الفصل الخامس

الزبير باشا رحمة في نهاية حياته

الزبير باشا رحمة في نهاية حياته

بعد عودة الزبير الى مصر من منفاه بجبل طارق بعد ان قضى به قرابة العامين اسيرا دون ان يركتب أى خطأ يبرر نفيه ، سوى ما أشاعه حوله النواشون من انه حاول الاتصال سرا بالعهدي عن طريق المراسلات ، مما دعا المسئولين فى القاهرة من الانجليز الى إبعاده ريثما تهدأ الأوضاع ، وتستقر الأمور السياسية والعسكرية فى السودان ، وتتجلى حقيقة الموقف . وما زالت هذه الأسباب التى كانت سببا فى نفيه الى جبل طارق حتى سمحوا له بالعودة ، فكانت عودته الى القاهرة بعد هذا النفى هى بداية لنهاية حياته السياسية والعسكرية ، التى بدأت بمساهمته مع عرب الرزيقات ، وانتهت فوق صخور جبل طارق . وعند عودته أحسن ان الحوادث قد سبقته بسل خلفته وراءها ، وأن دوره السياسى قد انتهى فعلا ، فاستكان لهذه النهاية التى أرادتها له الأقدار (١) .

وقد هارت حياة الزبير بعد ذلك خالية من المتاعب السياسية طابعها الهدوء المطلوب لرجل أنهكته الأحداث السياسية والعسكرية على مدى فترة طويلة من حياته .

عاش الزبير بعد عودته من منفاه فى قصر الجيزة بالقرب من القاهرة ، وكان يقوم بين الحين والآخر بزيارات للسير أيفلين

بارنيج • وكان يطالب اللورد كرومر أثناء حديثه معه بأن يحاكم أمام محكمة على الجسرائم التي ظن المسئولون أنه ارتكبها تأكيداً لبراءته ، أو منحه قدراً كبيراً من المال كتعويض له عن الفترة التي قضاهما في منفاه بجبل طارق ظلماً (٢) •

وقد كان هذا المطلب مثار خلاف بينه وبين الحكومة في مصر لم ينته إلا بعد وفاته ، ولم يكن الخلاف حول مسألة تعويضه سبباً يمكن أن ينغص حياته الهائلة التي وجدها في القاهرة ، فقد التقى به ونستون تشرشل وكان شايها صغيراً في طريقه إلى معركة أم درمان ، في القاهرة بعد عدة سنوات ، وكان يلبس معطفاً من الفراء وحذاء لامعاً ويحيط به جو من الثراء والسلطة (٣) •

تعويض الحكومة المصرية للزبير مانيا :

أمتد الخلاف في مسألة تعويض الزبير مانيا منذ جاء إلى مصر لمقابلة الخديو اسماعيل لأول مرة في سنة ١٨٧٥م حيث تقرر يومئذ حجزه في القاهرة وعدم السماح له بالعودة إلى السودان ، فقررت الحكومة في نفس الوقت صرف مبلغ مائة جنيه شهرياً له كمرتب ثابت مع صرف مرتب آخر لعائلته في السودان ، فلما صادر جوردون أمواله وتجارته في السودان عقب ثورة ابنه سليمان كما تقدم ، أصر الزبير على أن ترد له هذه الأموال التي لم يكن لجوردون الحق في مصادرتها ، مادام لم يثبت عليه اشتراكه في هذه الثورة أو التحريض عليها ، ولكن طلبه هذا رفض ، فأضطر أن يرغس أمره للقضاء مطالباً الحكومة المصرية بأمواله المصادرة ، وبمبلغ يزيد على المليون جنيه قيمة ما أنفقته في فتوحاته بالسودان ، وكتعويض له عن مقتل ابنه (٤) • وقد تراقع عنه في هذه القضية السير ماريوت لدى الحكومة الانجليزية بقصد تحصيل هذا المبلغ فلم يفلح ورفضت القضية رفضاً نهائياً (٥) •

وعندما رأت الحكومة المصرية أنه قد ان الأوان لتعويض رجلها هذا ، قرر مجلس النظار في أول مايو سنة ١٨٨٢م ضم ما يصرف لعائلته في السودان إلى مرتبه مع منحه خمسين جنيها شهريا كتعويض ، ليبلغ جملة مرتبه مائتي جنيه شهريا على أن يكون صرف ذلك إليه مدة حياته ، ومن بعده تصصرف لأولاده وأزواجه بحسب القسمة الشرعية بحيث أنه عند وفاة أحد منهم يصير قطع ما كان مربوطا له كما هو مذكور بصورة الآن الصادر من المالية للروز نامجة في العشرين من مايو سنة ١٨٨٢م . وقرر مجلس النظار أيضا في جلسته المنعقدة في الثامن من نوفمبر سنة ١٩١١م رفع هذا المرتب إلى ثلاثمائة جنيه أى بإضافة مائة جنيه (كمئمة لمساعدته بصفة شخصية محضنة علاوة على مرتبه اعتبارا من أول نوفمبر المرقوم بشرط ألا يتوارث من بعده) . ولم يكن هذا المبلغ الضئيل ليكفي احتياجات الزبير ومن معه ، وهو الذى اشتهر بالكرم وحب العطاء طسوال حياته ومما يذكر بهذه المناسبة ما رواه بعض الكتاب « من أن أظهر صفاته الكرم والشجاعة وحب الفخر والسلطة » . وقد اشتهر كرمه منذ كان ملكا في بحر الغزال ، فقصدته الكثيرون من أهل البيوتات في السودان الذين خانهم الدهر فأزال كريتهم وخرج ضيقهم . وقد تكسر الزبير في بعض مجالسه المبالغ الكبيرة التى أخصدها قومه وهو في بحر الغزال ، فبلغ مجموعها نحو العشرين ألف جنيه ولم تزل داره إلى الآن (١٩٠٠م) مقصدا عامرا لمن خانته الدهر وخذلكه الأقدار من أهل السودان المصرى والغربى . والزبير بطبعه أبى النفس ، سهل الجنب ، قوى الإرادة ، قريب إلى الخير ، بعيد عن الشر ، محب للعلم وأهله ، غيور على الإسلام والمسلمين مع مسالة الذين على غير دينه وهو لم يزل في محيطته المنزلية من المأكلى والمشرب والملبس على نحو ما كان عليه في السودان ، ولكنه إذا خرج لبس الطربوش لباس الأفرنج (٦) .

حياته في القاهرة واتصالاته برجال الحكم وكبار العلماء :

استقر الزبير بعد عودته من المنفى بقصر الجيزة (٧) على مقربة من القاهرة ، ومن ثم بدأ سريعا يندمج في تيار الحياة العامة ، ويوالى اتصالاته بكبار رجال الدولة ومساهميها من العلماء والأدباء ورجال الجيش والحكم ، وكان هو بصفته محبا للعلم والعلماء ، قصارت دأره مسرحا للمناقشات والندوات العلمية والسياسية من جانب المقربين إليه ، فشارك في هذه الندوات الكثير من الشعراء الذين منحوه في مصر والسودان ، فأجزل لهم العطاء ومما يذكر عنه أنه شارك بقدر كبير من المال في طبع بعض الكتب الدينية بليدين (٨) .

ولم تمض على اقامته بقصر الجيزة مدة كبيرة حتى تركه إلى حطران التي لم يلبث أن طابت له الإقامة فيها بعد زيارته للسودان سنة ١٩٠٥ م . فابتنى لنفسه قصرا فيها ليقتضى بقية عمره . وكان الزبير كثيرا ما يمضي وقته متنزها في حديقة قصره ، أو الخروج في عربته الفاخرة إلى شاطئ النيل بملوان ، أو إلى ميدان سباق الخيل بالمدينة الذي انشأه وأجرى فيه عشرة من أجسود الضيول العربية الأصيلة ، أو بين رياض الجزيرة الغناء ، أو المذهب إلى قصر عابدين حيث يستأجر في الدخول على سمو خديو مصر عباس حلمي الثاني ، فيلقاه جنابه الكريم باليشر والترحساب ، وقد كان الزبير أثناء اقامته بمصر كثيرا ما يقتضيه الواجب من زيارات للأصدقاء والأخوان والمشاركة في الاحتفالات والمناسبات الرسمية ، فإذا ما أقبل المساء عليه أضيئت الأنوار في دأره ، وفتحت حجرة الاستقبال لتتلقى الضيوف الأعزاء عليه أمثال عبد القادر باشا حلمي حاكم السودان وأفلاطون باشا وعثمان غالب باشا محافظ القاهرة ، والشيخ سليم البشري وصالح باشا صبحي وحسين باشا

فوزى ، وحسين باشا سرى ، وجودة بك ، وأحمد الحسينى بك ، وغيرهم من الأصدقاء الذين أنسقه عشورتهم أهل السودان ، فيتسامرون معا ويستزيدون من أخبار السودان التى يرويها لهم (٩)

وقد حفلت الكثير من التراجيع بقدر كبير من المناقشات والندوات التى عقدت مع الزبير سواء فى مصر أو السودان فى آخريات حياته ، فعلى سبيل الذكر ذكر لنا جاكسون جانبا من هذه المناقشات فقد سألته ذات مرة بقوله لماذا اختارك جوردون لأن تعود معه الى السودان ؟ وقد كنت قاجر رقيق بينما جوردون كرمى سنوات عديدة من حياته لكى يضع نهاية لتجارة الرقيق فى السودان ؟ وهنا أجاب الزبير بقوله : ربما فى الحقيقة قد فعلت مثلما فعل جوردون لكى ألقى على تجارة الرقيق ، وعن نفسى لم أرسل للقاهرة قط أى فرد سواء كان عبدا أو طواشيا (خصى) وعندما حرر جوردون جميع العبيد ، فإنه فعل ذلك لكى يطلق سراحهم أو يعطيهم حريتهم مع أن كثيرا منهم كانوا يعيدون عن أوطانهم كل البعد ، ولا يعرفون كيف يكتسبون معيشتهم فى بلاد غريبة ، وأنا أعلم علم اليقين بأن تجار العبيد كانوا يهاجمون سكان السودان الجنوبى ، ثم يبعثون بهم الى القاهرة أو الى الشمال ، وللعلم فإن مايربو على عشرة آلاف من هؤلاء العبيد قد ماتوا أثناء نقلهم عبر الطرق وذلك بسبب سوء المعاملة وسوء التغذية وكثرة ما استعمل معهم من الأساليب الوحشية . ولقد اعتاد جوردون أن يصنع أكواما من عظام هؤلاء العبيد فى أماكن مختلفة خلال مروره لكى يسترشد بها ، ولكى تكون علامة على أنه مر فى هذا الطريق ، ويعتبر هذا استغناقا بالحياة ومن يملك عبيدا يتطلع الى الوقت الذى يصلون فيه الى القاهرة ، وذلك لا لشيء سوى العمل الذى لا يقتر فى حنازل الباشوات والأغنياء بجانب أننى كرهت بشدة فساد وقسوة الحكومة المصرية ، وأردت أن أجمع أكبر عدد منهم ، وكان كل موظف مصرى من حاكم

فأشودة إلى الأمل كاتب مقتنع بتجاوزة الرقيق ومنهمك فيها ، وعندما
القيت القبض على بعض العبيد ، فبدلاً من أن أقوم ببيعهم قمت
بضمهم إلى جيشي الخاص معطياً لهم أجوراً ممتازة ، وحياة
المغامرات التي يحيونها ويفضلونها ، وكثير من هؤلاء السودانيين
الجنوبيين كانوا محاربين عظماء والكثير منهم انضم إلى برغبته
وارادته الحرة ، ولم يكن لهم أن يفعلوا ذلك لو لم أحملهم معاملة
حسنة وقد كانت جيوشى تصيب النجاح تلو الآخر لدرجة أن تجار
العبيد وموظفى الحكومة أصبحوا غيورين منى ، ونتيجة لذلك
ظلوا يرسلون تقارير كاذبة إلى جناب الخديو يخبرونه فيها بأننى
أنوى القيام بثورة ضد الحكومة ، وعندما طلب منى الخديو الحضور
إلى القاهرة كتبت إليه قائلاً بأننى على أتم استعداد لذلك كما أننى
كنت أرغب فى أن أتناقش معه فى أحسن الطرق لإدارة الاقليم الذى
غزوته بمساعدته ، وقد أخذ الزبير يسترجع فى أيامه الأخيرة بساملة
طفولته الشائقة ، وكان الكولونيل برنارد (فيما بعد سير أديار)
واحداً من الذين يحبون استضافة الزبير باشا بغرض الاكرام ، وكان
دائماً ما يلعب معه لعبة عادة ما كانت اثنتى عشر دوراً لا يفشل
حتى تسبب له سعادة غامرة ، وعندما كان الياشا يحضر لتناول
الشاي يجد أريكة خاصة به غير مشغولة معدة لجلوسه ، وبمجرد
جلوسه يبدأ فى لعب الحواجز المفتوحة ، وعندما يبلغ الزبير
الثلاثين من عمره تقريباً ، وأصبح ضعيف البنية خائر القوى بحكم
مرور السنين رفض أن يعتقد أنه أصبح رجلاً هرمًا ، وفى محاولة
لرفع مؤثرات الشيخوخة عن كاهله كان يلجأ إلى الكى بالأسياخ
الحديدية المدومة .

وكان الزبير كما وصفه جاكسون رجلاً ذا عبقرية فذة فى
التنظيم ، وكان عظيم الكرم الذى سبب قلقاً بالغاً للحكومة ، وقد
أعطى معاشاً كما سلف الذكر تعويضاً له عن فترة أسره بجيـسـل

طارق ، ومع ذلك أثبت هذا الحُمل أنه غير كافٍ لرجل كان يعيش في بحيرة أيام كان في جنوب السودان ، وكان العديد من الخدم يصفون إليه ، وكان هناك مجموعة من الفقهاء يجلسون خارج حجرته يرتلون الأدعية والصلوات بدون انقطاع ، والصراخ المسلمون والأسود المقيدة بالأغلال تحرس منزله من التطفل ، ولم يحزن الزبير لحظه العائر لهذا المعاش القليل ، وظل يجزل العطاء إلى زواره في أم درمان (الجبال) كما كان سخيًا مع الآخرين في الأيام الخوالي ، ولم يكن من المدهش أنه عندما انتقل إلى رحمة الله ترك خلفه الكثير من الديون التي كان على الحكومة أن تدفعها ، وربما كانت مميزات شخصيته هي التي جعلته في الغالب عزيز القدر للذين يعرفونه جيدًا ، ويعرفون ثقته العالية في النظم الانجليزية ، التي خدمها بخلوص وتفان حتى وفاته ، وبالرغم من الأحداث التي كان يجب أن تستفز أي رجل وتزلزل من إيمانه أو اعتقاده ، فابنه سليمان قد أعدم بأوامر من جوردون ، وهو نفسه سجن في جبل طارق ولكنه رغم ذلك لم يحمل لبريطانيا أي حقد أو ضغينة بسبب ما ناله من قصاص غير مستحسن على يد الانجليز ، معتقد أنه عوقب لسوء فهم الانجليز وانخداع السلطات المصرية ، وكان دائمًا يشير إلى نضل السير ونجت في إطلاق سراحه من جبل طارق ، وقد حدث في سنة ١٨٩٩م أن قامت بعض الفرق السودانية بالتمرد بتحريض من المصريين ، ولكن الجنرال ونجت الذي كان كان قد عين لتوّه حاكمًا عامًا للسودان ، وسردارًا للجيش المصري نجح في حفظ الأمن والعمل على استتباب الأمور ، ولم يلبث ونجت بعد القضاء على المتمردين أن استلم الكثير من خطابات التهديد ، ولكن لم تلبث الأرضاع أن هدأت ، وحضر كثير من الناس ومعهم الزبير باشا إلى محطة السكة الحديد لتوديع السير ونجت وحرمة عند سفرهم إلى الاسكندرية ومنها إلى ميناء تريستا ، وعند وصول

السير ونجت الى المكان الذى بجوار الرصيف الذى ترمو عليه السفن دهش لرؤية الزبير باشا يخف نازلا من العربة التالية لهريته وكان هناك فى هذا اليوم حشود وأزدحام غير عادى ، فطلب السير ونجت من الزبير باشا أن يسير معه ، وكان ونجت متحمرا جدا لوجود صديقه القديم على الدوام يتوسط بشخصه بينه وبين هذا الزحام ، وعند وصول السفينة شكر ونجت الزبير على مجيئه من القاهرة الى الاسكندرية لتوديعه مرة اخرى . وهنا أجاب الزبير بقوله : قد وصل مسامعى أنه كانت هناك محاولة تدبر لاغتيالك فى الاسكندرية ، ولكن اسألك الاعتذار لتوسطى بينك وبين حشود مستقبلك ومودعك ، ولكنى كنت عاجزا على الا تصلك اى رسالة قاتلة جدا التى تفترق جسمى ، (١٠) .

كانت هذه احدى المناقشات التى دارت بين الزبير وجاكسون فى اخريات أيامه ، وقد تبينا من خلال هذا الحديث مدى الاقتناع القوى للكاتب بشخصية الزبير ، واكتاره من الديع والاطراء له وعرض الصفات الطيبة التى كان يتحلى بها وما كان فى ماضيه السياسى والعسكرى فى السودان من مغامرات ومسؤولات مع الحكومتين المصرية والانجليزية ، كما نستشف من هذا الحديث مدى اعزازه وحبه للسير ونجت الذى كان له فضل الافراج عنه عندما كان فى جبل طارق ويشير هذا الحديث أيضا الى مدى اخلاص الزبير للحكومة المصرية ووفائه لها عندما عرض عليه الانجليز فى جبل طارق تولي الحكم فى السودان ، كما أشار هذا الحديث الى مدى اخلاص الزبير للانجليز رغم ما فعلوه معه .

اتصال الفرنسيين بالزبير فى مصر :

حدث اثناء اقامة الزبير فى القاهرة وبالتحديد فى سنة ١٨٩٦م ان زاره سرا فى أحد الأيام بعض كبار الفرنسيين من أصحاب

النفوذ في بلادهم ، وجلسوا معه الى ما بعد منتصف الليل بساعاتين يحاولون اقناعه بالتوسط بينهم وبين رابع لعقد اتفاق لوقف الحرب الدائرة بينه وبينهم بسبب (برتو) التي كانوا يريدون الاستيلاء عليها ، أو يطلب منه الزبير الانسحاب منها بمقتضى الاتفاق الذي يتم عقده معهم ، وقد عرضوا على الزبير نظير ذلك مبالغ طائلة من المال ، كما أبدوا له استعدادهم لتنفيذ كل ما يطلبه منهم دون أدنى اعتراض ، خير أن الزبير رفض قبول عروضهم هذه أو للتوسط بينهم وبين رابع . وذلك لأن الزبير كان قد تفض يديه من أمور الحرب والقتال ، وما يجري في السودان منذ مصرع ابنه سليمان . وكان لذكر اسم رابع وانباء الحرب والغزو رد فعل في نفسية الزبير جعلته يحس بريح حزينة تهب في صدره ، وتسود له مواكب الماضي وتكريات أعوام طويلة قضاهما بين رائحة البارود وحلاوة النصر من معركة الى أخرى . وقد كان آخر ما اتصل به بأخبار رابع بعد أن رفض التسليم لرومو لوجسي مع سليمان ابن الزبير ، أن مضى نحو الغرب ومعه ألف من الرجال المسلحين الى أن وصل برنو ، ففتحها وأسس فيها ملكا عظيما جعل عاصمته دكوه جنوبي بحيرة تشاد الى أن دخلت برنو هذه في نطساق النفوذ الفرنسي ، فجردوا عليه جيوشهم ، ولكنه كان ما يزال القائد الذي سار تحت لواء الزبير من نصر الى نصر ، فهزم هذه الجيوش في أكثر من معركة دامية . ولهذا السبب التجأ الفرنسيون الى الزبير للتوسط بينه وبينهم ولكن الزبير خيب آمالهم (١١) .

وتذكر المصادر التاريخية أن رابع كان قد قضى على بعثة للفرنسيين في سنة ١٨٩١ يقودها كرامبل J. Crampel وفي نفس العام قضى على بعثة فرنسية أخرى يقودها الملازم البحري بريتوننت Bretonnet عند توجوبا Togoba بعدها اتخذ الفرنسيون في سبيل التقليب عليه خطوات فعالة ومؤثرة حتى

قتل على يد قوة فرنسية بقيادة جنثيل Gentil حاكم امارة
الشارى بالقرب من بحيرة تشاد (١٢) .

وقد كان الموقف الذى اتخذ الزبير من عرض الفرنسيين موقفا
سليما لا يمكن الطعن فى صحته ، فقد آبت عليه كرامته ووطنيته
وأخلاقه كقائد عسكري ، وزميل كفاح قديم لأربع أن يدنس يديه
بهذه الأموال ، أو أن يقبل عقد اتفاق لا يعلم هل يرتضيه أربع أو
لا ؟ . كما أنه ليس من المستبعد أن يكون هؤلاء الفرنسيون مدسوسين
دافعا من قبل أعداء الزبير من الانجليز وغيرهم لاختيار مدى حياد
الزبير من جهة ما يدور فى السودان ، وخاصة بعد عودته من
الأسر ، أو العمل على إيقاعه فى شرك الموافقة تحت تأثير الأموال
لكى يمكن إتخاذ موافقته هذه ذريعة تثبت عليه امكانية معاودته
الاتصال بقواده القدامى للتدخل فيما يحدث فى السودان بسأى
صورة من الصور ، وفى هذه الحالة يتيح لأعدائه الفرصة لأن
يفعلوا به ما يشاءون ، ولكنه كان الرجل الذى لا يابى أمام اغراء
المادة ، فأوصد بذلك الأبواب جميعها أمام من أرادوا له المكيدة
وأبت عليه وطنيته وشرقه العسكري خيانة زميل كفاح قديم .

السماع للزبير بالسفر الى السودان :

لم تملك السلطات الانجليزية والمصرية فى القاهرة بعد مضي
ثلاثة عشر عاما على عودة الزبير الى مصر من منفاه بجبل طارق ،
واجتيازه فترة الاختبار هذه بنجاح تام ، وتأكد أولى الأسر من
حياده وانصرافه كلية عن الاهتمام بالشئون السياسية والعسكرية ،
وما آلت اليه أحداث السودان من تطورات سريعة الا أن تعمل على
توفير جو من الثقة والأمان لهذا الرجل ، وترد اليه ثقته فيه ، ومن

ثم أعاد إليه كرومر في سنة ١٩٠٠م ماصودر من أملاكه في عهد
جورجون (١٣) .

كانت هذه الخطوة التي اتخذتها الحكومة في سبيل تصفية
جو الخلاف وعدم الثقة الذي كان قائما بينه وبينها ذات أثر طيب
في نفسية الزبير وتبع هذه الخطوة من جانب الحكومة خطوات
أخرى بعد سنوات قليلة تأكيداً لاعادة ثقتها فيه ، وهي السماح
له بالسفر إلى السودان ، وكان ذلك في أواخر سنة ١٩٠٣م ، وكان
الزبير في هذه الأونة قد بلغ من الكبر مبلغاً ، فقد قارب عمره في
هذه السنة على الثانية والسبعين ، وأصبح الطريق ما بينه وبين
النهاية المرتقبة قريباً جداً ، وقد طالت به أيام الفراق والبعد عن
الأهل والوطن ، وأخذ حنينه وشوقه يزداد بعد غياب للعودة إلى
بلاده لكي تكتمل هيبته برؤية الأرض التي ولد فيها والربوع التي
عاش عليها ، وقضى فيها معظم مراحل حياته تاجراً وقائداً وفاتحاً
مخفراً ينتقل من نصر إلى نصر ، ولم يكن قرار الحكومة الخاص
بالإسماع للزبير بالسفر إلى السودان قراراً عشوائياً أو ينطوي على
نوع من الشفقة أو العطف عليه ، بل جاء نتيجة الأسباب التي أشرنا
إليها بالاضافة إلى استقرار الأوضاع في السودان السياسية
والعسكرية ، بعد أن تم استرداده والقضاء المبرم على النفوذ القملي
للمهديين واستئصال شأفتهم وذلك بمقتل خليفتهم عبد الله التعايشي
في موقعة أم درمان .

وصل الزبير إلى الخرطوم في أواخر سنة ١٩٠٣م وأمضى
فيها عامين زار فيها أهله وعشيرته ، ودبر أمر أملاكه التي ودت
إليه وإدارة شئونها ، وأبتنى له دارين في أم درمان (الجسائي)
وقضى بين أهله هناك فترة استعاد فيها الكثير من ذكريات الأعوام
الماضية (١٤) .

وقد بانر أحمد أفندي سيف الناصر لدى وصول الزبير رحمة
إلى الخرطوم باستضافته في منزله الخاص في أم درمان ، فصر
الزبير باشا سورا عظيما لهذا الأكرام ، وكان حمدي أفندي وقتذاك
مأمورا لمدينة أم درمان وله النفوذ والسلطان ، وكان أهل السودان
في ذلك الحين أشبه ما يكونون بالريض الذي نجا من الخطر وبدأ
يستقر عاقبته رويدا رويدا ، وذلك بعد ما نزل بهم من محن على يد
حكومة عبد الله التعايشي خليفة المهدي ، فقدم حمدي أفندي الممكن
والاستحيل من الخدمات لحفظ مكانة الزبير باشا في أهين قومه
مما حبه إلى قلوب السودانيين وجعل الألسنة تلهج بالشكر والثناء
عليه حتى أن الزبير باشا نفسه خاطبه ذات مرة بزجل سوداني أخذ
القوم هناك يرددونه في مناسبات شتى (١٥) .

وقد حدث في أثناء وجوده بالسودان في يناير سنة ١٩٠٥م
أن بلغه خبر زيارة صديقه الشيخ محمد عبده لربوع السودان ، فتاقت
نفسه لرؤيته والتشرف بدعوته لزيارته في مزارعه بالسقاي ، وهي
تقع شمالي الخرطوم وتبعد عن الجابلي بمقدار عشرة كيلو مترات
وكان قد ابتنى له فيها قصرا من طابقين ، غير أنه كان يعاني في
هذه الأيام من ومكة الزحمة الفرائض فرأى أن يوجه إلى الشيخ محمد
عبده كتابا يدعوه فيه لزيارته فكتب إليه يقول :

من الزبير رحمة باشا العباسي بالسقاي ، إلى رئيس العلماء
الكرام وزين الأكرمين الفخام ، عزيز الأهل ، وشويف الحسب
والنسب ، جناب حضرة محمد عبده مفتي الديار المصرية والأقاليم
السودانية ، دام معززا مكرما أمين . بعد تقديم السلام المشتغل على
الأيادي والاقدام ، بغاية كل أدب وخضوع وزيادة احترام ، مع سؤال
القلبي عن صحتكم وعما أنتم فيه وعليه من الأمور الخيرية ، التي
نرجو دوامها عليكم بكرة وعشوية ، أنه على ما يشاء تقدير ،

وبالاجابة جدير ، ثم احيط شريف علمكم وهو انه قد بلغ مسامعي حلول اقدامكم الشريفة بعاصمة بلادى السودانية بالخرطوم ولما بينى وبينكم من المحبة والمودة الخائصة والمخلصنة ، فلا شك ولا ريب أن تكون الآن ائتت ضيفا لى خاصة دون اشراف السودان كلها ، وقد كنت قبل قيامكم من مصر قرجا مصرورا بقدمكم وتشريف بلادى بها مستعدا لتشريفى بمقابلة ذاتكم مع اول كسرام الناس المستعدين لمقابلتكم . ولكن ياأسفا وياأسفا قد منعتى ما منع قبل ابرهة الحبشى عن البيت الحرام عن مشاهدتكم وتشريفى بمقابلتكم بسبب ما حدث لى من اللطف الشديد ، ولغاية تاريخه ملازم الفراش ، انتظر العفو من الله عز وجل ، وأرجو من كرمكم المفسسهور قبول ما تضمنته هذه الرقعة بالنيابة عن شخصى مع أسفى وعدم موادى ، كما أن الأمور كلها تجرى بحسب مقادير الله تعالى ، وليست تجرى على حسب خواطر العباد .

وامنيكم وشم أهنيكم وأهني اشراف بلادى كلها من علمائها الكرام وأشراف قبائلها بقدم اقدامكم السعيدة ووصولها بعاصمتها بالخرطوم ، وأهني نفسى غاية ونهاية ملحوقا بهمسم ، إعادكم الله تعالى الى مصر سالمين غانمين ، معززين مكرمين ، قرحين مصرورين ، من علمائنا جميعا ، وأهالينا آمين .

وفى الختام أقبلوا فائق الاحترام .

٢٦ يناير سنة ١٩٠٥م

أزير رحمة بأشما العباسى بالسقاي

كاتبه

وقد اعتذر الامام عن عدم الزيارة اعتذارا رقيقا لضيق وقته . وقد زاره بعد ذلك فى حلوان بعد عودته الى مصر فتذاكر معه فى شئون السودان (١٦) .

لم تستمر زيارة الزبير للسودان سوى عامين حتى عاد الى مصر حيث اقام في حلوان التي بنى له فيها قصراً وكان يقيم قبل ذلك في قصر احمد حشمت (١٧) .

وقد اقام الزبير في قصره بحلوان خلوة لتعليم الصنفار القراءة والكتابة والدين ، وقد اختار لهذه الخلوة الشيخ سيدي وكان هذا الشيخ يدعو الزبير باخا عند قراءة فاتحة الكتاب ، وكان من ضمن التلاميذ ابنه سعد الدين الزبير وقد حفظ القرآن على يده . ومما يذكر عن الزبير في اخريات حياته انه كان يجلس عقب صلاة الجمعة بين أهله في مكان ما في حديقة منزله الواسعة ، ثم يأمر بوضع حطب على بعد مناسب ، ثم يتبارى الابناء في محاولة اصالة هذا الهدف ومن ينجح في اصابته ينال جائزة مالية من الزبير (١٨) .

الشعر في حياة الزبير :

وحديثنا في هذه النقطة ينقسم الى قسمين :

أولاً : كيف استطاع الزبير أن ينشئ شعراً ؟ وما هو هذا الشعر ؟ .

ثانياً : ما قاله الشعراء من شعر في مدح الزبير واشادة به وببطولاته في حياته وبعد مماته .

أولاً : ما أنشده الزبير من شعر في حياته :

ولابد لنا أن نقف قليلاً لنرى كيف ان الزبير الشاعر المعروف والقائد المظفر قد دخل في حياته الشعر ، برغم ما حفلت به من المشاغل والأحداث الجسام المتتالية التي لم تعطه الفرصة المناسبة لكي ينشئ شعراً بالمفهوم الأدبي المعروف لدى الشعراء ، كما أنه لم يكن لديه موهبة قرض الشعر ، علاوة على أنه لم يدرس أصول

قرض الشعر • ولكن الشيء الذي يمكن أن نعزو إليه قيام الزير بإنشاء الشعر هو أن البيئة التي ولد فيها قد ساعدته إلى حد كبير على ذلك ، يضاف إلى ذلك المواقف العصيبة التي تعرض لها وأوقعته فريسة للكثير من الضغوط النفسية فكان يلجأ إلى قرض الشعر تفريحا عن نفسه الحزينة •

ونصل إلى القول بأن ما أنشاه الزير يشبه الشعر إلى حد بعيد ولكن في صورة أوجال انتظمت في عدد قليل من القصائد القصيرة التي لا تحكمها قواعد لغوية معينة ، وقد قالها وهو في ظروف نفسية صعبة اضطرته لإنشائها لكي يفرج بها عن نفسه ويسلي بها وحدته ، فحين كان أسيرا بجبل طارق كان كثيرا ما يختل بنفسه ، وتهيج أعماقه بنوازع الغربة ، ويشد حنينه إلى دياره وأهله وما كان فيه من عز وسود ، فكان ينشئ القصائد التي يبتها همه وما يجيش به صدره على الطريقة التي يفشي بها بها الشعراء السودانيون قصائدهم ومن هذه القصائد قصيدته التي أنشأها وهو في جبل طارق يقول فيها :

بعسد الأهل والنفسه	وبعد العسر والحزنه
بعد انتظام الصاكر المؤسسه	وبعد فرسان نفسي القصه
القلب الدهر والعكس	يحس الزير في الاتدسه
يارب ياخالق الكون يا مؤسسه	عجل بالخرج قبل النفسه
ترجع وتشوف عزا مؤسسا	من فضلك يا كريم لاينقصا (١٩)

وما قاله أيضا وهو في جبل طارق تلك الأبيات :

يا ليل ماني هين ولاني هوين في الكفر والاسلام اسمي بين
وفي قومي هناك بيتي بين للمسافر والمقيم قدحي ليسن
وتجاري والعشير جاني لين للاقارب والأرحام بعطي بهين
توفيقا من المولى الكريم المهين وكل شئ منه والأمر بين (٢٠)

وقد سألته حمدي أفندي سيف النصر ذات مرة عما كان ينتابه
من هموم وهو أسير في جيل طارق فأجابه « كنت أدوي » أي أهني
بغناء السودان وأخاطب أعضاء جسمي لأن الحساس لا يفهمون
لغتي ، وأنا أجهل لغتهم أيضا فكنت أقول :

كم يا للساق اخلفناك فوق بشاريه
وكم اليد جلدتسا بسك جنى الوحشية

وكم يا الفم انعمناك مرارة وشبيه
سستين تصوم اصل العصر عارضة (٢١)

وكما كان الزبير ينشئ شعرا لنفسه كان أيضا يردد بعض
الآبيات التي كان يحفظها ويرتاح بترديدها في منقاه بجبل
طارق منها :

سلوا أم عمر كيف بسات امسيرها
تفك الأسسرى نونه وهو موثق

فما هو مقتول ففي القتل راحة
ولا هو ممنون عليه فيطلق (٢٢)

لقد امتدح الزبير حمدي أفندي سيف النصر ذات مرة نظير
الخدمات التي قدمها للزبير حين عودته للسودان ، واستضافته له
في منزله ، هذه الأبيات :

أنت يا حمدي رفيقي ولما كفي
 ودرجة عصاي وبلاي وسيفي
 معمرة قللي مونة خريقي وصيفي
 ستر عيوي عن نساي وجاري وصيفي

وقد أخذ القوم يرددون هذه الأبيات في شتى المناسبات (٢٣) .
 ثالثا : ما قاله الشعراء في مدح الزبير والأشادة به وببطولاته
 في حياته وبعد مماته .

ويتلخص حديثنا في هذه النقطة في أن كثير من الشعراء
 المصريين والسودانيين قد امتدحوا الزبير رحمة مشيدين ببطولاته
 وأمهاده وشجاعته وشخصيته المبهوبة في حياته وبعد مماته . وكان
 على رأس هؤلاء الشعراء شاعر النيل العظيم حافظ إبراهيم ، وكذلك
 شاعر السودان المشهور أبو شوره وهو في نفس الوقت شاعر بلاط
 الزبير الخاص ، وكذلك الشاعرة السودانية المشهورة بذات حديد ،
 وفي الأسطر القادمة سوف نرى ما قاله هؤلاء في مدح الزبير .

ويرى لنا صاحب كتاب الفروسية في الشعر الشعبي
 السوداني أن شاعر الجهنيين أبو شوره كان على الأخص شاعر
 البلاط للزبير ، ويصف أبو شوره قتال الزبير وقواده ضد حدة
 البلالى سنة ١٨٦٩م بقوله :

ذقتك ذقن الرجال	صامتا الدقينة أم طوطية
في اليوم أيا حرب	سلك ثغر ميسوملية
بوارق عتقيرة وحامد	البسبي وثامك مفروطية
سكيت البسلاسي	لمن وقع في البوطية

وتصف الشاعر بنت مسيس فروسية الزبير فتقول :
سموك الزبير فارسا تشد الحيل
وسموك الزبير فارسا لصد الخيل
وسموك الزبير صالحا تقيم الليل
وسموك الزبير بتغير هوية الليل

قاسم

والعاصي باقى لكبير

قاسم

والعاصي باقى لكبير

وهناك قصة تذكرها عن الزبير وهو أنه قد بلغه أن الخارجين على النظام من عرب الرزيقات قد قتلوا أخا لهم وبعض التجار السالكين بطريق القوافل ما بين بحر الغزال وشكا . وكانت رؤياه منامية وقد عرف بصنقها ، فأصبح الزبير متجهم الوجه لا يستطيع أحد أن ينظر إليه أو يفتح له امر . فأمر الزبير بسرجه فرسه فعلم الجميع أن هناك غزوة جديدة ، ولخشيتهم من سؤال الزبير عن الجهة المتوجهين إليها ، اتفقوا جميعا على قواد الزبير على أن يجعلوا للشاعر أبى شورة نصيبا من المال والميراث أن هو تمكن بلباقته التى عهدوها فيه والذكاء الحاد من معرفة الجهة التى ينوى الزبير غزوها ، وقطعوا على أنفسهم عهدا بذلك أى بدفع ما اتفقوا عليه لأبى شوره ، فهيا الشاعر نفسه لذلك الموقف وبعد اسسراج الشبول ، وامتنطى كل واحد صهوة جواده ، أسرع الشاعر أبى شوره إلى فرس الزبير ، وامسك بعنانه ، فما وضع الزبير قدميه على للركاب حتى أنشد الشاعر أبى شوره ووجهه فى اتجاه مغاير عن الزبير قائلا :

أمر متى الملك بخلع
تعزل في القلوب بهم تلح
الرجل تزرع وانت بتلح
غاطس يا أدر أتمش مقلح

فرد الزبير بحزم قائلاً « شايك قنلا » وهي اسم بلد ، فاسترسل
في شورة بعد ما عرف المكان الذي سوف يتوجهون إليه للغزو .

ويذكر المؤلف أن غزوات الزبير تذكره بذلك الفارس الشاعر
العربي سريد بن الصمة الذي قيل عنه أنه غزا حائنة غزوة في بلاد
العرب ، كما خلد أبو الطيب المتنبي سيف الدولة بن حمدان وغزواته
لاستتاب ملكه في بلاد العرب والروم . وعلى كل فليست هنالك
فروسية دون أن يكون لها قرسان مخاضون يتمايزون في صفاتهم
والقتاحم لمواطن الأقدام ، لكي تعرف دروب الفروسية ومقاييسها
بينهم ، ولولا الحياة النائية ولقاء الموت في الميادين لربما اختلت
الفروسية وتلك الفضائل والسمات يصورها الشاعر أبو الطيب
المتنبي فيقول : -

ولا فضيل فيها للشجاعة والفدى
وصبر الفلاني لولا لقاء شعوب

ويقول الكاتب أن الأبطال لم يعدموا هذا التمييز لتاريخهم
ومآثرهم الحية ، لذا كان جريا أن يتغنى الشعب السوداني ببطولة
الزبير ود رحمة ، وأن تقال مواقفه وأعماله ورسالته التي أداها
كثيرا من تعجيد البطولة والكرم والنبل ، ولولا لفقد السودان
مساحات ومديريات شاسعة أضيفت رقعتها إلى الجمهورية

السودانية ، ولولا بعض العقبات لكانت هناك أقطار أخرى ضمن نطاق السودان (٢٤) .

وعندما اقتصر الزبير باشا على عرب الرزيقات أخذ أنصاره ينشدون له أنشودتهم المشهورة وهي :

« حد باي فرط بوارقه حاقتل عربيا رابطة المدرج جاي نخاص
زمانه ياناس حد باي » ومعنى هذه العبارة أن الزبير باشا الشجاع
جاء بخيله ورجاله واقتص من الأهراب قطاع الطرق وحد باي .
لقب من القاب الفرسان عندهم (٢٥) .

وقد مدحته الشاعرة المشهورة بنت مسيس مرة أخرى بقصيدة
تخلتها له بعد نزوله الى مصر عنها قولها :

ففى الخرطوم نزل أداسى بالبايجور
وفى بربر رسا بالقهوة غره بسور
جايوا له الجمال الوجه العتمور
خلق الريف نزل قال فصر دستور
فى بلد النصارى كم سحت بالبايجور
كل صبيح جديد راكب على الحلتور
من قصت الجهل انت المتقديم ماصور
أدوك الأمان خديفين عليك الجور
فى السودان قبيل ما يشبهوك الناس
ويا جبل الذهب الصافى الشاك نحاس
بارود النصارى عن قمرة المكباس
خليست الخيوس الين من القرماس

عدى عصره زين في ديار بلاد الناس
وفي دار الغروب دقيقت للرجال اساس

كم قتل السلاطين خلى الديار عباس
ود رحمة الزبير قام الرجال خلاص (٢٦)

وهذا الشعر الذي أنشدته الشاعرة بنت مسيس غريب في
الفاظه غامض المعنى وليس من السهل فهم معانيه بسهولة لأنه
يميل إلى العامية أكثر من ميله إلى اللغة الفصحى ، وكانت هذه
عادة شعراء السودان أن ينشئوا شعرهم بالعامية ليسهل ترديده
بين العامة .

وأخيرا فقد رثاء شاعر النيل للعظيم حافظ إبراهيم عندما
بلغه نيا وفاته ، وكان عندئذ في طريقه إلى السودان ليستشفى من
مرض أصابه فتصرفت حينئذ أشجانه وهو يهل على السودان بعد أن
غاب عنه أسده ، واقفرت رياه من صورته فكتب يقول :

يا روضة النيلين جئت مساما
قلبك من لادن الآله سلام

لي في ربوعك من رجالك معشر
شسم ، إذا جاز الزمان كسرام

أين الزبير ؟ أبو الفوارس والندى
تند غيبته عن حمالك رجسام

قد كان فذرا للبلاد وثكبره
بسباق بهما ماكرت الأعوام

كفاه سودناه كفسة حاتم
جودا ، وكفة عنتر وحسبهم

ولسى لهاودع كسل قلب حشرة
ويكى عليه العرب والأعجام
فحبسا رب الكائنات نعيمه
وسقى نساء من السماء غمام (٢٧)

وهكذا حققت حياة الزبير بالشعر الذى مدحه به الكثير من شعراء مصر والسودان كذلك ما قاله وأنشأه من شعر كان يردده دائما عندما يضيق صدره أثناء فترة أسره بجبل طارق وهى الفترة التى شهدت كثرة ترديده لهذا الشعر .

رحلة الزبير الأخيرة الى السودان :

بعد طول اقامة الزبير فى مصر امتدت لسنوات عديدة بدأت منذ وصوله اليها فى العاشر من يونيو سنة ١٨٧٥م حتى تاريخ رحلته الأخيرة الى السودان فى العاشر من أغسطس سنة ١٩١٢م . لم يبتعد فيها الزبير عن مصر إلا مرات معدودة ، بدأت بسفره فى الرابع عشر من أغسطس سنة ١٨٧٧م ضمن الحملة التى أرسلتها مصر لمساعدة الدولة العثمانية فى حربها ضد روسيا ، ثم عودته منها فى السنة التالية ، والمرة الثانية التى ترك فيها مصر عند نفيه الى جبل طارق فى يوليو سنة ١٨٨٥م ، ثم عودته من المنفى فى أغسطس سنة ١٨٨٧م . والمرة الثالثة هى زيارته الأولى للسودان فى أواخر سنة ١٩٠٣م . وعودته منها فى أوائل سنة ١٩٠٥م . ويجسبة بسيطة نجد ان الفترة التى قضها خارج مصر فى أسفاره هذه لم تزيد على خمس سنوات بينما امتدت إقامته فى مصر الى السبعة والثلاثين عاما ، وبذلك يمكن القول بأن مصر أصبحت بالنسبة للزبير بمثابة الوطن الثانى ، ولكننا لا نستطيع أن نقول أنه قد أصبح مواطنا مصرية ، لانه بالرغم من طول مدة إقامته فى مصر ،

وبالرغم من أسفاره الكثيرة خارجها والأحداث والظروف التي مر بها،
والشخصيات التي احتك بها وعرفها ، وبالرغم من المظاهر الحضارية
التي لمسها في مصر وخارجها ، فإن كل ذلك لم يجعله يفرط في
التمسك بعسودانيته ، وكل ما يتصل بها من عادات وتقاليد انمكست
صورتها في شخصيته وسلوكه اللذين حببا اليه الكثيرين ممن عرفوه
واتصلوا به ، وإن كان قد تأثر بنواح أخرى تعتبر أساسا من
التواحي المظهرية التي لا تمس الجوهر في شيء وهو جانب الزى
فكان كثيرا ما يرتدى البدلة والطربوش وهما على غير لبس أهل
السودان . إلا أنه رغم ذلك عاد إلى وطنه السودان وهو متمسك
بكل ما هو سوداني فحق لوادي النيل أن يفخر به ويضعه بين
عظمائه .

تاقت نفس الزبير للمودة إلى الوطن بعد ما مرم جسمه ،
واعثلت صحته ، وبلغ من الكبر مبلغا ، وأصبح الطريق بينه وبين
لقاء ربه قريبا ، فرأى أن يقضى ما بقي له من عمره بين أهله
وذويه ، وكان قد تمس على الله يوما أنه إذا ما أدركته المنية أن يوارى
جسمانه في تربة وطنه لتحتضن ذلك القلب الذي شرب من ماء
النيل ، فكان لا يكف لحظة واحدة عن أن يخفق من أجله . فما
أقبلت أمسية العاشر من أغسطس سنة ١٩١٢م حتى كانت محطة
القاهرة للسكة الحديدية قد بدأت تموج بمشود المودعين من كبار
رجال الدولة والجاليات الأجنبية ، وقد أحاطت بقطار خاص أعدته
الحكومة ليقل الزبير رحمة وألثامانة من رجاله المخلصين ، وهي
الحاشية التي عاشت في كنفه راضية سعيدة ، إلى السودان . بينما
كان في الجانب الآخر عربة صغيرة تخرق شوارع القاهرة تحمل
ابنه سعد الدين من المدرسة الحربية متجهة إلى المحطة لكي يشارك
في وداع أبيه ولكي يتزود منه بالحنان الذي يفمر به الوالد ابنه ،
وكذلك لكي يتزود بالنصح والارشاد اللذين لابن صغير ، فمرقه

والده من ملابس الرسمية ونادى عليه ثم عانقه ، وفى هذه اللحظة انهمرت دموع الفراق على وجنتى الأب والابن ، ولم يستطع كل منهما أن يمنع نفسه بما تفيض بها كانت تكتمه من شجن ، فكان منظرا مؤثرا حقا ، ولكن سرعان ما استعاد الزبير رباطة جأشه وأخذ يوحى ابنه بالنصائح اللازمة وبالسمة الحسنة والمسلك الطيب والجد والثابرة ، ثم حاول أن يطمئنه فمضى يحدثه بأنه قد أوحى المسئولين فى القاهرة بأن يكون الحاقه بعد تخرجه هو انتهاء دراسته بالقوة المصرية بالسودان حتى يكون الى جواره ، ولكنسه كان اللقاء الأخير بين الأب وابنه ثم تحرك القطار والزبير يدعو لابنه بقوله « هداك الله وأبلغك هناك » وسافر الزبير الى السودان وتترك مصر فكانت رحلة بلا عودة (٢٨) .

ولادة الزبير باشا وهو بالسودان :

توفي الزبير فى صباح السادس من يناير سنة ١٩١٢م بعد حياة امتدت الى اثنين وثمانين عاما ، التقى فيها بالنوت فى ساحات القتال وميادينه أكثر من مائة وخمسين مرة ، فكان يلقاه فى كل مرة أسدا مصورا يصول ويجول ويزوغ منه دائما وينتصر عليه ، وقد بلغ نيدا وفاته الى ابنه سعد الدين فى مصر حيث استدعاه قائد المدرسة الحربية وأنهى إليه نبا وفاة والده . وعرض عليه باسم الحكومة المصرية إعانة مالية ، مع رغبته فى أن يكون سفره للسودان فى الحال هو ومن يرغب من أفراد أسرته على نفقتها .
وفعلا سافر الابن سعد الدين الى السودان بينما كانت الأمور تجري على نحو آخر فيها فقد نكست أعلام الأمة بأكملها حدادا على وفاة الزبير ، وعطلت المصالح والمتاجر ليشارك الجميع فى مراسم ذلك الاحتفال العسكرى المهيبة الذى أعنته الحكومة لتشجيع به جثمان الفقيه الراحل الى حفره الأخير فى النجيلة . ومضى الفتح على

عربية مدفع تحف بها الأورطة الثالثة عشرة السودانية بموسيقاها ،
ومن خلفه حصى كبار رجال الحكم في السودان وأعيانه ، وكيسار
أفراد الجاليات الأجنبية هناك ، الذين حضروا في قطار خاص قام
بهم من الخرطوم إلى الجايلي للاشتراك في تشييع الجنازة . وكان
على الجانبين يقف الأهليون ومعهم الرجال الذين ذاقوا حساوة
الغصير في ميدان القتال تمت أعلام القائد الراحل ، وقفوا يتطلعون
إلى الشهيد الباكي الحزين ، وفي عيونهم دموع الحزن وفي قلوبهم
حزن أعظم .

وقد بلغ ابنه سعد الدين الزبير السودان بعد أن تم كل شيء
معلق بمراسم الجنازة وانتظر يتقبل مع الأسرة ما قاضت به قلوب
الجميع من عزاء ومواساة ، ولم يكن والده في هذه الللمظة هو الذي
مات بل كان الذي مات هو رجل مصرر والسودان قبل كل شيء
وفي يوم الاثنين الموافق ٦ يناير سنة ١٩١٣ م كتبت جريدة الاهرام
بمعدنها (٢٩) ١٥٩٣ تحت عنوان الزبير باشا تنعى رجل السودان
للشرق والغرب كله وتقول « وصل إلينا والاهرام تطيع نبأ وفاته
المرحوم الزبير باشا رحمة السودان المشهور ، وقد توفي رحمه الله
في أم درمان بين أهله وذويه ولا عتسع اليوم لبسط شيء من تاريخه
وشهرته في مصر والسودان يكاد يفنى عن تعريفه تفمده الله بطيب
رحمته ورضوانه والهم أهله وذويه الصبر الجميل » . وهكذا ترفى
الزبير باشا والأمة السودانية كلها حزينة على فراقه كذلك كل من
في مصر بل في العالم العربي بأجمعه . وذلك لأنه فقد بطلا من
أبطاله الذين صنعوا للسودان تاريخا حافلا بالانتصارات ، ولا يفوتنا
أن نذكر في نهاية الحديث عن الزبير رحمة أن السيف الأثري ذا
المقبض المرصع الذي كتبت عليه عبارة الحروب الصليبية ، والذي
كان قد أهداه الخديو إليه عقب عودته من منفاه بجبل طارق ، يرفد

الآن في المتحف البريطاني بلندن وهو أمر لا ينبغي السكوت عليه
بل يجب المطالبة به من جانب الحكومة السودانية .

هكذا كانت نهاية الزبير باشا التاجر التاجيح ، والفسائح
المنصر ، والقائد المظفر بعد حياة امتدت الى اثنين وثمانين عاما
حفلت على طولها بالكثير مما لا يستطيع حصره من ألوان الكفاح
والنجاح في ميادين الحرب والمغامرة . لذلك فانه لايموزنا في هذا
المقام أن نعيد ذكر ما حفلت به حياة هذا الرجل العظيم من أمجاد
وانتصارات أو سرد ما تعلّى به من صفات طيبة ، فقد كفانا ما سبق
ذكره في صلب الرسالة نقلا عن معاصريه من المؤرخين ورجال
السياسة والحكم وكبار العسكريين ، الذين كان منهم أصدقائه
وأعداؤه ، لايسعنا الا أن نختم حديثنا عن الزبير باشا بالقول بأنه
كان شخصية لها من القوة والعظمة ما جعلنا نضعها في مصاف
عظماء وأعلام التاريخ ، وقد كانت حقا جديرة بالدراسة والبحث
ويذل المزيد من الجهد في سبيل الوصول الى حقيقة ما حفلت به
حياته وما أكتنفها من غموض . رحم الله الزبير باشا وهو يكافح في
سبيل وطنه ودينه .

قوامش الفصل الخامس

- (١) سعد الدين الزبير الزبير باشا رجل السودان ص ٢٠٧ .
(٢) Jackson, H.C. : Behind The Modern Sudan P 100.
(٣) Moorhead, Alan : The White Nile P. 182.
(٤) سعد الدين الزبير . المرجع السابق ص ٢١٦ .
(٥) نعوم شقير . تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ج ٢ ص ٨٧ .
(٦) سعد الدين الزبير . المرجع السابق ص ٢١٦ - ٢١٧ ، ٢٢٨ - ٢٢٩ .
(٧) قصر الجيزة وهو خاص بالخديو اسماعيل ولد به الامير احمد فؤاد وكان يكون جزءا من حديقة الحيوان ، وقد تزل به الزبير بعد قصر العباسية الذي كان يقع بجوار طريق المسكة الحديد امام جامعة عين شمس وكان يزوره بقصر الجيزة الامير حسن باشا الابن الثالث للخديو اسماعيل .
(٨) عبد الرحمن زكى : اعلام الجيش والبحرية في عصر اثناء القرن التاسع عشر ج ١ ص ٩٥ .
(٩) سعد الدين الزبير . المرجع السابق ص ١٤٩ ، ٢٠٩ - ٢١٠ .
(١٠) Jackson, H.C. : Op. Cit., PP. 106 - 108.
(١١) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ١٤٥ - ١٤٦ .
(١٢) Collins, O. Robert : The Southern Sudan 1888 - 1888 P. 129.
(١٣) سعد الدين الزبير . المرجع السابق ص ١٤٦ .

- (١٤) سعد الدين الزبير : نفس المرجع ص ١٤٦ .
- (١٥) محمد أحمد الجبري : في شأن الله أو تاريخ السودان كما يرويها أهله ص ١١٧ - ١١٨ .
- (١٦) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ١٤٦ - ١٤٩ .
- (١٧) قصر أحمد حديث : وهو مدرسة محمد علي الابتدائية الملاصقة حالياً لقسم السهدة زينب وهو أول شارع طور سيناء بحي السيدة ، وأمام هذا القصر كان يقيم خدمه وحشمه من العبيد أمام حارة درب الشمس ، وقد حدث بالقصر حريق أتى على جميع ما به من اللطائف والوثائق والتحف فدمرها .
- (١٨) من حديث مع أيقه الأستاذ محمد جميل الزبير رحمه الذي يقطن حالياً بمنطقة أمبابة على النيل في أحد العوامات أمام مبنى وزارة الثقافة . وهو من أصغر أبنائه ويبلغ من العمر السبعين عاماً وله ولدان ، وقد اعتاد التردد على السودان سنوياً لمباشرة أعماله ومصلحته هناك وقد استطعت مقابلته أكثر من مرة للحصول على ما يمكن الحصول عليه من معلومات أو وثائق وأخيراً أرفقني إلى بعض النواحي المهمة في حياة والده والتي ساهمت في هذه الرسالة .
- (١٩) سعد الدين الزبير . نفس المرجع ص ١٤٤
- (٢٠) نعوم شقير : المرجع السابق ج ٣ ص ٨٦ - ٨٧ .
- (٢١) محمد أحمد الجبري . المرجع السابق ص ١١٨ .
- (٢٢) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ١٤٤ .
- (٢٣) محمد أحمد الجبري : المرجع السابق ص ١١٧ .
- (٢٤) سليمان خالد عبد الحمود : الفروسية في الشعر الشعبي السوداني ص ٣٦ - ٤٠ .
- (٢٥) محمود القباني السودان المصري الإنجليزي ص ٣١٦ .
- (٢٦) نعوم شقير . المرجع السابق ج ٣ ص ٨٨ .
- (٢٧) سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٢١٤ - ٢١٣ .
- (٢٨) سعد الدين الزبير . نفس المرجع ص ٣٠٨ - ٢١١ - ٢١٢ .
- (٢٩) سعد الدين الزبير : نفس المرجع ص ٢١٤ - ٢١٥ ، ٢١٨ .



الخاتمة

ونتايج البحث

الخاتمة

وتلخيص البحث

بعد أن استعرضنا في سطور الفصول الخمسة السابقة للرسالة الأصول الأولى لأسرة الزبير باشا رحمة عند هجرتها من العراق فرارا من بطش الغول إلى بلاد الشام ثم انتقالها إلى مصر ، وما واجهته خلال هذه المراحل من مصاعب اتسعت بالقسوة والمرارة وخاصة في مصر عندما لم تجد ما كانت تعد عليه الأهل ، فكان من نتيجتها وفاة الجد الأكبر الشيخ جموع بن غانم ، وورث الابن حيدى جميع تركة أبيه المثقلة بالاموال ، الذى لم ينظر متربيا تطور الأحداث يل عول على أن ينحدر مع أهله وحشيرته ومن اثر الانضمام إليه مع النيل نحو الجنوب والاستقرار على جانبى النيل الأبيض .

وقد تلا ذلك استعراض مفصل لحياة الزبير باشا منذ مولده بجزيرة وأسى الهادئة الخضراء فى السابع عشر من محرم سنة ١٢٤٦هـ الموافق الثامن من يولييه سنة ١٨٣١م ، ثم نشأته وتعلمه واشتغاله بالتجارة ، ثم سفره مع ابن عمه إلى الجنوب ، والتحاقه بقافلة أبى عمرو ، ثم استقلاله بنفسه - وما أعقب ذلك من قيامه بسلسلة رحلاته إلى بلاد قولو سنة ١٨٥٨م ، وبلاد النيام نيام فى سنة ١٨٥٩م ، ١٨٦٣م ، وبلاد الملك كريم سنة ١٨٦٢م ، ثم بلاد الملك

دوية سنة ١٨٦٤م وأخيرا بلاد عدوه شكرو وأينه سيجا سنة ١٨٦٥م وحرويه مع الملك تكمه وعدوه شكرو ، ونجاحه في تكوين مملكة واسعة الاطراف مع جيش قوى في تلك المناطق لحماية ملكه وتجارته فكانت البداية لتاريخ حافل بالاحداث في حياته .

وقد امتد الحديث عن قصة صراع الزبير في منطقة بحر الغزال وشكا ودوره فيها الى مسألة اتهام الحكومة له بتهمة الاتجار في الرقيق ، والتخاذل ذريعة للقضاء على نفوذه وسلطانه بتلك المناطق بتوجيه حملة تحت قيادة شخص يدعى محمد البلالى ، الذى لم يكن مرغوبا فيه من قبل اهالى تلك المناطق أو الزبير نفسه لادعاءاته الكاذبة بملكية بعض الأرض في منطقة حفرة النحاس ، وخروجه عن الاهداف المحددة للحملة من قبل الحكومة ، والثى كان من نتيجتها وقوع الحرب بين الزبير وممثل الحكومة التى أفقعت بمصر محمد البلالى وتبرئة الزبير من تهمة عصيان الحكومة ، ثم قيامه بتقديم فروض الولاء والطاعة لها .

ولا يتوقف تاريخ الزبير عند مصرع البلالى بل يسوقنا للحديث عن مرحلة أخرى من مراحل صراعه وهو صراعه مع عرب الرزيقات ، بسبب نقضهم لاتفاقهم معه بخصوص طريق التجارة ثم اندلاع الحرب بين جيش الزبير وجيوش عرب الرزيقات ، ورغم حرج موقف الزبير في هذه الحرب بسبب استعمال الرزيقات للخييل فى قتالهم ، فانه استطاع هزيمتهم قرب شسواطىء بحر الغزال والاستيلاء على عاصمتهم ، ورغم رفض السلطان ابراهيم تقديم أى نوع من المساعدة له أثناء الحرب ، أو قيامه بتأديبهم ثم هرب مشايخهم منزل وعليان الى السلطان ، وقيامهم ببث بذور الفتنة والعداوة بينه وبين الزبير ، ثم قرار الحكومة الخديوية بتعيين الزبير حاكما على مديرية بحر الغزال وشكا بعد أن رأت فيه الرجل القوى التى يمكنها الاعتماد عليه فى تنفيذ مخططاتها .

وتتوالى الاحداث ويتطور الصراع بين السلطان ابراهيم والزبير بسبب الرزاقات وينتقل من ميدان النصيح والارشاد الى صورة الخطايات الى ميدان القتال ، وتراها الحكومة فرصة ثمينة لغزو سلطنة دارفور وادخالها ضمن ممتلكاتها ونفوذها في السودان ، فتأخذ جساب تأييد الزبير في هذا الصراع وتمد له يد العون والمساعدة ، بل انها ترى فيه الرجل الذي يمكن ان يحقق لها ما لم تستطع تحقيقه في مرحلة من مراحل التاريخ من اهداف ، فيصدر الخديو اوامره للحكمدار السودان بتشكيل حملة عسكرية للزحف على دارفور من جهة الشرق يتولى هو قيادتها ، بينما يترك للزبير مهمة الزحف عليها من جهة الجنوب ، ويسوق الزبير جيوشه يفجر الموقف ، فتثور ثورة السلطان لهذه التحركات العسكرية . فيحاول علاج الموقف عن طريق تقديم الهدايا والأموال لشريف مكة وحكومة الياپ العالي ليتوسطا لدى الخديو لموقف نزيف هذه الحرب ولكن سفراء يشعون أسرى في أيدي رجال الحكومة ، فيبدأ من مواجهة قدره بشجاعة ويعد للموقف عدته ، فيرسل الجيش تلو الآخر لجهة الجنوب لمقاومة الزبير وكسر شوكته فيلقاه الزبير في كل مرة بشجاعة لم يمهدها السلطان فينتصر عليه وينتهي الأمر بمصرع القائد أو انسحابه ، ويسجل التاريخ انتصارات الزبير على عدوه . يهزم السلطان وأيه على الخروج بنفسه لمقاومة هذا القائد الذي لا يعرف الهزيمة ، ولكن الاقدار كانت تكن له نفس مصير من سبقوه ، فيلقى الهزيمة الساحقة عند بلدة منواشي على يد جيش الزبير وتنتهي المعركة بمصرعه في الخامس والعشرين من أكتوبر سنة ١٨٧٤ م .

ويواصل جيش الزبير المظفر تقدمه نحو العاصمة الفاشسر فيدخلها في الثالث من نوفمبر سنة ١٨٧٤م منتصرا ، ويلحق به

جيش الحكمدار إلى الفاشر فدخلها في الحادي عشر من نوفمبر من نفس العام ، ولا وجه للمقارنة بين الدور الذي قام به جيش الزبير والدور الذي قامت به حملة الشرق بقيادة الحكمدار لأن الفرق بين الاثنين شاسع . وبذلك انطوت من التاريخ صفحة سلطنة دارفور وصارت من ممتلكات الحكومة الخديوية في السودان .

ولا يتوقف دور الزبير التاريخي في تشكيل أحداث دارفور . فيرى فيه الحكمدار اليد الطولى للبطولة بمن ثار من أقارب السلطان ضد الحكومة لينجح الزبير في هذا الاختبار ويسوق هؤلاء الثائرين أسرى . ويطمع الحكمدار في بسط سلطان الحكومة على القاليسم الجديدة فيعهد للزبير بحصة غزى يراقو وواهائى ، ولكن الخديو يأمره برفع يده فيفعل . والزبير في كل هذا هو دائما القائد المظهر المقتصر . القائب النظر والمنفذ لأوامر الحكومة الخديوية التى لم يتوان لحظة عن التفتالى في خدعتها .

يرى الخديو تهمة الحكمدار والزبير على هذا الانتصار مع الانعام عليه بالرتب والقياسين وترى الحكومة في وجود الزبير بعد أن أدى الدور المطلوب منه خطرا عليها ، فيحدث التشتت والاختلاف بينه وبين الحكمدار حول مكانه في إدارة الخديوية الجديدة . وأسلوب تنظيمها فيسافر إلى القاهرة بعرض حقيقة الحالة على الخديو . يرى الخديو أفضلية بقاءه في مصر فيمنن لذلك الزبير . ولكنه يكتف ذلك ويحاول أن يتلادم مع طبيعة الحياة الجديدة في القاهرة بعد أن تنكرت الحكومة له .

ويرى الزبير بشخصيته وشجاعته كقاتل عسكري يجيد وراعه النصر أينما ذهب عندما مهد له بقيادة الفرق المصرية المشتركة في الحرب الروسية التركية سنة ١٨٧٧م ، فيستقبله السلطان العثمانى

ويهنئته على شجاعته • ويقضى فترة نقاهة في العاصمة التركية من
عناء الحرب ويعود إلى القاهرة مرفوع الرأس •

ويحيط به الواشون ويتلقى اتهاماً ببيت الفتنة ضد الخديو
لدى السلطان العثماني ، وتحدث الأحداث برأيه من هذا الاتهام •
ولكن الأقدار أرادت له أن يتلقى نداء مصرع ابنه على يد رومولوجيسى
بايعان من جورديون والتتكيل بذويه وأهله ومصادرة أمواله ، بل
يطلب جورديون من الخديو محاكمة الزبير ومصادرة أمواله في مصر
عقاباً لما اقترفه ابنه ، ويجيب الخديو بأنه لا ينبغي أن يؤخذ الأب
بجناية الابن •

وفجأة تشب ثورة المهدي في السودان ، وتهب نارها في
كل مكان ، وتضع كل هيئة وسلطة للحكومة ، وتختصر نفوذها
تدريجياً عن مناطق كثيرة نتيجة ضغط جيوش المهدي وهزائم قواتها
المتكررة ، وتشعر الحكومة بحاجة إلى قوة تستعين بها لكبح
جماح المهدي وتباعده ففي البداية ترسل حملة يحشد لها إمكانيات
ضخمة ، وتعهد بقيادتها للجندال هيكل باشا فتلقى الهزيمة المذكرة
بكرديان ، ويحتاج الأمر لواقعة أخرى لوضع القنط فوق الحروف ،
فترى الحكومة في إنقاذ سواكن وتأمين الطريق ما بينها وبين بربر
والقضاء على عثمان دقنة ضرورة • فترسل حملة بقيادة سبير
صمويل بيكر ، وتعهد للزبير بقيادة الطرق السودانية المشتركة في
الحملة ، ولكنه عندما علم بأنه سوف يتلقى أوامره من بيكر رفض
الاشتراك فيها فكان مصيرها الهزيمة الكاسية •

ويستدعى الخديو صديقه جورديون لإنقاذ الموقف في السودان
وينفذ سياسة الاخلاء بعد أن أجبرت الحكومة الانجليزية الحكومة
المصرية على ذلك • ويأتى جورديون إلى القاهرة بعد أن تلقى

تعليماته من حكومته ، ويستقبله الخديو ويعتذر له عما بدر منه تجاهه ويزوده الخديو بالتعليمات والأوامر اللازمة بمهمته * ويطلب جوردون اصطحاب الزبير باشا الى السودان لكي يضمن نجاح مهمته ويتعجب السير ايفلين بارنج لهذا الطلب فيوافق في بداية الامر ويلتقى الرجلان مع عدد من ممثلي الحكومتين وتشتعل حدة المناقشة بين المجتسمين فالزبير لا ينسى ان جوردون هو الذي امر يقتل ابنه سليمان * ويخرج السير ايفلين بارنج بنتيجة مؤداها استحالة الجمع بين الرجلين في مكان واحد لأن في ذلك خطرا على حياة جوردون وفي نفس الوقت يصر جوردون على مطلبه بخصوص الزبير *

ويصافر جوردون مع مساعده ستيوارت الى السودان ، وهو في كل بلد يمر به يرسل البرقية تلو الأخرى لبارنج في القاهرة يعيد فيها اقتراحه بارسال الزبير لأنه الشخص الوحيد الذي يمكن ان يواجه بشخصيته وقوة نفوذه سطوة المهدي وسيطرته واسباب أخرى ، وتتبادل كل من القاهرة والخرطوم ولندن البرقيات حول هذا الاقتراح وهي تحصل في ظاهرها طابع المناقشة لهذا الاقتراح وفي مضمونها الرفض ويسوء الموقف في الخرطوم والحكومة الانجليزية مصرة على رفض الاقتراح ، وفي نفس الوقت ترفض حلولا أخرى يعرضها جوردون أو ستيوارت أو الحكومة المصرية * وينتهي الامر باجتياح المهديين للخرطوم ومصرع جوردون وستيوارت * وقيل ذلك تفريقا لندى من ثباتها وترسل حملة بقيادة واسلى لانقاذ جوردون ولكنه يصل بعد فوات الأوان وتفقد مصر السودان بأكمله وسط اعتراضات جرانفيل وجلادستون وبارنج وسياسة حكومة لندن الملتوية *

وتخشى حكومة لندن قيام اتصالات من أى نوع بين الزبير والمهديين في السودان ، فيلقى عليه القبض وهو في الاسكندرية

ويحصل أسيرا إلى جبل طارق • ويظل حبيسا في منفاه إلى أن تبدأ الأوضاع في السودان • وتستعيد القوات الانجليزية والمصرية السودان • فيسمح للزبير بالعودة إلى القاهرة بعد أن أسر ظلما في هذه الفترة •

ويعود الزبير باشا لممارسة حياته العادية في القاهرة وتحرف له الحكومة المصرية ولأهله معاشا تعريضا له عما فقدوه وعن خدماته السابقة ويلتقى في منزله كبار رجال الدولة من الحكام والعلماء والشعراء وتعقد مجالس العلم • ويشهد حين الزبير لرؤية بلاده • فيسمح له بالسفر إليها • فيطمئن على أهله ومصالحه هناك ويقفل عائدا إلى القاهرة ويحاول الفرنسيون الاتمسك بالزبير وهو في القاهرة لعقد اتفاق معه لإجبار رايح على التسليم أو وقف حربه ضد الفرنسيين نظير أموال يدفعونها له • ولكن الزبير رفض خيانة رفيق كفاح ديم وينتهي أمل الفرنسيين بالفشل •

ويعود الزبير إلى حياته العادية مرة أخرى • فيسافر إلى السودان مرة أخرى وكان بلغ من الكبر بلغا • وتودعه القاهرة كلها على محطة السكك الحديدية تكريما لشخصه الكريم وتعبرا عن تقدير الجماهير له • ولكنها كانت الرحلة الأخيرة التي لم يعد منها •

وفي صباح السادس من يناير سنة ١٩١٢م يطير إلى القاهرة نبا وفاة الزعيم السوداني الزبير باشا فيخرج لوداعه أعداؤه قبل أصدقائه ، وتودع الخرطوم بكل العالم العربي الزبير باشا إلى مشواه الأخير في الخرطوم • بعد حياة حافلة امتدت إلى أكثر من اثنين وثمانين عاما • التقى فيها بالموت في ساحات القتال وميادين أكثر من مائة وخمسين مرة ولكنه يموت في نهاية الأمر وهو على

فراشه . وهكذا انطوت صفحة مجيدة لأول شخصية سودانية غرست نفسها على الأحداث وصنعت لبلادها الكثير من الأمجاد التي لن تنسى أبدا بل سيذكرها الشعب السوداني وشقيقه شعب مصر على السواء .

وقد رثاه شاعر النيل حافظ إبراهيم كما نعاه الأهرام في عدده الصادر بتاريخ يوم الاثنين ٦ يناير سنة ١٩١٢ بكلمات رثاء عبرت عن اعتزاز الشعب المصري له .

وقد يتصور للبعض أن الحديث عن شخصية تاريخية مثل الزبير باشا أو غيره بإمكانية الاكتفاء بالرجوع إلى ما كتب عنها بين صفحات المراجع التاريخية العربية والأجنبية ولكن أصول البحث العلمي والتاريخي تذهب إلى ما هو أبعد من ذلك فيما يتصل بهذه الموضوعات وتفرض ضرورة الرجوع إلى ما هو أهم من ذلك وهي المصادر الأصلية المتصلة بموضوع البحث من وثائق وخلافه إن وجدت . وطبقا لذلك كانت الوثائق التاريخية هي المصدر الأول في هذا البحث بهدف التحقق من صحة أو كذب ما ذكرته المصادر التاريخية المختلفة من حقائق أو وقائع تتصل بموضوع البحث من قريب أو بعيد ، وكذلك إثبات العديد من الحقائق والوثائق التي لم تثبتها هذه المصادر وصولا بالموضوع إلى طريقه الصحيح الذي لا يقبل الشك .

وبعد هذا الجهد المتواضع من الدراسة التاريخية الوثائقية لتاريخ حياة الزبير باشا رحمة والدور الذي لعبه في تاريخ السودان . فإنه يمكن القول بأن هذا الرجل قد تعرض في خصاله مراحل حياته وكفاحه للعديد من الاتهامات التي الصقت به من قبل الكثير من خصومه من السياسيين والعسكريين ظلما . ولم يحاول

المؤرخون رغم وضوح الرؤية تفنيد هذه المزاعم أو هذه الاتهامات. سوى القليل منهم . لذلك جاءت هذه الدراسة لتفنيد هذه المزاعم والاتهامات ووضع الأمور في نصابها وبيان حقيقة ذلك من عدمه انصافاً للحق وأهله وسوف نعرض في إيجاز لنتائج هذه الدراسة :

أولاً : نفى ما اتهم به الزبير من جانب الكثير من تهمة الاتجار في الرقيق . والدليل أن الزبير بدأ حياته تاجراً عادياً في السلسع المشروعة ، وعندما توجه إلى الجنوب كان دافعه إلى ذلك هو خوفه على ابن عمه ، وعندما اضطرت ظروفه إلى أن يلتحق بالعمل لدى أبي عموري التاجر لم يكن هناك مفر من أن يرسم لحياته خطاً جديداً يتلاءم مع الظروف التي أحاطت به ، فعمل في تجارة العاج وريش النعام وغير ذلك من موارد الجنوب . ولكن عندما بدأ يستقل بنفسه شعر وقتها بأنه يجب أن يضمن لنفسه وتجارته الحماية الكافية من مخاطر تلك المناطق لأن من ينظر إلى الجشرب بقبائله وأحراشه وغاباته وحيواناته يشفق على نفسه من أن يجتازه منفرداً خشية الوقوع ضحية الاخطار التي تكن في كل خطوة . لذلك اضطرب التجار الذين ارتادوا هذه المناطق العديدة من الاتجاع السود الذين استأجروهم أو اشتروهم بغرض الحماية لأنفسهم وتجارته من هذه المخاطر ، وكذلك ليكونوا عوناً في نقل ما يحملونه من بضائع وليتخذوا منهم مرشدين وأدلاء في رحلاتهم عبر هذه المناطق . ولم يكن قصد معظم التجار استرقاقهم . وهذا الذي فعله الزبير كخيره من التجار عندما قصد الجنوب بصحبة العديد من هؤلاء الاتباع ، كانوا له خير عون وكان لهم نعم الأخ والصديق . لأن الجنوب بحاصلاته وموارده مثل العاج وريش النعام وغيره كان متسعاً لأن يتجر فيه من تواغرت لديه الشجاعة والجرأة على المغامرة دون مهابة المخاطر دون أن يعير انتباهها لساعة أخرى كالرقيق مثلاً وأن وجد

فى هذه المناطق الكثير من التجار الذين تخصصوا فى تجارة الرقيق
بالببيع والشراء .

كان الزبير يمتلك الكثير من الرقيق ، ولكن لم يتخذهم يوما من
الأيام مادة لتجارته بل سلعهم بمختلف الأسلحة وكون منهم جيشا
خاصا استطاع بفضلله أن ينتصر به فى حروبه مع ملوك الجنوب ،
وأن يقسّم مملكة لنفسه ، وأن يهزم بهم عرب الرزيقات ، وينتصر
على محمد البلالى . كذلك استطاع بهم فى نهاية الأمر فتح دارفور .
ولولا اخلاص الزبير وحسن معاملته لهم واسترازه بهم ، ما تفانوا
فى خدمته والانتصار له طوال هذه المعارك . وهذا ما يثبت براءة
الزبير من هذه التهمة التى اتخذتها لندن بمثابة حجة لعدم موافقتها
فيما بعد على اقتراح جوردون باستخدام الزبير فى السودان لمواجهة
نفوذ المهدي .

ثانيا : كان من بين النتائج التى انتهت اليها فى هذا البحث
عدم وجود أى دليل يثبت على الزبير خيانتة أو عصيانه للحكومة
المصرية وتزعمه لتجار الرقيق ضدها . وما يثبت ذلك انه عندما
وصلت حملة محمد البلالى الى بحر الغزال لم يجد أمامه سوى
الزبير الذى أحسن وفادته ، ومهد له الطريق لتنفيذ المهام التى كلف
بها ، كما أمده بكل ما يحتاج اليه من المؤن والأموال ولكن بالمرغم
من كل ذلك حاول البلالى الخروج عن الأهداف المحددة لهملته بالجوء
الى وسائل الخداع والمكر وأخيرا مهاجمة ممتلكات الزبير وعاصمته
فكان لابد من مواجهة بين الاثنين انتهت بحصر البلالى الذى
كان سببا فى الصاق تهمة العصيان والتمرد بالزبير ولكن وفاة الزبير
واخلاصه دفعه للاعتذار عن حصر البلالى ، وتقديم قروض الطاعة
والولاء لها . وتأكيدا لاخلاصه هذا قدم ما غنمه بمديرية بحصر
الغزال وشكلا هدية للحكومة لتبعث بمن يتولى أمرها ويتفرغ هو

لتجارته واعتراقا من جانب الحكومة بهذا الاخلاص تم تعيينه مديرا لهذه المديرية مع الانعام عليه بالرتب والنياشين .

وكمثل آخر لاخلاصه لحكومته قام باسم الحكومة بفتح سلطنة دارفور بجيشه الخاص وأمواله دون أن يطلب مقابلًا لذلك سموى الذخيرة والسلاح وتحمل في هذا السبيل عبء التصدي لجيوش السلطان ابراهيم الكثيفة المتوالية والانتصار عليها المرة قلو الأخرى وأخيرا التصدي لجيش السلطان ومصرعه في معركة منواشي .

ويختبر الحكماء اخلاصه فعهد له بمهمة القضاء على تمردات وثورات اقارب السلطان فينجح في ذلك وتم تطوير هذه التمردات . ويختلف الحكماء معه في نظام ادارة المديرية الجديدة ، وتراها الحكومة فرصة للتخلص من نفوذه ويحضر للتفاهم مع الخديو في هذا الخصوص فيطلب منه افضلية بقاءه في القاهرة . فيكتم احزانه وينفذ اوامر الخديو .

ويقدم اخلاصه لحكومته في صورة أخرى عندما قاد احدى الفرق المصرية المشتركة مع القوات العثمانية في حروبها ضد روسيا والانتصار بهذه الفرقة على القوات الروسية مما جعل السلطان يثنى على شجاعته ويهنئه على ذلك .

وبرغم مصرع ابنه سليمان على يد عيسى نايغاز من جوردون ثماته لم يقدم على أى عمل من شأنه تلويث سمعته البيضاء مع الحكومة . وبرغم مصادرة أمواله والتنكيل بأهله وذويه في السودان فان كل ذلك لم يزعزع اخلاصه وولاءه للحكومة .

وعندما طلب جوردون مرافقته معه الى السودان لمساعدته في تنفيذ عملية الاخلاء لم يتوان عن اجابته لطلبه ولولا معارضة

حكومة لندن لذلك لتمام الزبير بانتجاز الكثير وحقق ما لم يكن في قدرة غيره تحقيقه .

وعندما طلب من الزبير تحرير خطساب توصية للقياض الحاصرة للخرطوم مع رسل الحكومة لجورون للسماح له بالخروج من الخرطوم اذا اراد ذلك فقام بتلبية طلب الحكومة ولكن جورون رفض التخلي عن رجاله في محنتهم .

وقد كانت مكافاته التي تلقاها في مقابل اخلاصه هذا هو نفيه لمتطاعة جبل طارق بصعقة أعدائه من الانجليز . وهكذا احييت حياة الزبير وشخصيته بالكثير من الاتهامات التي لم يكن لها أساس من الصحة والتي اثبت هذا البحث عدم واقعيتها .

ثالثا : وكنتيجة لهذا البحث فان الزبير قد اثبت بتاريخه الحافل بالاجداث انه صاحب عبقرية عسكرية رغم انه لم يتلق من العلم سوى مبادئه الاولى ، ولم يلتحق بأي اكااديمية عسكرية بل كانت هذه العبقرية وراء انتصاراته المتوالية في مصر الغزال وشكا ودارفور وفي اسيا الصغرى . كما انه اثبت انه الشخصية السودانية الوحيدة التي ظهرت عبر تاريخ السودان واثرت في احداثه . وقد كان في الامكان ان يمثل رأسا مناهضا لزعماء المهدي لو ان حكومة لندن قد وافقت على الاقتراح استخدامه في السودان ولو فعلت ذلك لتغير مجرى الاحداث ولكنها مشيئة الله . وقد كانت لهيمنة الزبير وطبيعته السخية وانيته العميق من الصفات التي جعلت منه هذه الشخصية التاريخية الفذة .

وقد حاولت في هذا البحث الانعام بجميع جوانب الموضوع قدر الامكان حتى يخرج في صورته التي يجب ان يكون عليها فقد زود البحث بصور النصوص الاصلية للوثائق غير المنشورة مع

ترجمة لهذه النصوص وكذلك زود بعدد من الصور الخاصة بالزبير باشا والشخصيات التي لعبت دورها على مسرح الأحداث أثناء حياته سواء في السودان أو مصر هذا غير ملاحق قوائم المراجع والوثائق وتقييم المراجع العربية والاجنبية .

وأخيرا أضيف أن النتائج التي توضححت ليست هي كل ما أردت الوصول إليه إنما هي أمثلة فقط لأهم النتائج . كما أود أن أقول أن شخصية كشخصية الزبير باشا رصمة تستحق هذا الجهد الذي بذل من أجلها وما زال باب البحث العلمي والتاريخي مفتوحا لأي باحث لاضافة أي جديد من المعلومات أو الحقائق عن الزبير باشا .

وفقنا الله الى ما فيه خير العلم والنفع له .

ملحق بملف تاريخ البلدية وأهمية الأحداث والوثائق المهمة

م	البيانات	التاريخ	المصدر
١	١٢٥٣ م	(فترة خلافة المعتمد بالله) م ١٢٥٦ م)	مغامرة جاكيز خان لبلاد المنول
٢	(١٢٠٨ / ١٢٤٢ م)	(١٢٥٨ م مهاجمة مولاكو لبغداد)	احتلال المنول لتلال الحشائش
٣	٢ سبتمبر ١٢٦٠ م		موقعة عين جالوت
٤	٨ يوليو ١٢٥٧ م		تولى شجرة الدر الحكم في مصر
٥	١٨٢١ م		فتح محمد علي للسودان
٦	٨ يوليو ١٨٢١ م	١٧ محرم ١٢٤٦ م	مولد الزبير بالله رحمة
٧	١٤ سبتمبر ١١٥٦ م	١٤ محرم ١٢٧٢ م	رحلة الزبير لجنوب السودان
٨	١٨٥٦ م	١١٧٣ م	وصول الزبير إلى مشروع الورق
٩	١٨٥٧ م	١٢٧٤ م	ثورة الاهسي الأولى أبو صوري
١٠	١٥ أكتوبر ١٨٥٨ م	٧ ربيع أول ١٢٧٠ م	وصول الزبير إلى رحلته الأولى إلى الخرطوم

المصدر	التاريخ	البريد	م
رحلة الزبير الى بلاد تولو	١٢٧٥ هـ	١٨٥٨ م	١١
عودة الزبير من بلاد تولو الى الخرطوم	١٧ ربيع اول ١٢٧٦ هـ	١٨٥٦ م	١٢
الزبير في بلاد النيام نيام	١٢٧٦ هـ	١٨٥٩ م	١٣
الزبير في بلاد الملك كريم	١٢٧٨ هـ	١٨٦٢ م	١٤
رحيل الزبير على بلاد النيام نيام	١٧ رمضان ١٢٨٧ هـ	١٨٦٢ م	١٥
وصول الزبير الى مشرع الرق	٢ صفر ١٢٨٠ هـ	١٩ يوليو ١٨٦٣ م	١٦
وصوله الى الخرطوم من بلاد الملك كريم	٢٧ ربيع الاول ١٢٨٠ هـ	١١ سبتمبر ١٨٦٣ م	١٧
وصول الزبير ومسجبه الى قرية تولو ببلاد النيام نيام	٢ صفر ١٢٨٠ هـ	٢٥ يوليو ١٨٦٤ م	١٨
وصول الزبير الى النيام نيام نفسها	٢٠ صفر ١٢٨٢ هـ	٢٥ يوليو ١٨٦٤ م	١٩
وصول الزبير الى بلاد الملك دويه (تولو)	١ محرم ١٢٨٢ هـ	٢٧ مايو ١٨٦٥ م	٢٠
انقصار الزبير على محمد علي	١ ربيع الاول ١٢٨٨ هـ	١٨٧١ م	٢١

العدد	الهيـرى	المجلداتى	م
محاربة ملهيوه عم تكمه للزبير	١٢٨٩ م	١٨٧٢ : ١٨٧٢	٢١
مده حكم صلبس الاول		١٨٥٢ : ١٨٦٩	٢٣
فترة حكم سعيد باشا		١٨٦٣ : ١٨٥٤	٢٤
فترة حكم اسماعيل باشا		١٨٧٣ : ١٨٧٩	٢٥
تولى موسى حمدى باشا حكمادارية السودان		١٨٦٢ : ١٨٦٥	٢٦
برهان الوراثه الصليه للخديوى اسماعيل		١٨٦٩ م	٢٧
مستقرة تولى احمد باشا الملكي للحكمادارية نى السودان		١٨٤٥ : ١٨٤٣	٢٨
فترة تولى جمفر مظهر باشا للحكمادارية بالسودان		١٨٦٦ : ١٨٧١	٢٩
قرار الحكومة المصريه باحتكار تجارة اقليم النيل العليا		١٨٧٢ م	٣٠
فترة تولى اسماعيل باشا ليريب للحكمادارية نى السودان		١٨٧٢ : ١٨٧٧	٢١

الحدث	الهجري	الميلادي	م
مستطور نرهان بتعين جوردون حكما دارا للسودان	٤ صفر ١٢٩٤ هـ	٢٠ فبراير ١٨٧٧ م	٢٢
توقيع معاهدة الفناء تجارة الرقيق تترك البلاي بجمانه لاحتلال بحر الغزال ويخطه على يد الزبير . .		اغسطس ١٨٧٧ م ١٨٦٩ م	٢٣ ٢٤
بداية اتصال الزبير بمشايخ عرب الريقات	شوال ١٢٨٢ هـ	مارس ١٨٦٦ م	٢٥
هزيمة عرب الريقات ودخول الزبير شكا	غرة رجب ١٢٩٠ هـ	٢٥ أغسطس ١٨٧٢ م	٢٦
تعيين الزبير حاكما على بحر الغزال تولي السلطان حسين ابن الفضل الحكم بدارغور	١٢٩٠ هـ	٢٧ ٢٨ ١٨٧٢ م ١٨٧٤ م	٢٧ ٢٨
تشويه الحرب بين الزبير والسلطان تكمه . .	١٢٨١ هـ	١٨٧٢ م	٢٩
إعادة فتح الطريق الى شكا . .	١٢٩٠ هـ	١٨٧٢ م	٤٠

الحدث	الهجرى	الميلادى	م
تصدى القوات المصرية لثلاثة من الرقيق .. قاذبة من دارفور بسبب الغزو ..	١٢٩٠ هـ	١٨٧٢ م	٤١
المركة بين الزبير والسلطان ابونا	٤ جمادى الاولى ١٢٩١	١٨٧٤ م	٤٢
الفرمان للمسالخ من الباب العالي باعتبار سلطنة دارفور ضمن الاتاليم السودانية .		١٨٤١ م	٤٣
دخول الابير حسب الله دارا (قطمة)		٢٥ أغسطس ١٨٧٤ م	٤٤
وصول السلطان ابراهيم الى دارا		١٦ أكتوبر ١٨٧٤ م	٤٥
وصول الحكمدار على رأس الحنة الى محل يقال له دارفور العمار ..	٢٤ رجب ١٢٩١ هـ	٦ سبتمبر ١٨٧٤ م	٤٦
احتلال اسماعيل باشا ايوب لبلدة أم شنتة .		١ أكتوبر ١٨٧٤ م	٤٧
معركة بنواشي - بقتل السلطان ابراهيم ..	١١ رمضان ١٢٩١ هـ	٢٥ أكتوبر ١٨٧٤ م	٤٨

المجلد	العدد	العدد	المجلد	العدد
٤٩	٢	نوفمبر ١٨٧٤ م	١٩	أغسطس ١٨٧٥ م
٥٠	١١	نوفمبر ١٨٧٤ م	٢٠	يونيو ١٨٧٥ م
٥١	١	أغسطس ١٨٧٥ م	٢١	أغسطس ١٨٧٥ م
٥٢	١٩	أغسطس ١٨٧٥ م	٢٢	أغسطس ١٨٧٥ م
٥٣	١٠	يونيو ١٨٧٥ م	٢٣	أغسطس ١٨٧٥ م
٥٤	١٨٧٧ م		٢٤	أغسطس ١٨٧٧ م
٥٥	١٨٧٩ م		٢٥	أغسطس ١٨٧٩ م
٥٦	١٨٨٢ م		٢٦	أغسطس ١٨٨٢ م
٥٧	١٨٩٦ م		٢٧	أغسطس ١٨٩٦ م

الحدث	الهجري	الميلادي	م
تعيين جوردون حاكمها عليها على السودان . .		١٧ فبراير ١٨٧٧ م	٥٨
استدعاء جوردون من السودان		٥٩ يونيو ١٨٧٩ م	
تولى رؤوف باشا الحكمانية خلفه لجوردون .		١٨٧٩ — ١٨٨٢ م	٦٠
استقالة وزارة شريف باشا		٧ يناير ١٨٨٢ م	٦١
تأليف وزارة نوبار باشا		١٠ يناير ١٨٨٤ م	٦٢
لقضاء الزبير وجوردون في منزل السير أيفلين بلانج . .		٢٥ يناير ١٨٨٤ م	٦٣
سفر جوردون مع ستيوارت الى الخرطوم .		٢٦ يناير ١٨٨٤ م	٦٤
مقتل ستيوارت وهو في طريقه الى مصر		١٠ سبتمبر ١٨٨٤ م	٦٥
سقوط الخرطوم في ايدي المهينين .		٢٦ يناير ١٨٨٥ م	٦٦
وصول حملة الجنرال ولسلي الى دنقلا		٣ نوفمبر ١٨٨٤ م	٦٧

تفتش قصر الزبير بالقللى ..	٢١ يناير ١٨٨٥ م	٦٨
نفي الزبير الى جبل طارق ..	١ يوليو ١٨٨٥ م	٦٩
بنى الزبير لنفسه قصرا فى حلوان،	١٩٠٥ م	٧٠
المسماح للزبير بالسفر الى	١٩٠٣ م	٧١
السودان		
اعساد كرومر للزبير ممتلكاته فى	١٩٠٠ م	٧٢
السودان		
زيارة للشيخ محمد عبده للسودان	١٩٠٥ م يناير	٧٣
تاريخ وصول الزبير لمصر لأول مرة	١ يونيو ١٨٧٥ م	٧٤
تاريخ رحلته الاخيرة للسودان	١ اغسطس ١٩١٢ م	٧٥
عودته من منفاه بجبل طارق	١ اغسطس ١٨٨٧ م	٧٦
توفى الزبير بالقسا ..	٦ يناير ١٩١٣ م	٧٧
فترة الحرب بين الزبير وعسريه	١ يوليو — ٢٨ اغسطس ١٨٧٢ م	٧٨
الزيارات		
منح الزبير لقب بك وتولى امسور	٢٧ فبراير ١٨٧٤ م	٧٩
مشيرة بحر النزال		
تاريخ المسركة الثانية مع الامير	٣١ اغسطس ١٨٧٤ م	٨٠
حسب الله		
تاريخ المعركة الثالثة مع الامير	٨ سبتمبر ١٨٧٤ م	٨١
حسب الله		

الفهرس

الصفحة

٥	تقديم
٧	المقدمة
١٧	هوامش المقدمة

الفصل الأول :

٢١	(بداية ظهور الزبير رحمة في السودان)
٢٣	تمهيد
٢٨	الانطباعات التي تركتها هذه الرحلة في حياة الزبير
٢٨	الزبير يستقل بنفسه
٣٠	الزبير في بلاد قولو (١٢٧٥ هـ — ١٨٥٨ م)
٣١	الزبير في بلاد النيام قيام (١٢٧٦ هـ — ١٨٥٩ م)
٣٥	الزبير والملك كريم (١٢٧٨ هـ — ١٨٦٢ م)
٣٩	الزبير في بلاد القيام نيام ثانية (١٢٨٠ هـ — ١٨٦٣ م)
٤١	الزبير في بلاد الملك دويه (١٢٨١ هـ — ١٨٦٤ م)
٤٢	الزبير وعذوه شكو وابنه شيجا (١٢٨٢ هـ — ١٨٦٥ م)
٤٥	تجدد النزاع بين الزبير والسلطان تكة
٥١	هوامش الفصل الأول

الفصل الثاني :

- (الدور الذى لعبه الزبير فى بحر الغزال وشكا . ٥٥
 مواقف الحكومة المصرية من تجارة الرقيق فى السودان ٥٧
 التفكير فى ضم بحر الغزال ٦٥
 حملة البلالى ٦٧
 اهداف حملة البلالى ٧١
 بداية الصراع بين الزبير والبالى ٧٢
 المعركة الفاصلة ونهاية الصراع بين الزبير والبالى
 (١٢٨٦ هـ - ١٨٦٩ م) ٧٨
 التحقيق فى مقتل البلالى ٨٢
 قيام الزبير بتنظيم امور مديرية بحر الغزال . . . ٨٦
 دور الزبير فى فتح شكا وتأسيس عرب الرزيقات . ٨٧
 اندلاع الحرب بين الزبير وعرب الرزيقات . . . ٩١
 الزبير وعبد الله التعايشى ٩٥
 الزبير والشيخان منزل وعليان ٩٦
 تعيين الزبير حاكما على بحر الغزال وشكا
 (١٢٩٠ هـ - ١٨٧٣ م) ١٠٠
 هوامش الفصل الثانى ١٠٢

الفصل الثالث :

- (الدور الذى لعبه الزبير فى فتح دارفور) . . . ١١١
 اولا : الاسباب التى أدت لغزو سلطنة دارفور . . ١١٣
 استطلاع احوال سلطنة دارفور الداخلية . . . ١١٧

الصفحة

١١٨	أبراهيم	ثانياً : أسباب النزاع الذى نشأ بين الزبير والسلطان
١١٨	١ - الدوافع السياسية والعسكرية	
١٢٢	٢ - الأسباب الاقتصادية	
١٢٢	قيام الحرب بين الزبير والسلطان ومشاركة الحكومة	
١٢٢	ليها	
١٢٧	الاتصالات بين القاهرة والخرطوم	
١٢٧	شكوى سلطان دارفور للخديو من حركات الزبير	
١٣٥	والحكماء	
١٣٦	موقعة الشترى أحمد نمر	
١٤٠	موقعة الأمير حسب الله	
١٤١	المعركة الأولى	
١٤٢	المعركة الثانية	
١٤٢	المعركة الثالثة	
١٤٥	عوامل انتصار جيش الزبير وهزيمة جيش الأمير	
١٤٥	حسب الله	
١٤٨	قيام السلطان إبراهيم بنفسه الى داره	
١٥٠	دور حملة الشرق بقيادة الحكماء	
١٥٢	الاستيلاء على أم شنقة	
١٥٤	اتهام اسماعيل باشا أيوب بتعمد الإبطاء في التقدم	
١٥٤	نحو الماشر	
١٥٦	موقعة منوالى (١٤ رمضان ١٢٩١ هـ - ٢٥ أكتوبر	
١٥٦	١٨٧٤ م)	

الصفحة

١٥٩	دخول العاصمة الفاشر
	الموازنة بين دور جيش الزبير ودور حملة الشرق في
١٦٠	فتح دارفور
١٦٠	أولا : دور جيش الزبير
١٦٠	ثانيا : حملة الشرق بقيادة الحكمدار
١٦١	غنائم الحرب
١٦٢	تمرد الأمير حسب الله
١٦٥	ثورة الأمير بوشس
١٦٦	الزبير يتوغل بجيشه لجهة الغرب (برغو سواداي)
١٦٨	ترقية الزبير والحكمدار
١٦٩	مكان الزبير في الإدارة الجديدة
١٨١	هوامش الفصل الثالث
	الفصل الرابع :
١٩٣	(الزبير وجوردون)
	الدور الذي لعبه الزبير في الحرب الروسية التركية
١٩٥	(١٨٧٧ م - ١٢٩٤ هـ)
	ثورة سليمان الزبير ومقتله على يد جنى
١٩٧	(١٨٧٩ م - ١٢٩٦ هـ)
٢٠٠	الاحداث التي اعقبت مقتل سليمان بن الزبير
٢٠٢	رفض الزبير باشا الاشتراك في حملة سواكن
٢٠٥	الزبير وجوردون وحوادث الاخلاء
٢١٣	اجتماع الزبير وجوردون في القاهرة
٢١٦	اقتراح جوردون باعادة استخدام الزبير في السودان

الصفحة

٢٣٢	الغسل في شأن استخدام الزبير
	تطور الأحداث والنقائج التي ترتبت نتيجة عدم استخدام
٢٤٠	الزبير
٢٤٤	حملة الجنرال ولسلى
٢٥٠	ما بين مؤيدى ومعارضى استخدام الزبير في السودان
٢٥٦	نفى الزبير باشا الى جبل طارق
٢٦٣	حوامش الفصل الرابع

الفصل الخامس :

٢٧١	(الزبير رحمة في نهاية حياته)
٢٧٤	تمويض الحكومة المصرية للزبير ماديا
٢٧٦	حياته في القاهرة واتصاله برجال الحكم و كبار العلماء
٢٨٠	اتصال الفرنسيين بالزبير في مصر
٢٨٢	الساح الزبير بالسفر الى السودان
٢٨٦	الشعر في حياة الزبير
٢٨٦	أولا : ما أنشاه الزبير من شعر في حياته
٢٨٩	ثانيا : ما قاله الشعراء في مدح الزبير والاشادة به
٢٩٤	رحلة الزبير الأخيرة للسودان
٢٩٦	وفاة الزبير باشا وهو في السودان
٢٩٦	حوامش الفصل الخامس
٣٠١	الخاتمة ونتائج البحث

صدر في هذه السلسلة :

- ١ - مصطفى كامل في محكمة التاريخ ،
د. عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٧ ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٢ - علي ماهر :
رشوان محمود جاب الله ، ١٩٨٧
- ٣ - ثورة يوليو والطبقة العاملة :
عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٨٧
- ٤ - التيارات الفكرية في مصر المعاصرة ،
د. محمد نعيان جلال ، ١٩٨٧
- ٥ - غارات أوروبا على الشواطئ المصرية في العصور الوسطى ،
عليه عبد السميع الجنزوري ، ١٩٨٧
- ٦ - هؤلاء الرجال من مصر ، ج ١ ،
لمس المطيع ، ١٩٨٧
- ٧ - صلاح الدين الأيوبي ،
د. عبد المنعم ماجد ، ١٩٨٧
- ٨ - رؤية الجبرتي لازمة الحياة الفكرية ،
د. علي بركات ، ١٩٨٧
- ٩ - صفحات مطوية من تاريخ التزعيم مصطفى كامل ،
د. محمد أنيس ، ١٩٨٧
- ١٠ - توفيق دياب ملحة الصحافة الحزبية :
محمود فوزي ، ١٩٨٧
- ١١ - عائلة شخصية مصرية وشخصية ،
شكري القاضي ، ١٩٨٧
- ١٢ - هدى شعراوي وعصر التنوير ،
د. نبيل راغب ، ١٩٨٨

- ١٣ - أكلوبة الاستعمار المصري للسودان : رؤية تاريخية ،
د. عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٨ ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ١٤ - مصر في عصر الولاة ، من الفتح العربي الى قيام الدولة
الطولونية ،
د. سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٨
- ١٥ - المستشرقون والتاريخ الاسلامي ،
د. على حسنى الخربوطلى ، ١٩٨٨
- ١٦ - فصول من تاريخ حركة الإصلاح الاجتماعى في مصر : دراسة
عن دور الجمعية الخيرية (١٨٩٢ - ١٩٥٢) ،
د. حلى أحمد شلبى ، ١٩٨٨
- ١٧ - القضاء الشرعى في مصر في العصر العثماني ،
د. محمد نور فرحات ، ١٩٨٨
- ١٨ - الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية ،
د. على السيد محمود ، ١٩٨٨
- ١٩ - مصر القديمة وقصة توحيد القطرين ،
د. أحمد محمود صابون ، ١٩٨٨
- ٢٠ - دراسات في وثائق ثورة ١٩١٩ : المراسلات السرية بين
سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى :
د. محمد أنيس ، ط ٢ ، ١٩٨٨
- ٢١ - التصوف في مصر ابان العصر العثماني ، ج ١ ،
د. توفيق الطويل ، ١٩٨٨
- ٢٢ - نظرات في تاريخ مصر ،
جمال بدوى ، ١٩٨٨
- ٢٣ - التصوف في مصر ابان العصر العثماني ، ج ٢ - اعام
التصوف في مصر : الشعراوى ،
د. توفيق الطويل ، ١٩٨٨

- ٢٤ - الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ - ١٩٣٦) ،
د . نجوى كامل ، ١٩٨٩
- ٢٥ - المجتمع الاسلامى والقرب ،
تأليف : هاملتون جيب وهارولد بويرين ، ترجمة : د . أحمد
عبد الرحيم مصطفى ، ١٩٨٩
- ٢٦ - تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة ،
د . سعد اسماعيل على ، ١٩٨٩
- ٢٧ - فتح العرب لمصر ، ج ١ ،
تأليف : الفريد ج . بتلر ، ترجمة : محمد فريد أبو حديد
١٩٨٩
- ٢٨ - فتح العرب لمصر ، ج ٢ ،
تأليف : الفريد ج . بتلر ، ترجمة : محمد فريد أبو حديد
١٩٨٩
- ٢٩ - مصر فى عصر الاختسيديين ،
د . سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٩
- ٣٠ - الموظفون فى مصر فى عصر محمد على ،
د . حلمى أحمد شلبى ، ١٩٨٠
- ٣١ - خمسون شخصية مصرية وشخصية ،
شكرى القاضى ، ١٩٨٩
- ٣٢ - هؤلاء الرجال من مصر ، ج ٢ ،
لمسى المطيعى ، ١٩٨٩
- ٣٣ - مصر وقضايا الجنوب الأفريقى : نظرة على الأوضاع
الراهنه ورؤية مستقبلية ،
د . خالد محمود الكومى ، ١٩٨٩
- ٣٤ - تاريخ العلاقات المصرية المغربية ، منذ مطلع المصور الحديثة
حتى عام ١٩١٢ ،
د . يوتان رزق ، محمد مزين ، ١٩٩٠

- ٣٥ - اعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة ،
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٠
- ٣٦ - المجتمع الاسلامى والغرب ، ج ٢ ،
تأليف : هاملتون بووين : ترجمة : د. أحمد عبد الرحيم
مصطفى ، ١٩٩٠
- ٣٧ - الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية
في ربع قرن ،
د. سليمان صالح ، ١٩٩٠
- ٣٨ - فصول من تاريخ مصر الاقتصادية والاجتماعى في العصر
العثمانى ،
د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، ١٩٩٠
- ٣٩ - قصة احتلال محمد على لليونان (١٨٢٤ - ١٨٢٧) ،
د. جميل عبيد ، ١٩٩٠
- ٤٠ - الأسلحة الفاسدة ودورها في حرب فلسطين ١٩٤٨ ،
د. عبد المنعم الدسوقي الجميلى ، ١٩٩٠
- ٤١ - محمد فريد : المؤلف والأساسة ، رؤية عصرية ،
د. رفعت السعيد ، ١٩٩١
- ٤٢ - تكوين مصر عبو العصور ،
محمد شفيق غربال ، ط ٢ ، ١٩٩٠
- ٤٣ - رحلة في عقول مصرية ،
ابراهيم عبد العزيز ، ١٩٩٠
- ٤٤ - الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر في العصر العثمانى ،
د. محمد عفيفى ، ١٩٩١
- ٤٥ - الحروب الصليبية ، ج ١ ،
تأليف : وليم الصورى ، ترجمة وتقديم : د. حسن
حبشى ، ١٩٩١

- ٤٦ - تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية (١٩٣٩ - ١٩٥٧) ،
ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩١
- ٤٧ - تاريخ القضاء المصري الحديث ،
د. لطيفة محمد سالم ، ١٩٩١
- ٤٨ - الفلاح المصري بين العصر القبطي والعصر الاسلامي ،
د. زبيدة عطا ، ١٩٩١
- ٤٩ - العلاقات المصرية الاسرائيلية (١٩٤٨ - ١٩٧٩) ،
د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢
- ٥٠ - الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ - ١٩٥٤) ،
د. مسهر اسكندر ، ١٩٩٣
- ٥١ - تاريخ المدارس في مصر الاسلامية ،
(أبحاث الندوة التي اقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس
الاعلى للثقافة ، في ابريل ١٩٩١) أعدها للنشر :
د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢
- ٥٢ - مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين ، في القرن
الثامن عشر ،
د. الهام محمد علي ذهني ، ١٩٩٢
- ٥٣ - أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك الجراكسة ،
د. محمد كمال الدين عز الدين علي ، ١٩٩٢
- ٥٤ - الأقباط في مصر في العصر العثماني ،
د. محمد عفيفي ، ١٩٩٢
- ٥٥ - الحروب الصليبية ج ٢ ،
تأليف : وليم المصوري ، ترجمة وتعليق : د. حسن
حيشي ، ١٩٩٢
- ٥٦ - المجتمع الريفي في عصر محمد علي : دراسة عن القليم
الغولفسيه ،
د. حلمي أحمد شلبي في ١٩٩٢

- ٥٧ - مصر الإسلامية وأهل اللغة ،
د. سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٩٢
- ٥٨ - أحمد حلمي سجين الحرية والصحافة ،
د. ابراهيم عبد الله المسلمي ، ١٩٩٣
- ٥٩ - الرأسمالية الصناعية في مصر ، من التمهيد إلى التأميم
(١٩٥٧ - ١٩٦١) ،
د. عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٩٣
- ٦٠ - المعاصرون من رواد الموسيقى العربية ،
عبد الحميد توفيق زكي ، ١٩٩٣
- ٦١ - تاريخ الاسكندرية في العصر الحديث ،
د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣
- ٦٢ - هؤلاء الرجال من مصر ، ج ٣ ،
لمى الخطيمي ، ١٩٩٣
- ٦٣ - موسوعة تاريخ مصر عبد العصور : تاريخ مصر الإسلامية ،
تأليف : د. سيدة اسماعيل كاشف ، جمال الدين سرور ،
وسعيد عبد الفتاح عاشور ، أعدها للنشر : د. عبد العظيم
رمضان ، ١٩٩٣
- ٦٤ - مصر وحقوق الإنسان ، بين الحقيقة والافتراء : دراسة
وثائقية ،
د. محمد نسيان جلال ، ١٩٩٣
- ٦٥ - موقف الصحافة المصرية من الصهيونية (١٨٩٧ - ١٩١٧) ،
د. سهام نصار ، ١٩٩٣
- ٦٦ - المرأة في مصر في العصر الفاطمي ،
د. نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٣

- ٦٧ - مساعي السلام العربية الإسرائيلية : الأصول التاريخية ،
(أبحاث الندوة التي أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس
الأعلى للثقافة ، بالاشتراك مع قسم التاريخ بكلية البنات
جامعة عين شمس ، في إبريل ١٩٩٣) ، أعدها للنشر :
د. عبد المظلم رمضان ، ١٩٩٣
- ٦٨ - الحروب الصليبية ، ج ٣ ،
تأليف : وليم الصوري ، ترجمة وتعليق : د. حسن
حبشي ، ١٩٩٣
- ٦٩ - نبوية موسى ودورها في الحياة المصرية (١٨٨٦ - ١٩٥١) ،
د. محمد أبو الاسعاد ، ١٩٩٤
- ٧٠ - أهل القمة في الاسلام ،
تأليف : أ.س. ترتون ، ترجمة وتعليق : د. حسن حبشي ،
ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٧١ - مذكرات النوردة كليرن (١٩٣٤ - ١٩٤٦) ،
اعداد : ثريفور أيفانز ، ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد
عمرو ، ١٩٩٤
- ٧٢ - رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المسالية والاقتصادية لمصر
في العصر الفاطمي (٣٥٨ - ٥٦٧ هـ) ،
أمانة أحمد امام ، ١٩٩٤
- ٧٣ - تاريخ جامعة القاهرة ،
د. رؤوف عباس حامد ، ١٩٩٤
- ٧٤ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، ج ١ ، في العصر الفرعوني ،
د. سمير يحيى الجمال ، ١٩٩٤
- ٧٥ - أهل القمة في مصر ، في العصر الفاطمي الأول ،
د. سلام شاغبي محمود ، ١٩٩٥

- ٧٦ - دور التعليم المصري في الانفصال الوطني (زمن الاحتلال
البريطاني) ،
د. سميد اسماعيل علي ، ١٩٩٥
- ٧٧ - الحروب الصليبية ، ج ٤ ،
تأليف : وليم الصوري ، ترجمة وتعليق : د. حسن
حبشي ، ١٩٩٤
- ٧٨ - تاريخ الصحافة السكندرية (١٨٧٣ - ١٨٩٩) ،
نعمات أحمد عثمان ، ١٩٩٥
- ٧٩ - تاريخ الطرق الصوفية في مصر ، في القرن التاسع عشر ،
تأليف : فريد دي يونج ، ترجمة : عبد الحميد فهمي
الجمال ، ١٩٩٥
- ٨٠ - فتاة السويس والتنافس الاستعماري الأوروبي
(١٨٨٢ - ١٩٠٤) ،
د. السيد حسن جلال ، ١٩٩٥
- ٨١ - تاريخ السياسة والصحافة المصرية ، من هزيمة يونيو الى
نصر أكتوبر ،
د. رمزي ميخائيل ، ١٩٩٥
- ٨٢ - مصر في فجر الاسلام ، من الفتح العربي الى قيام الدولة
المملوكية ،
د. سيد اسماعيل كاشف ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٨٣ - مذكراتي في نصف قرن ، ج ١ ،
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٤
- ٨٤ - مذكراتي في نصف قرن ، ج ٢ ، القسم الأول ،
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٥
- ٨٥ - تاريخ الاذاعة المصرية : دراسة تاريخية (١٩٣٤ - ١٩٥٢) ،
د. حلمي أحمد شلبي ، ١٩٩٥

- ٨٦ - تاريخ التجارة المصرية في مصر الحرة الاقتصادية
(١٨٤٠ - ١٩١٤) ،
د. أحمد القريبنى ، ١٩٩٥
- ٨٧ - مذكرات اللورد كلرن ، ج ١ ، (١٩٣٤ - ١٩٤٦) ،
اعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة وتحقيق : د. عبد الرؤوف
أحمد عمرو ، ١٩٩٥
- ٨٨ - التلوق الموسيقى وتاريخ الموسيقى المصرية ،
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٥
- ٨٩ - تاريخ الموانئ المصرية في العصر العثماني ،
د. عبد الحميد حامد سليمان ، ١٩٩٥
- ٩٠ - معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية ،
د. نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٦
- ٩١ - تاريخ مصر الحديثة والشرق الأوسط ،
تأليف : بيتر مانسفيلد ، ترجمة : عبد الحميد فهمي
الجمال ، ١٩٩٦
- ٩٢ - الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ - ١٩٣٦)
ج ٢ ،
نحوى كامل ، ١٩٩٦
- ٩٣ - قضايا عربية في البرلمان المصرى (١٩٢٤ - ١٩٥٨) ،
د. نبيه بيومى عبد الله ، ١٩٩٦
- ٩٤ - الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ - ١٩٥٤)
ج ٢ ،
د. سهر اسكندر ، ١٩٩٦

- ٩٥ - مصر وأفريقيا .. الجذور التاريخية الأفريقية المعاصرة ،
(أبحاث الندوة التي أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس
الأعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات
الأفريقية بجامعة القاهرة)
أعدها للنشر د . عبد العظيم رمضان
- ٩٦ - عبد الناصر والحرب العربية الباردة (١٩٥٨ - ١٩٧٠) ،
تأليف : مالكولم كير ، ترجمة د . عبد الرؤوف أحمد عمرو
- ٩٧ - العربان ودورهم في المجتمع المصري في النصف الأول من
القرن التاسع عشر ،
د . إيمان محمد عبد المنعم عامر
- ٩٨ - هيكل والسياسة الأسبوعية ،
د . محمد سيد محمد
- ٩٩ - تاريخ الطب والمسيحة المصرية (العصر اليوناني -
الروماني) ج ٢ ،
د . سبر يحيى الجمال
- ١٠٠ - موسوعة تاريخ مصر عبر العصور : تاريخ مصر القديمة ،
د . د . عبد العزيز صالح ، د . جمال مختار ،
د . محمد إبراهيم بكر ، د . إبراهيم نصحي ،
د . فاروق القاصي ، أعدها للنشر : د . عبد العظيم
رمضان
- ١٠١ - ثورة يوليو والحقيقة القاتمة ،
الأسواء / مصطفى عبد المجيد نصير ، الأسواء /
عبد الحميد كفاقي ، اللواء / سعد عبد الحفيظ ، السفير /
جمال منصور
- ١٠٢ - المقطم جريدة الاحتلال البريطاني في مصر ١٨٨٩ - ١٩٥٢
د . تيسير أبو عرجة

- ١٠٣ - رؤية الجبرتي لبعض قضايا مصره
د . على بركات
- ١٠٤ - تاريخ العمال الزراعيين في مصر (١٩١٤ - ١٩٥٢)
د . فاطمة علم الدين عبد الواحد
- ١٠٥ - السلطة السياسية في مصر والقضية الديمقراطية ١٨٠٥ -
١٩٨٧
د . أحمد مارس عبد المنعم
- ١٠٦ - الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية
في ربع قرن ، ج ٢
د . سليمان صالح
- ١٠٧ - الأصولية الإسلامية في العصر الحديث
تأليف تليب هير ، ترجمة : عبد الحميد نهي الجمال
- ١٠٨ - مصر للمصريين ج ٤
سليم خليل النقاش
- ١٠٩ - مصر للمصريين ج ٥
سليم خليل النقاش
- ١١٠ - مصانرة الأملاك في الدولة الإسلامية (عصر سلاطين
المماليك) ج ١
د . البيومي اسماعيل الشربيني
- ١١١ - مصانرة الأملاك في الدولة الإسلامية (عصر سلاطين
المماليك) ج ٢
د . البيومي اسماعيل الشربيني
- ١١٢ - اسماعيل باشا صتقى
د . محمد محمد الجوادى
- ١١٣ - الزبير باشا ودوره في السودان (في عصر الحكم المصري)
د . اسماعيل عز الدين

رقم الايداع ١٩٩٧/٧٨٨٥

الترقيم الدولي 4 — 5299 — 01 — 977 I.S.B.N.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
فروع الصحافة

هذا الكتاب يتناول دور الزبير باشا في السودان في عصر الحكم المصري، وهو ينقسم إلى خمسة فصول قدم لها المؤلف بمقدمة تحدث فيها عن الزبير باشا والأصول الأولى لأسرته حتى مولده في عام ١٨٣١ عندما كان السودان خاضعا للحكم المصري.

وفي الفصل الأول، وهو بعنوان «بداية ظهور الزبير رحمه في السودان» تحدث عن عمله بالعجالة، وذهابه إلى بلاد النيام نيام (النعام)، ومقابلته للملك كريم، وتزاعاته مع ملوك البلاد التي زارها. أما الفصل الثاني، فقد تحدث فيه عن الدور الذي لعبه الزبير باشا في بحر الغزال وبلاد شكا، وتعرض لموقف حكومة مصر من تجارة الرقيق في السودان. أما الفصل الثالث فقد تعرض فيه للدور الذي لعبه الزبير في فتح دارفور. كما تعرض لحملة الشرق بقيادة الحكمدار اسماعيل باشا أيوب، وموقعة منواش، ودخول العاصمة الفاشر. أما الفصل الرابع فهو بعنوان «الزبير - جوردون» فقد تحدث فيه عن الدور الذي لعبه الزبير في الحرب الروسية التركية، ورفض الزبير الاشتراك في حملة سواكن كما تعرض لحوادث إخلاء السودان، وانتهى بنفى الزبير إلى جبل طارق سنة ١٨٨٥.

وقد اعتمد الباحث دراسته بفصل خامس تناول فيه الزبير باشا وصحته في نهاية حياته.

To: www.al-mostafa.com